

هل تنجح الصهيونية في هدم الأمم المتحدة؟

حمد عبدالعزيز الكواري

إنهم يمشون على النار حفاة

آخر مقال للكاتب الكبير الراحل

د. عبدالمحسن صالح

ظاهرة مثيرة

المناخ يتغير فوق الأرض

سعد شعبان



النشوة في نوفمبر

قصة جديدة بقلم الكاتب الكبير

نجيب محفوظ

مختار.. رائد فن النحت العربي المعاصر

صبحي الشاروني

وسائل الصهيونية في محاربة الأمم المتحدة

هل ينجح الصّهيونيّون في تدمير المنظمة الدوليّة وتشويه سمعتها وتحطيم أمل شعوب الأرض فيها؟!

يتشابك تاريخ الصهيونية وتاريخ التنظيم الدولي حتى من قبل ميلاد الأمم المتحدة ، فلقد كانت عصبة الأمم هي التي خرجت بالصهيونية من مجال الأفكار النظرية إلى مجال السياسات العملية حين ضمنت صك الانتداب الذي منحته بريطانيا على فلسطين التزاماً على الدولة المنتدبة بتسهيل انشاء « وطن قومي » لليهود في فلسطين تطبيقاً لوعد بلفور المشئوم.

أما الأمم المتحدة فقد كانت هي القابلة التي على يديها ولد الكيان الصهيوني في شكل دولة اسرائيل وذلك وفقاً لقرار التقسيم الصادر عن الجمعية العامة في ٢٩ نوفمبر ١٩٤٧ ، بعد مناورات طويلة وضغوط شديدة مارسها الصهيونيون وأنصارهم على بعض الدول أعضاء الأمم المتحدة ــ بل وعلى بعض المندوبين الذين لم تكن لديهم تعليمات من حكوماتهم ، وبذلك كان في امكانهم التصويت على أية صورة شاؤوا ــ وكانت نتيجة تلك المناورات والضغوط أن صدر قرار التقسيم بأغلبية ٣٣ صوتاً ضد ١٣ صوتاً مع امتناع عشرة عن التصويت ، وجدير بالذكر أن عضوية الأمم المتحدة كانت محدودة بالنسبة لما هي عليه الآن فضلاً عن كون غالبية الأعضاء من الدول الغربية ومن يدورون في فلكها خلافاً لما آل إليه أمر الأمم المتحدة بعد تصفية الاستعمار.

كان لصدور قرار التقسيم رنة فرح لدى الصهاينة سواء من كان منهم وقتها في فلسطين أو خارجها ، وقوبل القرار بمظاهرات الابتهاج لكونه بشيراً بمولد الدولة اليهودية التي طالما سعى الصهاينة الى انشائها في قلب الوطن العربي.

ولكن بدلاً من أن يشعر الصهاينة بشعور العرفان والشكر للأمم المتحدة كانت مكافأة المنظمة على اصدار قرار التقسيم وما أعقبه من اعلان قيام اسرائيل في ١٥ مايو ١٩٤٨ ، هي اغتيال ممثل الأمم المتحدة في فلسطين الكونت برنادوت على يد بعض الارهابيين الصهاينة وذلك في يوم ١٧ سبتمبر ١٩٤٨ ، وقد تمكن أنصار الصهيونية في المحافل الدولية من التهوين من شأن تلك الجريمة على أساس أن الدولة الجديدة ليست مسئولة عنها بل ان مرتكبيها هم من الأفراد الخارجين على القانون ، وبالفعل كان كل ما فعلته الأمم المتحدة أن أصدرت قرارين من مجلس الأمن (رقم ٥٧ ، ١٩٤٨ ، ورقم ٥٩ ، ١٩٤٨ ، في ٩/١٨ و ١٩٤٨/١٠/٢٩ على التوالي) ينصان على مجرد طلب تقرير من اسرائيل عن تلك « الجريمة البشعة » ! أما القاتلان فقد اعتبرهما الصهاينة من أبطال حركتهم الوطنية وحوكما فقضى عليهما بفترات محدودة من السجن ثم صدر العفو عنهما بعد قليل ، بل ان أحدهما قد رشح في انتخابات الكنيسيت وأصبح عضواً فيه سنة ١٩٥٠ !

على أن ذلك كله لم يؤثر في علاقة الصهيونية بالأمم المتحدة فقد قررت المنظمة في



■ كانت مكافأة منظمة الأمم المتحدة هي اغتيال ممثلها في فلسطين، وأصبح أحد القتلة عضوًا في الكنيست عام ١٩٥٠

■ انتهى شهر العسل بين الصهيونية والأمم المتحدة، بعد إدانة إسرائيل في مذبحة "قبية"

■ الصهاينة يُشيعون أن المنظمة أصبحت في يد أعداء إسرائيل بعد أن أصبح لدول العالم الثالث الأغلبية العددية في الجمعية العامة

■ الدور الذي لعبته مراكز الدراسات والأبحاث في الولايات المتحدة الأمريكية لتجنيد الرأي العام ضد الأمم المتحدة

بقلم: حمد عبد العزيز الكواري

٤ مارس ١٩٤٩ ، (قرار مجلس الأمن رقم ٦٩ « ١٩٤٩ ») قبول اسرائيل عضواً كامل العضوية في الأمم المتحدة.

إلا أن بعض الغيوم سرعان ما تكاثفت في جو العلاقة بين الكيان الصهيوني والأمم المتحدة وكانت تلك هي بداية التحول في نظرة الصهاينة وأنصارهم إلى الأمم المتحدة من التعاطف والتأييد إلى التنابذ واللوم والتجريح. ويمكن أن نقول إن أول بادرة لانتهاء شهر العسل بين الصهيونية والأمم المتحدة كانت صدور قرار مجلس الأمن رقم ١٠١ (١٩٥٣) في ٢٤ نوفمبر ١٩٥٣ في شأن مذبحة قبية وفيه أدان المجلس اسرائيل لخرقها قرار وقف اطلاق النار وشجب عملها وطالبها بعدم تكرار مثل ذلك مستقبلاً ، وأعقب ذلك في سنة ١٩٥٥ صدور القرار رقم ١٠٦ بإدانة اسرائيل لهجومها على غزة ثم في سنة ١٩٥٦ القرار رقم ١١١ بادانة اسرائيل لعملياتها الحربية ضد القوات السورية في منطقة بحيرة طبرية.

وجاء في اثر ذلك العدوان الثلاثي على مصر الذي شاركت فيه الكيان الصهيوني كل من بريطانيا وفرنسا ، ولكونهما من الدول دائمة العضوية في مجلس الأمن لم يسع المجلس إلا أن يحيل القضية على الجمعية العامة في دورة طارئة فطالبت هذه الأخيرة اسرائيل بالانسحاب إلى ما وراء خطوط الهدنة (القرار رقم ٩٩٧ في الدورة الطارئة الأولى بتاريخ ١٩٥٦) ولم تشمل قرارات الجمعية العامة الطارئة أية ادانة أو شجب بل انحصر اهتمامها في وقف اطلاق النار وانشاء قوات الطوارئ وإعادة فتح قناة السويس ، ومع ذلك فقد اعتبرت الصهيونية الانسحاب من سيناء (وهو ما تم بتدخل من الرئيس الأمريكي ايزنهاور إعمالاً لقرار الجمعية العامة وكرد فعل من الإدارة الأمريكية على كونها قد فوجئت تماما بالأعمال الحربية التي قامت بها اسرائيل وحليفاتها) اعتبرت الصهيونية ذلك الانسحاب تفويتا من الأمم المتحدة لثمرة النصر العسكري الذي أحرزته اسرائيل ، فكان له أيضاً أثره في تشكيل الموقف الصهيوني من الأمم المتحدة على المدى الطويل.

وفي أعقاب حرب سنة ١٩٦٧ قررت الجمعية العامة انشاء لجنة خاصة للتحقيق في الممارسات الاسرائيلية المؤثرة على حقوق الانسان في المناطق المحتلة (القرار رقم ٢٤٤٣ (الدورة ٢٣) في ١٩ ديسمبر ١٩٦٨) وقد امتنعت اسرائيل عن التعاون مع هذه اللجنة واعتبرت انشاءها عملاً عدائياً من قبل الأمم المتحدة. وحري بنا أن نشير هنا إلى أن تركيبة العضوية في الأمم المتحدة كانت قد تغيرت تغييراً كلياً منذ أوائل الستينات وذلك بانضمام عدد كبير من الدول التي نالت الاستقلال حديثاً بحيث أصبح لتلك الدول ــ التي أطلق عليها تعبير « العالم الثالث » ــ الأغلبية العددية في الجمعية العامة ، والدول المذكورة لها من مشكلة الشرق الأوسط مواقف قائمة على المبادئ والعقائد التي تدين بها ولا يتيسر لاسرائيل الضغط عليها ولا التأثير في طريقة تصويتها في المنظمة الدولية مثلما تسنى لها التأثير ــ مثلا ــ في أصوات بعض الدول من أمريكا اللاتينية وغيرها خلال نظر الجمعية العامة في مشروع قرار التقسيم قبل ذلك بعشرين عاماً. وكنتيجة لهذا التغيير الذي طرأ على عضوية الأمم المتحدة أصبح الصهاينة وانصارهم يرددون أن الجمعية العامة أصبحت أداة في يد أعداء اسرائيل.

وتتابعت بعد ذلك قرارات الجمعية العامة التي ترى الصهيونية وانصارها أنها « عدائية » وكان ذلك بصفة خاصة في أعقاب حرب اكتوبر سنة ١٩٧٣ ، في الدورة ٢٩ صدر القراران الهامان رقما ٣٢٣٦ و٣٢٣٧ بتاريخ ٢٢ نوفمبر ١٩٧٤ ، وينص أولهما على الاعتراف بحقوق الشعب الفلسطيني بما فيها حق تقرير المصير والسيادة الوطنية والسعي لاستعادة حقوقه بكل الوسائل المتفقة مع مقاصد الأمم المتحدة وأهدافها ، وينص ثانيهما على منح منظمة التحرير الفلسطينية صفة المراقب في الأمم



ريجان — برنادوت

وسائل الصهيونية في محاربة الأمم المتحدة

المتحدة ودعوتها لحضور الجمعية العامة وكافة المؤتمرات الدولية التي تعقد في اطار الأمم المتحدة. كما أن الدورة الثانية والثلاثين شهدت صدور القرار رقم ٤٠ باء (الدورة ٣٢) القاض بانشاء وحدة إدارية في الأمانة العامة للأمم المتحدة تعنى بحقوق الفلسطينيين غير القابلة للتصرف وبتنظيم الاحتفال كل عام بيوم التضامن العالمي مع الشعب الفلسطيني في التاسع والعشرين من نوفمبر.

ذروة الهجوم الصهيوني

ويمكن ان يقال ان ذروة الهجوم الصهيوني على الأمم المتحدة جاءت في أعقاب صدور القرار رقم ٣٣٧٩ في دورة الجمعية العامة الثلاثين بتاريخ ١٠ نوفمبر ١٩٧٥، وهو القرار الذي قضى بأن الصهيونية شكل من أشكال التفرقة العنصرية، وجدير بالذكر أن ذلك القرار لم يصدر تحت بند «مشكلة الشرق الأوسط»، ولم يكن يرمي إلى التأثير في مجرى الأمور من الناحية السياسية بالنسبة لقضية فلسطين بل صدر ذلك القرار في اطار بند «القضاء على كافة أشكال التفرقة العنصرية» المطروح على اللجنة الثالثة المعنية بالشئون الاجتماعية والإنسانية والثقافية، وقد أجاد المرحوم الدكتور فايز صايغ مندوب الكويت في اللجنة في ذلك الوقت في عرض أسانيد اعتبار الصهيونية شكلاً من أشكال التفرقة العنصرية ويمكن تلخيص تلك الحجج فيما يلي:

١ ـ اعلان الأمم المتحدة الخاص بالقضاء على كافة أشكال التفرقة العنصرية (القرار رقم ١٩٠٤ (الدورة ١٨) قد عرف التفرقة العنصرية بأنها «التمييز بين أفراد الجنس البشري على أساس العنصر أو اللون أو الأصل العرقي»، كما أن الاتفاقية الدولية للقضاء على كافة أشكال التفرقة العنصرية (القرار ٢١٠٥ «الدورة ٢٠») قد عرف التفرقة العنصرية بأنها «كل تمييز أو استبعاد أو قيد أو تفضيل مبني على العنصر أو اللون أو المنشأ أو الأصل العرقي أو القومي». وهذه التعريفات قد أقرتها الجمعية العامة للأمم المتحدة بتوافق الآراء دون أن تشذ عنها أية دولة عضو.

٢ ـ ان الصهيونية بوصفها دعوة لاقامة دولة لليهود ثم في اعتبارها صفة «اليهودية» صفة عرقية وليست مجرد انتماء ديني، تقوم بكل وضوح على أساس ايجاد تمييز بين الناس على أساس الأصل العرقي.

٣ ـ ان سياسات وقوانين اسرائيل التي أملتها العقيدة الصهيونية تنص على سلسلة من التفرقة والاستبعاد والتفضيل تقوم كلها على أساس انتماء الفرد إلى العنصر اليهودي أو عدم انتمائه، ومثال ذلك قانون العودة المشهور الذي ينص على منح الجنسية الاسرائيلية لأي يهودي قادم إلى اسرائيل بينما يحجب تلك الجنسية عن مواطنه القادم من البلد نفسها لمجرد كونه غير يهودي وليس هذا إلا تمييزاً على أساس الأصل العرقي.

٤ ـ بناء على ذلك تكون الصهيونية داخلة في تعريف التفرقة العنصرية كما أقرته الجمعية العامة للأمم المتحدة.

ولم يكن قرار اعتبار الصهيونية شكلاً من أشكال التفرقة العنصرية نسيج وحده ولا غير مسبوق فيما قرره إذ سبقته قرارات بالمعنى نفسه صدرت عن محافل مثل المؤتمر العالمي ليوم المرأة الدولي المنعقد في مدينة المكسيك في يونيو ويوليو سنة ١٩٧٥، واجتماع رؤساء دول منظمة الوحدة الافريقية المنعقد في كمبالا في يوليو واغسطس سنة ١٩٧٥. غير ان الصهاينة وجدوا الفرصة سانحة لا تحويه التسوية بين الصهيونية وبين التفرقة العنصرية من شحنة عاطفية يسهل استغلالها وخاصة في المجتمع الأمريكي. كما أن ذلك القرار ـ المبني على مقدمات كلها من المسلمات في الفكر الصهيوني وفي تطبيقاته ـ قد كشف النقاب عن وجه الصهيونية القبيح فكان لابد من حملة شعواء ضد القرار وضد الأمم المتحدة وهي حملة تنافس فيها الصهيونيون المعروفون والمتعاطفون معهم من حملة الأقلام ورجال الاعلام المسموع والمرئي في الولايات المتحدة الأمريكية بحيث لم يعد سهلاً على المراقب أن يدرك ما إذا كان ذلك القرار قد أغضب اسرائيل والصهاينة أكثر مما أغضب الصحافة ووسائل الاعلام الأمريكية أم أن الأمر على العكس.

وهذا التلاحم بين الدعاية الصهيونية والدعاية الأمريكية ضد الأمم المتحدة أصبح ظاهرة ثابتة منذ ذلك التاريخ، ولا تزال في ازدياد. فقد نجح الصهيونيون في تجنيد الرأي العام الأمريكي ثم الادارة الأمريكية ذاتها في حربهم ضد الأمم المتحدة، ولم يكن ذلك عن طريق وسائل الاعلام فقط ـ وتسلط الصهيونيين والمتعاطفين معهم على الكثير منها أمر معروف ـ بل أيضاً عن طريق بعض مراكز الدراسات والأبحاث ذات التأثير الفعال على آراء واتجاهات صانعي القرار في الكونغرس وفي الادارة الأمريكية، ومن الأمثلة البارزة على ذلك مؤسسة التراث «The Heritage Foundation» وهي تستحق أن تفرد لها وللدور الذي تقوم به الفقرات التالية:

تأثير مؤسسة التراث

أنشئت مؤسسة التراث سنة ١٩٧٣، وغرضها القيام بالأبحاث المتعلقة بالسياسات العامة للولايات المتحدة ونشر الدراسات المتصلة بذلك، والخط الفكري لهذه المؤسسة هو باقرارها الصريح خط محافظ متشدد يقوم على دعامتين: الأولى هي حرية السوق المطلقة التي هي في نظر المؤسسة وأعضائها ومن ينتمون إلى خطها الفكري أساس الرخاء الاقتصادي وضمان زيادة الانتاج وارتفاع مستوى المعيشة، والدعامة الثانية لايديولوجية مؤسسة التراث هي النزعة الفردية المطلقة التي ترفض تدخل الحكومات في شئون المجتمع فيما يزيد عن الحد الأدنى اللازم لحفظ الأمن والدفاع عن البلاد ضد الأعداء من الخارج. وفي السياسة الخارجية تنادي المؤسسة بضرورة تأمين جهاز عسكري عالي الكفاءة يضمن الدفاع عن الولايات المتحدة (وهو ما يعني في الحقيقة التفوق العسكري على كافة الدول وخاصة الاتحاد السوفيتي) كما تؤيد سياسة المواجهة مع الاتحاد السوفيتي وتحجيم نفوذه الدولي خارج اقليمه خاصة في بلدان العالم الثالث، وفيما يتعلق بالشرق الأوسط فان المتتبع لمنشورات هذه المؤسسة بصفة عامة يرى أن ثمة توازياً بين خطها السياسي المتشدد وبين اتجاهات السياسة الصهيونية وخاصة تجاه قضايا العالم الثالث والأمم المتحدة ودعم الأنظمة الدكتاتورية المؤيدة لاسرائيل، ووسم حركة المقاومة الفلسطينية بالارهاب... ومعارضة بيع الأسلحة إلى الدول العربية.. واعتبار اسرائيل الدعامة الرئيسية في المحافظة على الحضارة الغربية وتمثيل الانسان المتمدين ومواجهة الشيوعية والاساءة إلى منظمة «أوبك» واعتبارها المسئولة عن تردي الأوضاع الاقتصادية في العالم.

ولمؤسسة التراث في مقرها بواشنطن فريق

من الباحثين والعلماء عددهم حوالي المائة يعملون لديها كل الوقت هذا فيما عدا من يتعاونون مع المؤسسة ويمدونها بالمعلومات والأفكار من غير موظفيها وتقدرهم المؤسسة بألف وستمائة ، وهدف المؤسسة الرئيسي هو امداد صانعي القرار الأمريكي بدراسات وأبحاث وتقارير تقدم اليهم في الوقت المناسب ــ أي في الفترة التي يجري فيها اتخاذ القرار ــ وترمي الى التأثير في تفكيرهم من أجل جعل القرارات التي يتخذونها مطابقة لسياسات المؤسسة المتطرفة وأهدافها المحافظة المتشددة في سائر المجالات ، وفضلاً عن تلك الدراسات والتقارير المكتوبة تشارك المؤسسة في ندوات وتنظم محاضرات ويحضر ممثلوها أمام لجان الكونغرس للادلاء بآرائهم في المسائل المطروحة ، وتصف المؤسسة نفسها مجموعة نشاطاتها بأنها « معمل تتفاعل فيه الأفكار لتتحول الى سياسات عملية محددة » وهكذا تؤثر مؤسسة التراث في مسار السياسة الأمريكية وتوجه عملية اتخاذ القرار الأمريكي خاصة في عهد الرئيس ريغان الذي يعتبر حامل لواء المذهب الأمريكي المحافظ المتشدد وهو التيار الذي سيطر على الحكومة وسياساتها منذ تولي الرئيس الحالي سنة ١٩٨٠ .

ولنضرب مثلاً على تأثير مؤسسة التراث في القرار السياسي الأمريكي يتصل بموضوعنا الا وهو الأمم المتحدة وعلاقة كل من الصهيونية والولايات المتحدة بها . لقد دأبت المؤسسة على انتقاد الأمم المتحدة ومهاجمتها منذ يومها الأول ، وفي سنة ١٩٨٤ نشرت المؤسسة كتاباً من ١٧٦ صفحة عنوانه : « عالم بدون أمم متحدة ــ ماذا يحدث لو أغلقت الأمم المتحدة أبوابها؟ » وهو حملة ضارية ضد المنظمة الدولية لما تتبعه من سياسات هي في نظر مؤسسة التراث يسارية راديكالية ، وينتهي الكتاب الى نتيجة هي أن الأمم المتحدة التي تعلقت بها الآمال عند انشائها لحل مشاكل العالم أصبحت الآن هي نفسها جزءاً من المشكلة الكبرى التي يواجهها العالم !

بالطبع لم يكن هذا الكتاب أول هجوم من مؤسسة التراث على الأمم المتحدة ، ولكن الجديد بالملاحظة أن نشره تعاصر مع اتخاذ القرار الأمريكي بالانسحاب من منظمة اليونسكو وهي احدى الوكالات المتخصصة التابعة للأمم المتحدة وقد نفذ قرار الانسحاب في ١٩٨٤/١٢/٢١ ، ثم أعقب ذلك في اكتوبر سحب قبول الولاية الالزامية لمحكمة العدل الدولية وهي الجهاز القضائي الرئيسي للأمم المتحدة وحجر الزاوية في التنظيم القانوني

■ التيار المتشدد الذي تقوده مؤسسة التراث بواشنطن في مسار القرار الأمريكي لصالح إسرائيل

■ بعض رجال مؤسسة التراث السابقين يشغلون -الآن- مناصب حساسة في البيت الأبيض أو في وزارة الخارجية

للمجتمع الدولي ، وقد تنكرت الولايات المتحدة بهذا القرار الأخير لمواقفها السابقة طوال أربعين عاماً ، حيث كانت في مقدمة الداعين لالتزام الدول كلها بالولاية الاجبارية لمحكمة العدل الدولية ، ثم تتابعت المواقف الأمريكية المعادية للأمم المتحدة والرامية الى حرمان المنظمة من بعض مواردها المالية فكان ما يسمى بتعديل كاسباوم (وهو عضو مجلس الشيوخ الذي اقترح التعديل) الذي يقضي بتخفيض مساهمة الولايات المتحدة في ميزانية الأمم المتحدة من ٢٥ في المائة الى ٢٠ في المائة ، وبالفعل فإن مشروع ميزانية الولايات المتحدة المقدم الى الكونغرس في فبراير ١٩٨٦ قد اشتمل على هذا التخفيض ومقداره ٧٩،١ مليون دولار ما لم يتم قبل أول اكتوبر ١٩٨٦ منح الدول ذات المساهمات الكبيرة أصواتاً متعددة في الأمور المالية ــ وهو أمر يقتضي تعديل الميثاق نفسه مما يجعل حدوثه قبل ذلك التاريخ أو بعده في حكم المستحيل ، وبذلك يصبح التخفيض الأمريكي حقيقة واقعة . ثم جاءت التعديلات التي أدخلت على قانون ميزانية الولايات المتحدة بناء على اقتراح عضوي الشيوخ غرام ورادمان (والتي تعرف باسميهما) وتقضي هذه التعديلات باجراء تخفيضات في مساهمة الولايات المتحدة في ميزانية الأمم المتحدة بالتدريج خلال عدة سنوات . وأخيراً ــ في الناحية المالية ــ هناك الفقرة ١٥١ من قانون العلاقات الخارجية



كورت فالدهايم — أحمد مختار امبو

لسنة ١٩٨٦ ــ ١٩٨٧ وتقضي بأن يخصم من المساهمة الأمريكية في ميزانية المنظمة الدولية مبالغ تعادل ما يقال ان موظفي الأمم المتحدة من بعض الجنسيات المعينة يؤدونه الى حكوماتهم من نسب من رواتبهم بالعملة الصعبة وقد أدت هذه الاجراءات كلها الى أزمة مالية شديدة جعلت استمرارية عمل الأمم المتحدة محل شك ودعت الى اتخاذ اجراءات تقشفية شديدة من قبل الأمين العام والى عرض موضوع الأزمة المالية على دورة مستأنفة للجمعية العامة .

وفضلاً عن الاجراءات العدائية ذات الطابع المالي ــ والتي هي في الحقيقة خرق للالتزامات الدولية التي تقع على عاتق كل دولة عضو طبقاً للمادة ١٧ من الميثاق ــ فهناك أنواع أخرى من الاجراءات اتخذتها الادارة الأمريكية أخيراً تعتبر بدورها مخالفة لالتزامات الدولة المضيفة طبقاً لاتفاقية المقر ولاتفاقية مزايا وحصانات الأمم المتحدة ، فمن ذلك ما قررته الحكومة الأمريكية في ديسمبر ١٩٨٥ ، من أن سفر موظفي الأمم المتحدة من جنسيات معينة خارج نطاق مدينة نيويورك لا يكون إلا عن طريق وزارة الخارجية الأمريكية التي تقوم بقطع التذاكر وحجز غرف الفنادق لهم ! ! ثم هناك القرار الذي تطلب فيه حكومة الولايات المتحدة الى البعثات الدائمة لبعض الدول الأعضاء في الأمم المتحدة أن تخفض عدد العاملين بها بنسبة ٣٨ في المائة وهو طلب لا سند له في اتفاقية المقر ولا في القواعد العامة للقانون الدبلوماسي وللعلاقات بين المنظمات الدولية والدول الأعضاء فيها ، ويشكل هذا الطلب سابقة خطيرة إذ تنتحل الدولة المضيفة لنفسها حق تقرير حجم بعثات الدول كافة لدى الأمم المتحدة ، ومن هذا القبيل أيضاً تهديد الادارة الأمريكية الدول التي تتلقى معونات اقتصادية بقطع المعونات عنها إذا لم يكن تصويتها في الجمعية العامة على هوى الولايات المتحدة !

ومهما يكن من أمر فإن الربط بين نفوذ مؤسسة التراث وبين مواقف الادارة الأمريكية من الأمم المتحدة ليس مجرد افتراض من

وسائل الصهيونية في محاربة الأمم المتحدة

جانبنا ، بل ان كافة المراقبين المتيقظين قد أدركوا تأثير سياسات المؤسسة ومنشوراتها واتصالاتها في عملية صنع القرار الأمريكي في عهد الادارة الحالية ، بل ان بعض رجال مؤسسة التراث السابقين يشغلون الآن مناصب حساسة في البيت الأبيض أو في وزارة الخارجية ، وبعض من ترك العمل في الأجهزة الحكومية قد التحق بالعمل في مؤسسة التراث ومنهم السفير ليشتنشتاين الرجل الثاني في البعثة الأمريكية لدى الأمم المتحدة في نيويورك خلال فترة المندوبة الدائمة جين كيركباتريك ، وعداء السفير المذكور للأمم المتحدة أمر ذائع وهو صاحب القول المشهور « سأكون سعيداً وأنا ألوح بيدي لدبلوماسيي الأمم المتحدة من ميناء نيويورك وهم يغادرون ذهاباً لا اياب بعده » وهو الآن من كبار العاملين في مؤسسة التراث ، وعلى ذلك فالتداخل والتكامل بين الادارة الأمريكية الحالية وبين مؤسسة التراث لا يقتصر على الفكر والخطوط السياسية بل يمتد الى الأفراد المؤثرين في صنع القرار الأمريكي داخل الأجهزة الادارية وخارجها . ان تأثير مؤسسة التراث في اعطاء السياسة الأمريكية شكلها العدائي الحالي للأمم المتحدة أمر قد لاحظه الكثيرون ، وعلى سبيل المثال كتبت عنه صحيفة الغارديان اللندنية وصحيفة واشنطون بوست التي وصفت قرارات الادارة الحالية بأنها اسباغ للصفة الرسمية على أفكار وسياسات مؤسسة التراث ، كما أن مجلة لموند دبلوماتيك الباريسية نشرت في عددها لشهر مايو ١٩٨٦ ، (ص ٩) مقالاً مطولاً بعنوان : « حملة واشنطون ضد الأمم المتحدة » حوى الكثير من التفاصيل عن دور مؤسسة التراث في رسم الخط السياسي للادارة الأمريكية الحالية تجاه الأمم المتحدة .

وهكذا يلتقي الخط الصهيوني والخط الأمريكي في عهد الادارة الحالية على معاداة الأمم المتحدة ورميها بكل نقيصة ووضع مختلف العراقيل في طريق أدائها لمهمتها ، بل ان هذا التلاقي هو في الواقع استحواذ من القوى الصهيونية على عملية صنع القرار الأمريكي وتوجيهها لصالحهم بصرف النظر عن الصالح الحقيقي للولايات المتحدة ، ولهذا التطور الخطير أسباب كثيرة لا نتعرض لها لكونها خارجة عن موضوع هذا المقال ، ويكفي أن نشير منها الى ما ذكره الكاتب ريتشارد ستراوس في مقال له بصحيفة واشنطون بوست في عددها الصادر في ٢٧ ابريل ١٩٨٦ ، إذ قال ان الرئيس ريغان يفوق كل رئيس أمريكي سابق في حبه القلبي وتأييده التلقائي لاسرائيل . على أن عقلاء الأمريكيين من الساسة والمثقفين يدركون خطورة التمادي في اتخاذ موقف معاد للأمم المتحدة من قبل أكبر وأقوى دولة في العصر الحديث عليها في المجتمع الدولي مسئوليات تناسب نفوذها وقوته ، ومن أمثلة ذلك مقال كتبه البروفسور توماس فرانك رئيس تحرير مجلة القانون الدولي الأمريكي في عدد ابريل ١٩٨٦ ، من المجلة المذكورة يهيب فيه بالحكومة الأمريكية أن تعدل عن مواقفها المعادية للأمم المتحدة .

الحملة المدبرة

وأخيراً .. فلعل من أغرب مظاهر العداء الصهيوني للأمم المتحدة وأحدثها عهداً تلك الحملة المسعورة ضد الدكتور كورت فالدهايم وقت ترشيحه لرئاسة الدولة في وطنه النمسا ، فقد تضافرت الهيئات الصهيونية ووسائط الاعلام الأمريكية على ابراز ما قيل إنه اكتشافات جديدة حول تاريخ فالدهايم اثناء الحرب العالمية الثانية ، نبذوه بأنه نازي ، واتهموه بارتكاب جرائم حرب ، ويعجب الانسان لهذه الحملة في حجمها وعنفها ، ولماذا جاءت في هذا الوقت بالذات وليس من تفسير معقول إلا أن فالدهايم كان الأمين العام للأمم المتحدة في السنوات التي اتخذت فيها الجمعية العامة القرارات التي تعتبرها الصهيونية عدائية لها ، كما أن ياسر عرفات خاطب العالم من منبر الجمعية العامة في عهد تولي فالدهايم للأمانة العامة كما أنشئت في عهده وحدة الأمانة العامة المعنية بحقوق الشعب الفلسطيني ، وكلها أمور لا ينساها الصهيونيون ويتحرقون للانتقام منها . ومع أنهم يعلمون أن الأمين العام لا سلطان له على قرارات الجمعية العامة وانما هو مجرد منفذ لها فانهم يتوقعون أن تفوت هذه الحقيقة على السواد الأعظم ويعتقدون أن الجمهور يرى في شخص الأمين العام ، تجسيداً للمنظمة ، ولهذا في تصور الصهيونيين وحلفائهم أن أي تشويه لسمعة الأمين العام السابق هو تشويه لسمعة المنظمة ، وأن الصورة السلبية التي يودون خلقها عن فالدهايم ستلتصق في أذهان الناس بالأمم المتحدة كلها وبذلك يضربون عصفورين بحجر : اضعاف المنظمة والتقليل من هيبتها ووزنها في نظر الرأي العام العالمي والانتقام من الأمين العام السابق الذي لم يكونوا يستطيعون شيئاً ضده وقت توليه منصبه ، ولكن ترشيحه لرئاسة النمسا يتيح لهم فرصة نادرة للنيل منه ، فلم يترددوا في انتهازها ، ولهم في انتهاز الفرص على مر التاريخ باع طويل .

ان من طبائع الأمور أن تعلن الصهيونية الحرب على الأمم المتحدة لما تعنيه من تجسيد للقانون الدولي ومحاربة للعنصرية ودعوة الى تقرير المصير لكل الشعوب ، مما يتناقض تماماً مع الحركة الصهيونية ذات الطابع العنصري المعادي لحرية الشعوب والقائم على طرد شعب من أرضه ، ولذا ليس من المتوقع أن توقف الصهيونية محاربتها للمنظمة الدولية بكل الوسائل المتاحة لها وأن تجند قوى الشر التي تأتمر بأمرها لهذا الهدف . ولن يغمض للصهيونية جفن حتى تحقق هدفها في تحطيم أمل شعوب الأرض في هذه المنظمة التي قامت لمنع شرور حرب عالمية وتحقيق تقرير المصير وتوفير جو التعاون بين الشعوب . ولذا فان على شعوب الأرض قاطبة أن تعي هذه الحقيقة وأن تتصدى للمؤامرة الصهيونية بتقديم الدعم للأمم المتحدة لتخطي المصاعب التي تواجهها لاستمرارها في أداء مهماتها التي قامت من أجلها .

حمد عبد العزيز الكواري

■ من هو السياسي القائل : سأكون سعيداً وأنا ألوح بيدي لدبلوماسيي الأمم المتحدة وهم يغادرون نيويورك بدون عودة !

■ القرارات العادلة لمنظمة الأمم المتحدة في عهد الدكتور كورت فالدهايم هي السبب الرئيسي للحملة المسعورة التي واجهته أثناء ترشيحه لرئاسة النمسا

ضرب منظمة أوبيك خطر يهدد العالم

بقلم: الدكتور محمد سليمان الدجاني

هل نجحت الدول الغربية في تحطيم أوبيك ؟ هل انهيار سياسة تسعير النفط بداية النهاية لمنظمة أوبيك ؟ منذ أن برزت منظمة الاقطار المصدرة للنفط (أوبيك) على الساحة الدولية في أواسط السبعينيات كقوة اقتصادية وسياسية عالمية ، والسؤال الذى استحوذ على الأوساط الغربية هو : كيف ندمر أوبيك ؟ ولقد تسلطت فكرة تدمير أوبيك على السياسة الغربية الى درجة أن السياسيين والمفكرين الغربيين لم يعطوا أى اهتمام للسؤال الاكثر الحاحا : أين تقع المصلحة الاقتصادية العالمية ، في دمار أوبيك أو في التوصل الى اتفاق تعاونى مشترك بين منتجي ومستهلكى النفط؟

ما الذى فعلته أوبيك من أجل أن تستحق مثل هذا العداء ؟ ان « الجريمة » التي ارتكبتها أوبيك تتلخص في رفعها لأسعار النفط عام ١٩٧٤ ، الى حوالى أربعة أضعاف (من دولارين ونصف للبرميل الواحد الى عشرة دولارات) ، انجاز يحاول أن يحققه جميع المنتجين والمصدرين سواء كانوا دولا أو شركات عالمية .

هؤلاء الذين يحاولون ضرب أوبيك يغيب عن بالهم أن نجاح أوبيك في زيادة أسعار النفط عام ١٩٧٤ ، أتى محصلة فذة لتطابق خمسة عناصر تاريخية هي :

(١) حظر النفط العربي عام ١٩٧٣/١٩٧٤ .

(٢) انتقال ملكية آبار النفط من الشركات الكبرى للدول المنتجة .

(٣) سوء الادارة الاقتصادية للدول الصناعية .

(٤) الاسراف الاستهلاكي للنفط في الدول الغربية .

(٥) النظام الإقتصادى العالمى غير المنصف والذى سبب هوة كبيرة بين الدول الصناعية والدول النامية .

حظر النفط العربي غام ١٩٧٣/١٩٧٤ ، ساعد على خلق أجواء اقتصادية وسياسية ونفسية ، أدت بدورها الى دفع أوبيك لرفع أسعار النفط دون أن تلجمها ردود الفعل المتوقعة ، وانتقال ملكية حقول النفط من يد الشركات العالمية الى الدول المنتجة للنفط منع تلاعب الشركات في كميات الانتاج ، مما كان يؤدى الى حرب في الاسعار نتيجتها هبوط سعر النفط بدلا من ارتفاعه . وقد أدى سوء الإدارة الإقتصادية في الدول الغربية الى السماح بالنمو المضطرد السريع خلال الخمسينات والستينات ، دون الاخذ بعين الاعتبار اتخاذ اجراءات وقائية مسبقة من أجل احباط أى انهيار اقتصادى لاحق . في نهاية الستينات ، أدى التضخم المالي في الدول الصناعية الي ارتفاع كبير في أسعار البضائع التي كانت تصدر للدول المستوردة ، مما أدى الى نمو العجز التجارى لدى هذه الدول الى درجة لم يسبق لها مثيل . وبالاضافة الى ذلك ، فان أسعار النفط المنخفضة نسبيا ، شجعت الدول الغربية على الاسراف في استهلاك النفط ، مما أدى الى رفع نسبة الطلب كثيرا عن نسبة العرض مسببا ضغطا شديدا على السوق العالمية للنفط . وهكذا ، حين اختمرت الأوضاع الاقتصادية والسياسية ، استغلت أوبيك الفرصة التي فرضتها الظروف عليها ، من أجل تحسين أسعار النفط ، وفي الخلفية كانت الفجوة الضخمة في النظام الاقتصادى العالمي بين الدول الصناعية النامية .

التنبؤات المتكررة بانهيار أوبيك

حين تأسست أوبيك عام ١٩٦٠ استخف الاقتصاديون والسياسيون الغربيون بقدرتها على البقاء : وبامكانياتها على تحقيق أية مكاسب للدول الخمس المؤسسة (الكويت ، السعودية ، العراق ، ايران ، فنزويلا) . وقد صنفت أوبيك ككارتل Cartel عالمي ، ولذا كان من المتوقع أن يكون مصيرها كمصير الكارتلات العالمية الاخرى التى انهارت قبل

ضرب منظمة أوبيك خطر يهدد العالم

أوانها . ولو كانت أوبيك كارتلا[1] حقيقيا لصدقت التنبؤات لأن تاريخ الكارتلات العالمية يرينا أنها لم تتمكن من الاستمرار إلاّ لفترات قصيرة ، مثلا الكارتل العالمي للزنك ، استمر من أيار ١٩٢٨ الى كانون أول ١٩٢٩ ، والكارتل العالمي للرصاص ، دام من نيسان ١٩٣١ الى آذار ١٩٣٢ ، والكارتل العالمي للصلب ، صمد من أيلول ١٩٢٦ الى آذار ١٩٣١ :

لذا ، حين برزت أوبيك على الساحة الدولية في أواسط السبعينات كقوة اقتصادية كان السؤال الذي طرح نفسه : كم شهرا ستصمد ؟ التوقعات الأولية كانت بضع أشهر الى بضعة سنوات . وقد قاد الاقتصادى الاميركي موريس أدلمان المدرسة الفكرية التي أكدت بأن جميع الكارتلات نهايتها الانهيار ، وان المسألة مسألة وقت قبل أن تنهار أوبيك . وحتى بعد نجاح أوبيك في الحفاظ على وحدتها في أواخر السبعينات ، استمر البروفيسور أدلمان واتباعه بالاصرار على أن نهاية أوبيك محتومة ، وبأنها ستنهار في أقرب فرصة توضع بها للامتحان .

ولم يتوقف العداء لأوبيك عند حد التوقعات والتنبؤات الفكرية ، بل تعداها الى رسم خطط اقتصادية وسياسية من قبل الدول الكبرى ، من أجل الاسراع بالانهاء على أوبيك . وكل حكومة أميركية من ادارة الرئيس نيكسون عام ١٩٦٨ الى ادارة الرئيس ريجان اليوم ، حاولت ضرب أوبيك وتفكيكها ، وأصبح هاجس وزير الخارجية الاميركية السابق هنرى كيسنجر ، أن يرى نهاية أوبيك . وقد صرح مساعد وزير خارجية الولايات المتحدة توماس أندروز في نيسان ١٩٧٥ ، بأن الدول المستهلكة للنفط ، تعمل على تجميع قواها من أجل « الاسراع بزوال أوبيك » وبتاريخ ٢٨ حزيران ١٩٧٩ كتب ستيوارت ايزنشتات مستشار الرئيس جيمي كارتر ، مذكرة وصف بها أوبيك بأنها « عدو واضح a clear enemy » وحرض الرئيس كارتر على إلقاء اللوم عليها للتضخم المالي ومشاكل الطاقة التي كانت تعانى منها الولايات المتحدة وذلك من أجل تعويض خسائر الرئيس كارتر السياسية داخل أميركا .

انهيار أوبيك : لمصلحة من ؟

ولو وضعنا كل ذلك جانبا ، واعتبرناه تاريخا ماضيا ، ونظرنا الى المستقبل متسائلين : أين تكمن مصلحة النظام الاقتصادى العالمي ، في تدمير أوبيك وتفككها أم في وجودها قوية متماسكة ؟ هل الأخطار والتكلفة والمجازفة التي قد يسببها انهيار أوبيك تساوى المكاسب التي قد تجنيها الدول من بقائها ؟ ماهو الجواب ؟ قد يكون هنالك بعض الفوائد القصيرة المدى للدول الصناعية من انهيار منظمة أوبيك ، ولكن على المدى البعيد ، من المؤكد أنه سيؤدى لاضطرابات في سوق النفط الدولية نتيجة عدم استقرار الاسعار مما له أبعاده السلبية على الوضع الاقتصادى العالمي . ومن الواضح أن تفكك أوبيك لايعني بالضرورة هبوط أسعار النفط ، بل على العكس ، قد يؤدى الى بروز كارتل آخر ، قد يكون أكثر تطرفا وأكثر اندفاعا من أوبيك . والدول الغربية التي كانت تصنف شاه ايران مع الصقور في المفاوضات المتعلقة بالاسعار ، وجدت الشاه من الحمائم عند مقارنته بغيره .

من الواضح أن انهيار أوبيك لن ينعش الاقتصاد الغربي ، بل على العكس ، فانه سيهدد النظام الاقتصادى العالمي ، كما أنه سيخلق أجواء خطرة على السلام الدولي . وفي حين أنه سيقلص من نفوذ الولايات المتحدة في الدول النامية ، فانه سيعطي زخما للاتحاد السوفياتي الذى يعتبر أكبر دولة مصدرة للنفط في العالم ، كما أنه سيؤدى الى دعم الاحزاب الشيوعية والفئات المتطرفة الموالية له في الدول الفقيرة .

وفي الدرجة الاولى ، فان انهيار أوبيك سوف يؤدى الى انخفاض دخل الدول المنتجة للنفط ، مما سيؤدى بدوره الى هبوط تدفق دولارات النفط petrodollars في النظام المالي الدولي . وهو سيضع حدا لبرامج التطوير التي بدأتها هذه الدول والتي تستفيد منها الدول الصناعية التي تنفذ هذه المشاريع والدول الفقيرة التى تمد هذه المشاريع باليد العاملة . كما أن انخفاض الدخل لدول أوبيك ، سيجبر هذه الدول على خفض نسبة استيرادها للبضائع الغربية والخبراء والموظفين الاجانب ، مما سيخفض صادرات وعائدات الدول الصناعية ، مسببا ارتفاع نسبة البطالة وانخفاض مستوى الإنتاج في هذه الدول . وأى خفض لقيمة العملة من أجل تمكين الدول الصناعية من تخفيض أسعار صادراتها ، سيؤدى حتما الى زيادة التضخم المالي في تلك الدول .

وكما أن انهيار أوبيك ليس من مصلحة الدول الغربية ، فانه أيضا ليس في صالح الدول النامية ، اذ أنه سيضع حدا للحوار المستمر حول انشاء نظام اقتصادى عالمي جديد International Economic Order ، يخدم مصالح الدول النامية ، ويلبي احتياجات الدول الفقيرة .

ومن المؤكد أن انهيار أوبيك سيعيد التبعية الاقتصادية للدول النامية على الدول الكبرى ، والعديد من هذه الدول ستكون من نصيب الاتحاد السوفياتي الذى أبدى دوما كامل الاستعداد من أجل مقايضة المصالح الاقتصادية بامتيازات سياسية . ومن دون شك ، فان الهدف الرئيسي للمساعدات الاقتصادية السوفياتية سيكون جذب الدول الفقيرة للمجال السوفياتي الاقتصادى ، تمهيدا لدوراتها ضمن المحور السوفياتي السياسي . وهذه الامكانية ليست من صالح الدول الغربية أو الدول النامية .

ان انهيار أوبيك سيكون له أبعاد خطيرة على الدول الفقيرة التي تستفيد من المساعدات المالية لأوبيك ، خاصة وان الدول الصناعية قد



معالى الشيخ عبد العزيز بن خليفة آل ثانى وزير المالية والبترول فى اجتماع أوبيك فى جنيف وهو يتحدث للصحفيين

خفضت كثيرا من نسبة مساعداتها الاقتصادية والفنية لهذه الدول . ولقد ساهمت أوبيك كثيرا في رفع مستوى الدول الفقيرة ، إمّا بامدادها بالمساعدات والقروض وبالاستثمارات الضخمة ، أو من خلال المساهمة في صندوق النقد الدولى International Monetary Fund ، الذى يقوم بدوره بتمويل مشاريع انشائية في الدول النامية . وفي عام عام ١٩٧٦ احتلت دول أوبيك الدرجة السادسة في العالم بين كافة الدول التي تقدم المساعدات للدول الفقيرة حسب نسبة قيمة المساعدات لانتاج الدخل القومي GNP . وفي عام ١٩٧٩ بلغت ميزانية صندوق أوبيك المالى الخاص بمساعدات الدول النامية مبلغ بليونين وأربعمائة مليون دولار . وحسب الاحصائيات التي نشرها الدكتور ابراهيم شحاته في كتابه الوجه الاخير لأوبيك ، الصادر عام ١٩٨٢ ، فان المساعدات المقدمة للدول النامية من عشرة دول اعضاء في الاوبيك ، بلغت أربعة أضعاف المساعدات المقدمة من سبع عشرة دولة غربية ، وستة وثلاثين ضعفا للدول الاشتراكية مجتمعة .

وقطع أوبيك للمساعدات التي تقدمها لصندوق النقد الدولى وللدول النامية ، سيكون له أبعاد عميقة على الدول الغارقة في الديون ، وخاصة دول أميركا اللاتينية التي تزيد ديونها عن ٣٢٥ بليون دولار ، تبلغ فوائدها السنوية ٤٠ بليون دولار . وتلك الدول تواجه الآن مشكلة سداد هذه الديون ، وهي تجد البنوك الدولية غير مستعدة لاقراضها المزيد . اما من أجل دفع التزاماتها وسداد قيمة الفوائد المتراكمة عليها أو لمواجهة احتياجات مواطنيها التي تبلغ حوالى ١٥ بليون دولار سنويا من أجل المحافظة على عدم تدني مستوى المعيشة للمواطن . وقطع المساعدات سيؤدى حتما لسوء أحوال هذه الدول الاقتصادية والسياسية ، مما يضعها لقمة سائغة في أيدى الاحزاب المتطرفة وقيادات الجيش والتدخلات الأجنبية . وهنا ، من المهم الرد على الادعاءات ، بأن ارتفاع أسعار النفط هو سبب الديون الضخمة التي تعاني منها دول العالم الثالث . وفي الواقع أن ارتفاع سعر النفط عام ١٩٧٣ وعام ١٩٧٩ ، كان واحدا من عدة عوامل أدت الى تضخم هذه الديون ، أهمها : ارتفاع نسبة الفوائد على الديون الاجنبية ، والهبوط في نسبة صادرات هذه الدول للخارج نتيجة المنافسة القوية للدول الصناعية المتقدمة ، وارتفاع نسبة البطالة والتضخم المالي والاضرابات والمشاكل العمالية .

لذا ، بدلا من إلقاء اللوم على أوبيك ومحاولة تدميرها دون أن يكون هنالك البديل العملي لها ، فإن على الدول الصناعية أن تبدأ بالعمل من أجل خلق نظام اقتصادى جديد ، يأخذ بعين الإعتبار المصالح المتبادلة للدول المنتجة والدول المستهلكة للنفط . علما بأن وجود أوبيك ضرورى ومفيد لكلا الطرفين .

والجواب على التحديات الاقتصادية التي تواجهها الدول الصناعية والنامية والفقيرة ، لايكمن في تحطيم منظمة أوبيك ، ولكن في خلق سياسات تسهل على كافة الدول «أكل العنب دون قتل الناطور» .

ان التوفيق بين المصالح المتضاربة والمتنافسة ، مهمة صعبة ، ولكن من المهم أن يأخذ المرء خطوة في ذلك الاتجاه . وبدلا من الاستمرار في التركيز على الجوانب السلبية للأمور ، حان الوقت من أجل تبني سياسة تركز على الجوانب الايجابية لمبدأ التعاون المشترك بين دول الشمال ودول الجنوب .

محمد سليمان الدجانى

الدكتور محمد سليمان الدجانى كاتب ومؤلف ، نشرت له عدة مؤلفات فى الاقتصاد والسياسة والأدب واللغة . تخرج من الجامعة الامريكية فى بيروت عام ١٩٧٢ ، ويحمل شهادة دكتوراه فى العلاقات الدولية من جامعة جنوب كارولينا ، وشهادة دكتوراه فى الاقتصاد السياسي من جامعة تكساس فى أوستن . وقد علم فى كلتا الجامعتين

حاشية

(١) الكارتل : اتحاد المنتجين للتخفيف من وطأة التنافس فيما بينهم .



مفاتيح التقدم المهدورة

بقلم: فهمي هويدى

لا أحد يعرف على وجه الدقة ، هل الوهن الذى أصاب الحاضر الاسلامى هو الذى أدى الى إبطال مفعول أهم القيم والتكاليف ، التى تتصدر منابع الطاقة والحركة فى مجتمع المسلمين ، أم أن العكس هو الصحيح ؟..
لانريد أن نخوض فى جدل حول أيهما السبب وأيهما النتيجة ، فقد يستهلك ذلك منا الوقت والجهد بغير مبرر ، كما فى مسألة البيضة والدجاجة . لكن القدر المتيقن هو أن ثمة قيما وتكاليف لها دورها الجليل فى صناعة الواقع الحى فى أفضل صورة ، قد تعرضت لدرجات مختلفة من الانتقاص والاختزال والتآكل بمرور الزمن وتقلب الأحوال . وأن وظائفها ــ بسبب من ذلك ــ تعطلت وأهدرت ، مما حرم المسلمين من مصادر للقوة والفاعلية لاحدود ولا آخر لها .

أعنى بما أقول ثلاثة أمور على وجه التحديد ، أولها مفهوم العبادة ، وثانيها الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وثالثها ، فروض الكفاية وفروض العين .

فمنذ اقتصر مفهوم العبادة على الصلاة والصوم والزكاة والحج ، وانفصل عن بقية مناحى الحياة وشئونها ، حدث الشرخ الأول فى العقل الاسلامى ، بل وضع اللغم الأول فى مسيرة تقدم المسلمين . منذئذ انصرف المسلمون عن عمارة الدنيا .
وتراجعوا بالتالى عن دورهم الرائد والمفترض فى صياغة الواقع وصناعته .

الغريب فى الأمر أن هذه النقطة بالذات ، كانت من أكثر المعانى وضوحا منذ العصر النبوى ، أى أنها مستقرة ولا لبس فيها منذ حوالى ١٤ قرنا ، ربما على عكس مفاهيم أخرى تبلورت حدودها ومعالمها وضوابطها بمضي الوقت ، منها على سبيل المثال ، مسألة الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وقضية الفروض العينية والكفائية .

النصوص المؤيدة لما نقوله عديدة فى القرآن الكريم والسنة النبوية ، وهى معروفة للكافة . من كثرة ما ترددت على ألسنة الوعاة وغيرهم من المشتغلين بالهم الإسلامى . فعندما يربط القرآن الكريم بين الخلق وعمارة الأرض (سورة هود ــ الآية ٦١) ويلفت أنظار الخلق الى ان الله قد سخر لهم الكون ، ويدعوهم لأن يمشوا فى مناكبها ويأكلوا من رزقه (الملك ١٥ ــ النحل ٢٠ ــ ابراهيم ٣٢ ، ٣٣) . وعندما تشير الآيات الى أن الله اجتبى ابن آدم ، وجعل الانسان خليفته فى الأرض (البقرة ٣٠ و ص ٢٦) .. فإن تلك الاشارات كلها لم تكن لترسل الى الناس ليستقبلوها بالقعود فى المساجد والاعتكاف خلف جدرانها . تلك دعوات صريحة للانطلاق فى عمارة الأرض وصناعة التقدم . حتى أن من بين مفكرينا من يرى أن فهم الاسلام باعتباره فرائض واعتكافا فى المساجد وعزلة عند الدنيا ، هو انحراف عن الدين وخروج عليه . (سيد قطب فى خصائص التصور الاسلامى) ــ وذهب ابن الجوزى مبكرا الى اعتبار ذلك من تلبيس ابليس على المسلمين ، فى كتابه الشهير المعنون بتلك العبارة .

والأحاديث النبوية التى تحث على التعبد بالعمل ، وتنتقص من قدر الذين يتصورون التدين قعودا فى المساجد ، أيضا بغير حصر ..

ومشهورة قصة الرجل الذى كان يمتدحه المسلمون قائلين انه دائم التعبد ولايكف عن ذكر الله ، فلما سأل الرسول عليه الصلاة والسلام عمن يكفيه ، قالوا كلنا ، فكان رد النبى هو قوله : كلكم خير منه .

والاشارات صريحة فى الأحاديث الى أن كل فعل يبتغى به الانسان وجه الله وخير الناس هو صدقة وقربى الى الله تعالى ، من إماطة الأذى عن الطريق ، الى زراعة الغرس الذى يأكل منه طير أو انسان أو بهيمة .

وتلك الدعوة الملحة الى الاصرار على عمارة الأرض ونمائها ، حتى آخر لحظة فى عمر الكون ، ينطق بها ببلاغة فائقة الحديث الشريف الذى يقول : ان قامت الساعة وفى يد أحد منكم فسيلة فليغرسها ، فان استطاع ألا تقوم الساعة حتى يغرسها ، فليغرسها .

ان المسلمين عندما يتجاهلون ذلك الرصيد الكبير من النصوص الذى يتعامل مع العبادة بمفهوم يسع الحياة كلها ، ثم يختزلونها فى الشعائر والفرائض المقدرة ، ، لايفرغون القيمة من مضمونها الحقيقى فقط ، ولكنهم ايضا يحجبون ــ عن غير وعى ــ الاضافة الحقيقية التى جاء بها الاسلام فى تاريخ الأديان . فإن الدين الاسلامى ليس مقصورا على العبادات مثل بعض الأديان الأخرى التى تكتفى بتلبية أشواق الانسان واحتياجاته الروحية الى حد الرهبنة والانقطاع للعبادة فى الأديرة انما شمول الرسالة لعبادة الناس ومعاملاتهم ، ولأشواقهم الروحية والمادية ، هو اضافة الاسلام وانجازه الكبير ، الذى برر انقطاع الوحى ، واختتام الرسالات السماوية .

ان استعادة البعد الضائع فى مفهوم العبادة كفيل بأن يزود الأمة الاسلامية بطاقة فى العمل ، وكفاءة وتفان فى الأداء ، وقدرة على الابداع والخلق ، تمكنها من الخروج فى أقصر وقت ممكن من برزخ التخلف الذى وقعت فيه ، ولاتزال تلتمس النجاة منه .

ينطبق الموقف ذاتة على الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، الذى اعتبره القرآن الكريم حجر الزاوية فى بناء الأمة الاسلامية واستمرارها . والذى وصفه الامام الغزالى فى الاحياء ، بانه « القطب الاعظم فى الدين ، وهو المهم الذى ابتعث الله له النبيين أجمعين » . هذا التكليف الجليل اختزل فى الواقع الاسلامى الى جهد محدود يبذله البعض لحث الناس على الالتزام بالفضائل الاخلاقية ، وأداء الفرائض ، والاعراض عن ارتكاب المنكرات التى اصبحت تعرف بالمنظور ذاته ، وباتت تنصرف الى شرب الخمر وغير ذلك من الرذائل المنهي عنها صراحة .

ولايكاد يخلو كتاب من كتب الحديث أو الفقه إلاّ وأفرد فصلا خاصا للأمر بالمعروف والنهى عن المنكر. غير أن الامام ابو حامد الغزالى يعد من القلائل الذين فصلوا فى المسألة بصورة جسدت بوضوح حجمها الحقيقى ، والمساحة العريضة التى يشملها الأمر والنهى ، والتى تتضاءل الى جانبها كثيرا تلك الحدود البائسة التي تضاءلت عندها الفكرة فى زماننا .

اهتم الفقهاء ومنهم الامام الغزالى بالمنكر ، الذى هو دائما موضوع التغيير باليد أو بالقلب أو باللسان . أما المعروف فلم يركزوا على التفصيل فى المعني به ، باعتبار أنه من قبيل التحسين والتجميل ، وليس التغيير . ومما اشار اليه الغزالى فى احياء علوم الدين (جـ ٢) ، وهو يفصل المنكرات ، أمور تتعلق بالأسواق وبالشوارع ، وما أسماه بالمنكرات العامة .

• وهو يركز فى منكرات الأسواق على الكذب فى المرابحة واخفاء العيب (فمن قال : اشتريت السلعة مثلا بعشرة ، واربح فيها كذا ، وكان كاذباً ، فهو فاسق . وعلى من عرف ذلك أن يخبر المشترى بكذبه . فان سكت مراعاة لقلب البائع كان شريكا له فى الخيانة وعصى بسكوته . وكذا اذا علم به عيبا ، فيلزمه أن ينبه المشترى عليه وإلا كان راضيا بضياع مال أخيه المسلم ، وهو حرام » .

• ومن منكرات الشوارع شغلها بالاسطوانات والأخشاب وأحمال الحبوب والأطعمة ، وتسيير الدواب بأحمالها التى تؤذى الناس ، وطرح القمامة وإغراق الطرقات بالمياه اذ ان ترك مياه المطر والأوحال والثلوج فى الطريق من غير كسح فهو منكر .

• ومن طريف ماقاله فى المنكرات العامة « أن كل قاعد فى بيته اينما كان ، فليس خاليا فى هذا الزمان من منكر ، حيث التقاعد عن ارشاد الناس وتعليمهم وحملهم على المعروف ، فأهل العلم مطالبون بتبليغ غيرهم من العامة وإلا كانوا شركاء فى الاثم . وكل من تيقن أن فى السوق منكرا يجرى على الدوام وهو قادر على تغييره ، فلا يجوز له أن يسقط ذلك عن نفسه بالقعود فى البيت ، بل يلزمه الخروج » .

غير ان أهم ماتضمنه هذا الباب هو اعتبار التصدى للفساد والظلم من بين مايشمله التكليف بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر . وقد خصص الغزالى بابا لهذا الموضوع .

ان مجال الأمر والنهى الذى يمتد بطول المسافة بين ساحات الأسواق والشوارع الى ساحة الحكم وسياسته ، لايكاد يتصور أحد انه هو الذى تقلص فى حدود الفضائل والرذائل ، ودفع الناس الى الصلاة فى مواعيدها ، بعد اغلاق الحوانيت والمقاهى .

هذا الابتسار أو الاختزال الذى اصاب تلك القيمة الجليلة ، دفعت امتنا ثمنه غاليا فى ماضيها وحاضرها ، ورد الاعتبار للأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، بالشروط والضوابط المتعارف عليها ، يمكن ان يشكل قفزة بعيدة فى اصلاح كل ما اختل واعوج فى حياتنا ، على مختلف المستويات .. وهى قفزة نحن اشد ما نكون حاجة اليها .

فرض الكفاية تعرض لقدر مماثل من الابتسار والتشويه . واذا كان فرض العين يعرف بانه مايلزم به كل فرد بذاته فان فرض الكفاية يلزم المجتمع ، بحيث أنه اذا قام به البعض سقط عن الباقين . وكما أن الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر صار يترجم فى محاولات حث الناس على الصلاة واغلاق حوانيتهم اثناءها كذلك فرض الكفاية ، بات يمثل له بصلاة الجنازة ، التى اذا أداها فريق من المشيعين سقطت عن غيرهم !

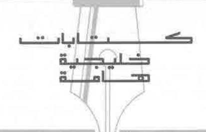
الأمر المحزن هنا أن فرض الكفاية فى حقيقته يفترض أنه ينصب على المصالح العامة للمسلمين ، التى يتصدى لتسييرها وانجازها نفر من الناس ، نيابة عن الآخرين ولخدمتهم ولكن تشويه المعنى وتجسيده فى صلاة الجنازة دون غيرها ، ادى الى تغييب واهدار القيمة العظمى لذلك الواجب .

ان كافة الاعمال التى يقوم بها الموظفون العموميون فى مصالح الحكومة ومؤسساتها ، وفى مواقع الانتاج والخدمات ، انما هى من قبيل الواجبات الكفائية ـ لكنها تتداخل مع الفروض العينية من حيث أن فرض الكفاية يأخذ هذه التسمية قبل أن يختار الشخص المناسب ويتحدد الجهد المطلوب . أما بعد الاختيار والتحديد ، فانه يتحول الى فرض عين ، وعلى من كلف ان يستفرغ الوسع فى اتمامه « هكذا يقول الشيخ الغزالى فى كتابه مشكلات فى طريق الحياة الاسلامية » . وهو يفصل الامر قائلا ان الصلاة فرض عين لانه لا احد يستثنى منها . اما القضاء والتدريس والطب والهندسة فهى فروض كفاية لانه ليس بمقدور كل شخص ان يصبح قاضيا او مدرسا او طبيبا او مهندسا . فاذا ما رشح الفرد ليشغل ايا من تلك المناصب ، فان قيامه باعباء منصبه يصبح فرض عين كالصلاة والصيام . وما يجوز أن يتراخى فيه أو يفرط . وكل ذرة من استهانة أو تفريط ، فهى عصيان لله واعتداء على الدين .

ولأهمية فروض الكفاية فقد فضلها بعض الأصوليين على فروض العين . وهو المعنى الذى ايده الجوينى امام الحرمين ، فى « غياث الأمم » . وبنى رأيه على ان الملزم بفرض العين يفيد نفسه ، اما من يقوم بفرض الكفايه فإنه يفيد غيره ، ولذا فان الثانى يفضل على الاول .

ان استحضار ذلك البعد الغائب عن فريضة الكفاية ، وتعميق الوعى بقيمة تلك الفريضة يسهم بدوره فى تغير ذلك الركود والخمول الذى بات يعشش فى المواقع التى تحمل مسئولية انجاز مصالح الخلق وقضاء حوائجهم ، اذ عندما يستشعر الجميع أن مايؤدونه بات ـ فرض عين يتساوى مع الصلاة والصوم ، فان الصورة لابد وأن تنقلب رأسا على عقب لصالح الخدمة التى تؤدى فى كل موقع والسلعة التى تنتج من كل مصنع .

ان مفاتيح انهاض الأمة بين أيدينا ، وما علينا الا أن نزيح ماعليها من صدأ ونحسن استخدامها بالكفاءة المطلوبة . فهل نحن فاعلون !!



نحو استراتيجية بديلة للتنمية الشاملة

الملامح العامة لاستراتيجية التنمية فى إطار اتحاد أقطار مجلس التعاون وتكاملها مع بقية الأقطار العربية

د. علي خليفة الكواري

مجلس التعاون لدول الخليج العربية ليس هدفا نهائيا فى حد ذاته ، فهو كما يقول النص الرسمى لنظامه الأساسى يعبر عن إحدى مراحل العمل المشترك بين دول المنطقة والتى تعتبر : « استكمالاً لما بدأته من جهود فى مختلف المجالات الحيوية التى تهم شعوبها .

وتحقق طموحاتها نحو مستقبل أفضل وصولا إلى وحدة دولها . » كما أكدت ورقة العمل الخليجى المشترك التى أقرها المجلس الأعلى وانطلق منها عمل اللجان الوزارية المؤقتة على أهمية العمل الخليجى المشترك منطلقة فى ذلك من احتياجات أمن المنطقة ومتطلبات تنميتها فى ضوء التحديات التى تجعل من « الاندماج الخليجى هو العامل الحاسم نحو توجه جديد ورحب لصياغة سياسة اقتصادية واجتماعية تبعد المنطقة عن التنافس الدولى » .

والدراسة الهامة للدكتور على خليفة الكوارى (نحو استراتيجية بديلة للتنمية الشاملة ــ الملامح العامة لاستراتيجية التنمية فى إطار اتحاد أقطار مجلس التعاون وتكاملها مع بقية الاقطار العربية) الصادرة عن مركز دراسات الوحدة العربية ، محاولة جادة لرسم إحدى الصور البديلة للمستقبل الذى يمكن أن تنجم عنه هذه التجربة وإسهاما فى تدعيم التوجه الوحدوى .

وبتجرد وموضوعية يقر الباحث بداءة بأن قبول مهمة صياغة هذه الاستراتيجية الشاملة للتنمية فى دول مجلس التعاون ليس بالأمر السهل خاصة وأن المجلس ذاته قد « اختلفت حوله التفسيرات وتراوحت حوله المفاهيم » كما أنه ليس لديه أى وهم فى أن تحوز دراسته على قبول ورضى جميع الأطراف أو أن تكون وحدها قادرة على أن تضع مسيرة المجلس باتجاه اندماج أقطاره وتحقيق تنميتها الحقيقية . فماذا تقول الدراسة ؟

المنطلق والطموح

« تشكل دول المنطقة بمجملها شريحة تتماثل فيها الظروف الراهنة وتتقارب المعطيات الاقتصادية والسياسية والاجتماعية كما تجمع بينها سمات مشتركة وتربط بين مجتمعاتها علاقات تاريخية خاصة ، هذا بالإضافة إلى أن المنطقة جزء من الأمة العربية ، الأمر الذى يؤكد انتماءها العربى كما تقول وثائق مجلس التعاون » .

هذه هى الحقيقة الأساسية التى يجب أن تنطلق منها استراتيجية التنمية فى إطار الاندماج الاقليمى والتكامل العربى ، وهى استراتيجية ترى التنمية أملاً يصعب الوصول إليه من قبل أى قطر من الأقطار منفردا كما ترى التكامل مع بقية الأقطار العربية ضرورة تنموية وبعداً استراتيجيا فى غيابه لايمكن أن تتم عملية التنمية المنشودة .

وبدء عملية التنمية يتطلب وجود كيان قابل للتنمية تتوفر له عوامل الأمن والاستقرار والعمق وتتاح له إمكانات بشرية ومادية وحضارية . تسمح بتعبئة وتنمية القدرات وإطلاق الطاقات وتكاملها من أجل بدء عملية التنمية والحفاظ على استمراريتها ، أى أن اندماج أقطار المنطقة فى كيان سياسى واحد قادر على بلورة إرادة التنمية والتعبير عن هذه الإدارة شرط لبدء عملية التنمية الشاملة مع ضرورة أن يكون واضحاً أن عملية التنمية المنشودة هى :

عملية مجتمعية داعية ودائمة موجهة لإيجاد تحولات هيكلية تؤدى الى تكوين قاعدة واطلاق طاقة انتاجية ذاتية يتحقق بموجبها تزايد منتظم فى متوسط إنتاجية الفرد وقدرات المجتمع . .

الغايات بعيدة المدى لاستراتيجية التنمية

ان أبرز الغايات بعيدة المدى لاستراتيجية التنمية هى تنمية قدرات الانسان واطلاق طاقاته فى إطار تأكيد مسئوليته المجتمعية وانتمائه العربى الاسلامى ، والتفاعل الايجابى مع الفكر والثقافة الانسانية فى ظل نظرة عميقة ومجددة فى التراث العربى والاسلامى ، وايجاد ارادة مشتركة ومتجددة للتنمية والوحدة وترسيخ أسس نظام سياسى موحد للمنطقة وتعزيز الاعتماد على التراث وتكوين قاعدة انتاجية صلبة (متنوعة المقومات ، متكاملة فى وحداتها وفى نفس الوقت مع بقية الاقتصاد العربى) والاحتفاظ بجزء من احتياطيات النفط فى شكل أصول استثمارية آمنة وخلق نظام اقتصادى مختلط يعتمد على القطاعين العام والخاص ثم تعميق متطلبات التماسك الاجتماعى وفق رؤية تؤمن باجتماعية الهدف .

تحديات على طريق التنمية

على أن الطريق أمام الاستراتيجية الشاملة للتنمية ليست مفروشة بالزهور ، فهناك تحديات تواجه الطموحات وآمال الوحدة ،

والمطلوب اولا هو تعيين هذه التحديات ودراستها من أجل مواجهتها وفتح الطريق أمام الاستراتيجية من أجل التطبيق العملي ، وأهم هذه التحديات هي :

ــ تدني مستوى المشاركة في السياسة والانتاج والدخل .

ــ الخلل السكاني .

ــ الاعتماد الاقتصادي شبه المطلق على النفط .

ــ انخفاض معدلات الأداء بسبب افتقار الادارة الى وضوح الرؤية وغيبة الأهداف المحددة .

ــ ارتفاع تكاليف الانتاج نتيجة الدعم الحكومي العالي .

ــ الانكشاف على الخارج .

ــ الاسراف في الاستهلاك وتطرف أنماطه .

ــ تصدع قيم العمل والانتاج .

ومواجهة هذه التحديات يستدعي تعبئة الإمكانات المتاحة ــ رغم محدوديتها . والعمل على مضاعفتها وخلق إمكانات محتملة أخرى لدفع عملية التنمية واستمرارها اذا ما استمرت المنطقة في خطوات الانتاج وتكوين الكيان القابل للتنمية في ظل سياسة واعية ، وأهم الإمكانات المتاحة هي :

ــ تزايد الوعي بسلبيات نمط النمو الراهن والبحث عن نمط بديل .

ــ تزايد امكانية صادرات النفط .

ــ تزايد التوجه نحو كيان موحد قابل للتنمية .

ــ وجود بنية تحتية مادية متطورة إلى حد ما .

ــ وجود خبرة رائدة في بعض مجالات الإدارة وتنظيم الانتاج .

ــ إمكانية تمويل التنمية دون اللجوء إلى شد الأحزمة .

ــ تزايد امكانية التكامل العربي المتكافىء .

أهداف استراتيجية عاجلة

والمقصود بالأهداف الاستراتيجية العاجلة المهمات الحرجة المطلوب انجازها قبل عام ٢٠٠٠ من أجل تهيئة المنطقة لفترة مابعد الاعتماد على النفط . وهي أهداف تم تحديدها على ضوء المنطلق والطموحات وفي ظل السعي نحو تحقيق غايات الاستراتيجية البعيدة المدى آخذين في الاعتبار التحديات الراهنة والإمكانات المتاحة والمحتملة في حالة تبني هذه الاستراتيجية .

هذه الأهداف العاجلة لاستراتيجية التنمية تغطي محورين . يمثل الأول ثلاثة أهداف متعلقة بضبط مسار التغيرات الاقتصادية والاجتماعية الراهنة ويشمل الثاني خمسة أهداف تتطلبها عملية تهيئة المنطقة وإعدادها لبدء عملية التنمية القادرة على الاستمرار والعطاء في عصر مابعد النفط . هذه الأهداف الثمانية تتمثل في :

• تخفيض الاعتماد على النفط واخضاع انتاجه لاعتبارات التنمية ، وهذا الهدف هو حجر الزاوية في استراتيجية التنمية والتكامل .

• تخفيض حجم قوة العمل الوافدة وتحديد تركيبتها وتحسين نوعيتها ، وهو هدف ملح لما تمثله قضية الخلل السكاني من تكلفة اجتماعية عالية .

• اخضاع النفقات العامة لمعايير الجدوى الاقتصادية .

• إصلاح وتنمية الادارة الراهنة من أجل ايجاد نوعية قادرة على بدء عملية التنمية المنشودة .

• بناء قاعدة اقتصادية بديلة للنفط أو على الأقل الشروع في البناء وإجراء التحولات لوضع الأسس اذا كانت الفترة المتبقية على عام ٢٠٠٠ لاتسمح باستكمال بنائها .

• بناء قاعدة علمية ــ تقنية ذاتية متطورة .

• اصلاح التعليم وربطه بمتطلبات التنمية .

• توفير البيئة الملائمة لتنمية ثقافية اجتماعية مستمرة .

وهذا يتطلب توفير الجو الذي يسمح بالتنوير الفكري وتوفير متطلبات التجانس السكاني والتماسك الاجتماعي وتغيير منطلقات العمل الاجتماعي وتوجهات العمل الثقافي بشكل جذري وتأكيد دور الإعلام في التنمية واصلاح أجهزته .

تكاتف أوجــه العمل الرسمي وغير الرسمي

على أن تنفيذ مهمات استراتيجية التنمية يتطلب تكاتف أوجه العمل الرسمي مع أوجه العمل غير الرسمي على مستوى المنطقة وتكامل جهودها . أما العمل الرسمي فيتمثل دوره في خلق كيان سياسي موحد قابل للتنمية وايجاد هذا الكيان يتطلب تجسيدا دستوريا وتوفيرا للمقومات التي تسمح بترسيخ أسس دائمة لاستمراريته ، والعمل غير الرسمي يتطلب تحمل المواطنين لمسئولياتهم التاريخية وعلى الأخص المثقفين والمهنيين منهم الذين توجد في يدهم سلطة اتخاذ القرار أو امكانية ترشيده .

إن تنفيذ الاستراتيجية يتطلب انتقال مرحلة التعاون إلى مرحلة اندماج في كيان سياسي موحد تتوفر فيه إرادة التنمية وتتوفر له الإمكانات وهذا يقتضي تطوير مجلس التعاون ليصبح شكلا من أشكال الاتحاد الذي يتمتع بسيادة اقليمية موحدة قادرة على اتخاذ القرار المناسب من أجل مواجهة التحديات التي تواجه أمن المنطقة ومصير شعبها ومستقبل أجيالها .

من هذا المنطلق الذي يؤكده النظام الأساسي للمجلس وأكدته ورقة العمل الخليجي المشترك بدأ العمل الخليجي المشترك في مرحلة مابعد انشاء مجلس التعاون وأصبح من الضروري أن ينطلق الى دور أكثر تقدما وأكثر قدرة على أداء مهمات المرحلة الراهنة .

إن تجسيد الكيان المطلوب ــ الكيان القابل للتنمية ــ يتطلب الانتقال من مرحلة التعاون الى مرحلة الاندماج ، وهي عملية تحتاج إلى إجراء تعديلات جوهرية على النظام الأساسي للمجلس باتجاه تجسيد الكيان السياسي الموحد وترسيخ أسس تماسكه . ولعلّ الكيان الجديد حري بأن يدعى « اتحاد اقطار الخليج العربية » . وبالإضافة إلى الحاجة الى تجسيد الكيان الموحد يتطلب تنفيذ الاستراتيجية أيضا ايجاد قيادة إقليمية لإدارة التنمية وتهيئة الادارة المحلية وتوثيق ترابطها مع إدارة التنمية الاقليمية .

هذه هي باختصار الأفكار الرئيسية التي تدور حولها دراسة الدكتور علي خليفة الكواري التي تعتبر ورقة عمل هامة يساهم بها كواحد من مثقفي المنطقة والمهتمين بتنميتها وتوحيدها ، دراسة استندت بالفعل في تحديد الملامح العامة لاستراتيجية التنمية في المنطقة إلى المفاهيم النظرية التي تلقى قبولا واسعا والتي هي بدورها حصاد الموقف النقدي من التجارب الماضية ، كما استندت إلى الفهم المتزايد لخصوصية الظروف الراهنة التي تمر بها المنطقة .

وهي دراسة تساهم مع غيرها من الكتابات الخليجية الجادة والمخلصة في استشراق آفاق المستقبل ومسارات العمل الوحدوي المطلوب تحقيقه ، ودعوة للمساهمة في خلق تراكم في الرأي والعمل باتجاه اندماج أقطار المنطقة وتحقيق تنميتها في إطار انتمائها العربي .

طلعت الشايب






نتفق جميعا على أن التنمية ظاهرة مركبة متعددة الأبعاد ، متنوعة الجوانب ، وتتطلب نظرة شاملة لمختلف مناحي الحياة الاجتماعية والاقتصادية والسياسية ، وعملية التنمية لاتتم فى فراغ أو فى مختبر علمى ، بل فى سياق إقليمى ودولى ، تتعرض فيه لضغوط وقيود ، بعضها إقتصادى وبعضها سياسى وأغلبها تختلط فيه الإعتبارات السياسية والاقتصادية .

بقلم : الدكتور علي الدين هلال

- التنمية غير التغير ، فهي تحمل معنًى إيجابيًا ، أما التغير فقد يكون إلى تقدُّم او تخلف
- اعتبار الإنتاج جوهر عملية التنمية يتطلب إعتبار الاستهلاك محور السلوك الإنساني
- التنمية الاقتصادية ليست هدفًا في حدِّ ذاته ، ولكنها أسلوب ووسيلة لتحقيق رفاهية الإنسان
- الاتجاه لربط التنمية باستيراد التكنولوجيا المتقدمة يُغفِل عددًا من الحقائق الهامة

ما يجب التأكيد عليه فى أى تحليل لسياسات التنمية هو أنها عمل إنسانى إرادى ، وهو عمل يعكس رغبة الانسان فى التخطيط والتأثير فى مستقبله . والتنمية غير النمو ، فالنمو عملية طبيعية إختيارية تلقائية . فنتحدث مثلا عن النمو السكانى بمعنى التزايد الطبيعى للسكان أو بعبارة أخرى الزيادة المستمرة التى تحدث فى كل المجتمعات عبر التطور البطىء ، والتى تؤدى عادة إلى تراكمات كمية ، تحدث أثرها بعد فترة طويلة من الزمان .

التنمية من الناحية الأخرى تحمل معنى الارادة والتخطيط والجهد المنظم لعملية التغير ، فهى تحتاج إلى تخطيط لاحداث التغيير الاقتصادى والاجتماعى المنشود الذى غالبا ماتكون له سمات كيفية مختلفة . ومن ثم تصبح التفرقة بين النمو والتنمية كالتفرقة بين التطور والتطوير ، والتغير والتغيير ، فالفارق بين الاصطلاحات المختلفة إنما يتمثل فى مدى تدخل الانسان فى إحداث التنمية أو التطوير أو التغيير .

وكذلك فان التنمية غير التغير ، ومفهوم التغير يشير إلى حدوث تحولات دون أن يكون لها إتجاه محدد ، فالتغير قد يكون إلى تقدم أو تخلف . أما التنمية فتحمل معنى ايجابيا ، لأنها تغيير مقصود ومستهدف ومرغوب فيه . وهكذا نصل الى القول بأن التنمية هى عملية إرادية مقصودة تستهدف تحقيق الأهداف التى اتفق عليها مجتمع ما . وهى عملية مجتمعية شاملة تتضمن الجوانب الاقتصادية والاجتماعية والسياسية والنفسية .

على أن هذا المفهوم تعرض لعدد من « التشوهات » ، مثل ربط التنمية بالتغريب ،

ويقصد بالتغريب عملية نقل وإنتشار أنماط ثقافية معينة إرتبطت بالتجربة الغربية ، خصوصاً في أوروبا الغربية ، ثم الولايات المتحدة. ويتضمن التغريب نقل هذه الأنماط التنظيمية والسلوكية إلى مجتمعات أخرى بدعوى أنها أصبحت ذات طابع عالمي ، أو بزعم أنها جزء لايتجزأ من عملية التنمية ، وكلاهما أمر لم يقم عليه الدليل . فالسمات والظواهر الاجتماعية التي إرتبطت بتجربة التصنيع في أوربا الغربية مثلا ليست جزءاً أساسيا من التجربة ذاتها ، وما يطرح على أنه عالمي وله طابع إنساني هو في الحقيقة سمات خاصة بالتجربة الأوربية ، من ذلك أيضا القول إن جوهر التنمية هو زيادة الإنتاج ، أو إن التنمية هي إقتباس وإستيراد التكنولوجيا المتقدمة ، أو إن التنمية هي اللحاق بالغرب .

هل التنمية هي زيادة الإنتاج ؟

مع أن أغلب الدارسين يرفضون ربط التنمية بالتغريب إلا أن بعض التعريفات التي تتضمنها دراساتنا وأبحاثنا تقوم على إفتراضات تمثل إنحيازا للمفاهيم الغربية عن التنمية ، والتي تقرن التنمية بزيادة الإنتاج . وصحيح أن زيادة الإنتاج قد تكون مطلبا شعبيا جماهيريا أو هدفا مرغوبا فيه ومن ثم فلا يشار إلى هدف التنمية في مرحلة ما بأنه عملية زيادة الانتاج ، ولكن الربط بين التنمية وزيادة الانتاج على المستوى النظري يثير مسائل ينبغي التنبيه إليها ، ذلك لأن إعتبار الانتاج جوهر عملية التنمية يتضمن في ذات الوقت إعتبار الاستهلاك محور السلوك الانساني ، وهو يقوم على رؤية خاصة بالإنسان الإستهلاكي ، وعلى إفتراض إمكانية زيادة الإنتاج إلى مالانهاية . وكلاهما إرتبط بالثورة الصناعية الرأسمالية ، بالتوسع الأوربي في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر . وهو مايدفع إلى إعادة النظر في هذا المفهوم ، كما يدفع إلى نظرة نقدية للفكرة التي أوردها آدم سميث في كتابه ثروة الأمم ومؤداها أن رفاهية الأمم تقاس بما تنتجه وتستهلكه من سلع وخدمات ، وترتب على ذلك إعتبار الدول المتقدمة هي تلك التي تتمتع بدخل مرتفع أيا كانت درجة ، تدهور ، قيم مواطنيها وأخلاقياتهم ، والدول المتخلفة هي تلك التي تعاني من الدخل المنخفض .

إن التنمية الاقتصادية ليست هدفا في حد ذاته ولكنها أسلوب ووسيلة لتحقيق رفاهية الإنسان ، ومن ثم فإن القضية ليست مجرد متوسط الدخل بغض النظر عن الآثار المترتبة على ذلك إجتماعيا وإنسانيا ، بل ينبغي أخذ هذه العناصر في الحسبان عند وضع الأهداف ، ذلك أن رفاهية الانسان الفردية والاجتماعية لاتتجزأ . وبرغم زعم رجال السياسة والاقتصاديين بأنهم يدركون ذلك فإن الواقع في عديد من الأحيان يشهد بالعكس ، وكيف أن الحلول الإقتصادية التي تقترح أو تتبع لاينظر فيها إلى الآثار الاجتماعية والأخلاقية والنفسية التي تترتب عليها ، والتي قد تجعل حلا مايبدو أقل جاذبية عما إذا نظر إليه من منظور إقتصادي وحسب . ولايقبل من الاقتصادي ـ بالذات في البلاد النامية ـ القول بأن هذه الآثار تخرج عن دائرة تخصصه . ذلك أن توليه مسئولية عامة أو تقديمه النصح للحكومة يفرض عليه ذلك .

هل التنمية هي إستخدام التكنولوجيا المتقدمة ؟

يربط البعض بين التنمية واستيراد التكنولوجيا المتقدمة على أساس أن في ذلك مسايرة لركب التقدم العلمي والتكنولوجي في العالم وحافز للبلاد النامية على التطور ولكن هذا الاتجاه يغفل عددا من الحقائق الهامة :

أولها : أن التكنولوجيا هي حقيقة إجتماعية والمستوى التكنولوجي لمجتمع مايعكس درجة التقدم العلمي والتعليمي ، كما يعكس تراكم الخبرات العلمية والعملية ، وهكذا فإن الثورة التكنولوجية في البلاد المتقدمة هي تعبير عن تقدم طبيعي ، وتتضمن نوعاً من الإتساق بين هذا التقدم والأنماط الفكرية والثقافية والسياسية السائدة في المجتمع . لذلك فالأخذ بأسباب التكنولوجيا المتقدمة في البلاد النامية ، ليس نتيجة أمر طبيعي ، ولكنه أمر مستعار ، يضاف إلى هيكل إجتماعي متخلف ، ومن ثم فهو لايؤدي بالضرورة إلى التطور بل قد يقود إلى مزيد من الجمود وإعاقة التقدم . فعلى سبيل المثال فإن الأدوات التكنولوجية في مجتمع لم يحقق بعد تقدمه السياسي والديمقراطي قد تؤدي إلى إعاقة تطوره السياسي .

ثانيا : أن إستيراد التكنولوجيا يثير قضايا تتعلق بنوع هذه التكنولوجيا ومدى فائدتها في ظروف البلاد النامية ذات الموارد البشرية الكثيرة والموارد المالية المحدودة ، وبالذات بالنظر إلى تكلفتها العالية .

ثالثا : أن الدول المتقدمة لاتسمح للبلاد النامية إلا بأنواع محددة من التكنولوجيا ، وبقدر معين يخلق حالة من الإعتماد التكنولوجي ، هي في حقيقة الأمر نوع جديد من التبعية بمقتضاه تظل الدول النامية في حالة إعتماد مستمر وتبعية للدول المتقدمة .

هل التنمية هي اللحاق بالدول المتقدمة ؟

يعرض البعض لقضية التنمية في إطار ضرورة اللحاق بالدول الصناعية المتقدمة ، وهو مايرتب طرح الأولويات بشكل معين ، بدعوى أنها من متطلبات التقدم وشروطه ، في مواجهة هذا الطرح الذي يتسم ، بالغيرية ، ،

فهو يصف بلادنا من خارجها ، وتبدو الحاجة لطرح مفهوم التنمية من واقع هذه البلاد ذاتها ، دون الاحالة إلى البلاد المتقدمة ، ووفقا لذلك الطرح فإن تحدي التنمية الأكبر وأولويتها الأولى تكمن في الإزدواج القائم في مجتمعاتنا في الإقتصاد والسياسة والثقافة والاجتماع ، بين مجتمع الريف ومجتمع المدينة ، بين العواصم التي تنافس العواصم الأوربية في فنادقها وشواطئها وملاهيها وسلعها الاستهلاكية ، والريف الذي مازال يلبس أردية المجتمع الوسيط في تقاليده

وثقافته وأدوات إنتاجه ، وفي هذا الاطار لاتصبح القضية هي اللحاق بالدول المتقدمة ، فهو إعتبار ، غيري ، وطرح للمشكلة ، من الخارج ، ولكن المطلوب هو إصلاح الاختلال الداخلي للمجتمع .

إن هذا التحليل يوصلنا إلى أن التنمية من حيث غاياتها ووسائلها ، هي عملية محددة إجتماعيا ، وأن على الفكر الاجتماعي والسياسي في كل بلد أن ينظر إليها من زاوية هذا المجتمع : تاريخه وتراثه وقيمه من ناحية ، وواقعه وموارده المادية والبشرية من ناحية ثانية ، والغايات المتوخاة من ناحية ثالثة . ومن خلال التفاعل الخلاق بين هذه الأمور الثلاثة ، وبواسطة النظرة الشمولية التي نأخذها جميعا في الإعتبار ، يمكننا أن نتحدث عن سياسة تنموية تعكس إحتياجات المجتمع وتحقق أهدافه .

ماجـــرى للمتـــنبي في رحلاتـــه..

إلى عبدالعزيز التويجري صديق المتنبي

الرحلة الأولى

تافهون شعرياً وسياسياً ، دبروا مؤامرة غايتها اغتيال المتنبي . فأحبطت المصادفة مؤامرتهم ، ونجا المتنبي ، ولكن محاولة الاغتيال أسفرت عن اصابة رأسه بصداع دائم حيّر الأطباء ، واضطرهم الى الاعتراف بعجزهم ، ونصحوه بالذهاب الى لندن عاصمة الضباب والطب المتقدم . ولم يجد المتنبي مفراً من العمل بتلك النصيحة ، والمريض ضعيف يطلب الشفاء ولو في ألبانيا .

وجاء المتنبي الى لندن مثقل الجيوب والحقائب بالمال . وقصد أطباءها الذين فحصوه وقرروا أن حالته تستدعي دخول المستشفى على عجل . فرضخ لقرارهم ، ولكنه قبل أن يدخل المستشفى طاف أياماً في أرجاء لندن مستطلعاً محملقاً بفضول . ثم دخل المستشفى . وبقي فيه أسابيع ، فلم يشف ، وخرج من المستشفى وقد أضيف الى صداعه تشوه في الظهر وقرحة في المعدة وعرج في الساق اليسرى وقصر نظر في العينين وأسنان صناعية وشيب وقمل في شعر الرأس .

وغادر المتنبي خاوي الحقائب والجيوب ، وعاد الى قبيلته ، وجلس في خيمته واجماً ، منكس الرأس ، فتوافد عليه أفراد قبيلته مستفسرين عن أحواله وعما جرى له في لندن ، وانهمرت عليه أسئلتهم كمطر في آذار . فقال لهم المتنبي : « سأحكي لكم عما شاهدته في لندن ، وسأجاوب عن أسئلتكم كافة » .

وسعل المتنبي سعال رجل عمره ألف سنة ، ثم قال : « ما أن حطت الطائرة التي أركبها على أرض مطار لندن حتى تناهت الى سمعي زغاريد فرح بشتى اللغات » .

القبيلة : « لابد أنها زغاريد ترحيب بك بوصفك شاعر العرب العظيم » .

المتنبي : « لا .. فالزغاريد كانت موجهة الى السياح العرب الذين كانوا في الطائرة ، والمزغردون كانوا أصحاب الفنادق والبيوت المفروشة ونوادي القمار والملاهي والمطاعم والسماسرة والمترجمين والأطباء والممرضات » .

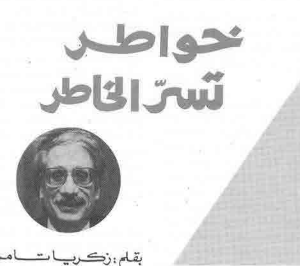
القبيلة : « هل قابلت ملكة بريطانيا ؟ » .

المتنبي : « كنت مشغولاً بما هو أهم ، ولن أحكي عنه » .

القبيلة : « أقابلت الأمير تشارلز ولي العهد ؟ » .

المتنبي : « لا .. ولماذا أقابله ؟ واذا قابلته فماذا أفعل به ؟ » .

القبيلة : « والأميرة ديانا ؟ » .



المتنبي : « قابلتها دقائق قليلة ، وتركتها ناقماً على ضحالة ثقافتها ، مؤمناً بتفشي الجهل في بلاد الانكليز ، فقد سألتها عما تعرف عن الفلاسفة الأجلاء عادل امام ودريد لحام وفؤاد المهندس ، فاذا هي لاتعرف عنهم شيئاً » .

القبيلة : « ماذا رأيت في لندن ؟ » .

المتنبي : « رأيت رجالاً كالنساء ونساء كالرجال ، ون يتاح معرفة الاختلاف الا بعد تشريح الجثث » .

القبيلة : « وماذا رأيت أيضاً ؟ » .

المتنبي : « رأيت أطباء لاينتضون السكاكين ويشهرون السيوف والمسدسات بل ينقضون على مرضاهم حاملين الفواتير التي تقتل من غير حاجة الى سفك دماء » .

القبيلة : « وماذا رأيت أيضاً ؟ » .

المتنبي : « رأيت اللحم الحلال يمشي على أقدام ، وكل جائع سيشبع اذا كانت محفظته سخية مملوءة بالجنيهات والدولارات . رأيت السيارات تسير في وسط الشوارع لا على الأرصفة ، وسمعت أن كل من يعبر عن رأيه في بلاد الانكليز لايضطر أهله الى كتابة اسمه في سجل المفقودين » .

فتبادل أفراد القبيلة النظرات غير المصدقة . فقال المتنبي : « ورأيت في لندن أسواقاً لايحصى عددها ، ولكن أنجح سوق هي السوق العربية التي يباع فيها كل شيء ، وأي شيء له ثمن محدد ، ومن يدفع الثمن يحصل على مايريد » .

القبيلة : « لابد من أنك قابلت صحافيين عرباً ، فالصحافةالعربية في لندن لها وجود باهر بالغ الأهمية » .

المتنبي : « لم أقابل أي صحافي ، والسبب يرجع الى أن بعضهم منهمك في العمل ، وبعضهم منهمك في اجراء المقابلات مع الراقصات والسياسيين الذين يدفعون ، وبعضهم منهمك في المتاجرة بالعقارات والمبادىء » .

القبيلة : « أيوجد في لندن عرب كثيرون ؟ » .

المتنبي : « إنهم كثيرون جداً . ولو استمروا يهاجرون الى لندن ويقيمون بها ، فمن المؤكد أن علماء الأجناس في يوم ليس بالبعيد لن يعثروا على انكليزي واحد في بلاد الانكليز » .

القبيلة : « وماذا سيحدث عندئذ ؟ » .

المتنبي : « سيؤلف عرب بريطانيا دولة مستقلة ذات سيادة ، ثم تنقسم الدولة الى دولتين ، وتنقسم الدولتان الى خمس دول ، وتنقسم الخمس دول الى تسع دول ، وتنقسم التسع دول الى عشرين دولة . وكل دولة تعادي الدولة الأخرى وتحشد على حدودها الجيوش والاذاعات والصحف » .

القبيلة : « وماذا استفدت من زيارتك للندن ؟ » .

المتنبي : « قررت اعلان الاضراب عن نظم الشعر » .

القبيلة : « وما السبب ؟ والى متى سيستمر اضرابك ؟ » .

وقيل إن المتنبي جاوب عن السؤال ، وحكى عن السبب ، فأصبح مهدداً باغتيال جديد ، وقيل إنه امتنع عن الكلام حتى يتأجل موته .

الرحلة الثانية

صاح كافور الأخشيدي بأعوانه : « قبل ثلاثة أيام دخل البلاد رجل غريب اسمه المتنبي . وآمركم باحضاره اليّ فوراً حياً أو ميتاً » .

وكان المتنبي آنئذ يمشي في شوارع القاهرة ، وئيد الخطى ، متنقلاً من شارع الى شارع ، وكل شارع يبدو لعينيه عالماً جديداً سحرياً قادراً على أن يهب بهجة تحول الرمل الى عشب أخضر .

وبلغت بهجة المتنبي الذروة عندما رأى نهر النيل ، فتوقف عن المسير ، ونظر الى ماء النهر كأنه طفل يشاهد بحراً أول مرة في حياته .

قال النيل للمتنبي : « اهرب . الهرب مما ينتظرك جرأة وشجاعة وبطولة » .

فلم يسمع المتنبي ماقاله النهر ، انما تدفقت الى مخيلته كلمات كثيرة تتنافس على وصف نهر وامرأة وملك عادل .

قال النيل للمتنبي : « اهرب اهرب اهرب » .

ولكن المتنبي كان يجهل لغة الأنهار . واستمرت كلماته في التنافس على وصف نهر عظيم وامرأة جميلة وملك رحيم متسامح ، ثم تبددت فجأة حين انقض على المتنبي عدد من الرجال الأقوياء ، القساة الوجوه والأيدي ، واقتادوه الى قصر كافور الأخشيدي غير مبالين بتساؤلاته وصياحه التزق المحتج .

كافور الأخشيدي : « المعلومات المتوفرة لديّ تقول إنك لست مصرياً » .

المتنبي : « اذا كنت مولوداً بالكوفة وجئت مصر زائراً فهل هذا مبرر لاعتقالي ومعاملتي أسوأ معاملة ؟ ! » .

كافور الأخشيدي : « لاتكن وقحاً . تتكلم فقط حين يطلب منك أن تتكلم » .

المتنبي (بهزء) : « أمرك مطاع » .

كافور : « اخرس . ألم آمرك بألا تتكلم ؟ » .

المتنبي : « لن أتكلم » .

كافور : « ليس من حقك أن تتكلم أو تسكت إلا وفق أوامري . قل لي : ما اسمك ؟ » .

المتنبي : « المتنبي .. أبو الطيب المتنبي » .

كافور : « ماذا تشتغل ؟ » .

المتنبي : « لامهنة لي سوى الكتابة . أنا شاعر » .

كافور : « لاتتحذلق . الشعر أيضاً مهنة لاتختلف عن مهنة الحداد والنجار والدهان وحفار القبور . اسمع . مادمت تزعم أنك شاعر ، فهل نلت إذناً من السلطات المختصة ؟ » .

المتنبي : « وهل تطلب السحابة إذناً اذا أرادت أن تمطر ؟ » .



عبد العزيز التويجري

كافور : « اني أكلمك عن قوانين وأنظمة ، فلا تجاوبني بكلام منمق سخيف يصلح لأن يوجه الى مراهقات . أنت الآن لست في الصحراء . أنت في بلاد يسودها التنظيم . وكل عمل لابد لصاحبه من أن ينال إذناً رسمياً قبل أن يمارسه ، وأنت خالفت القوانين عندما نظمت شعراً من غير إذن » .

المتنبي : « لقد جئت الى مصر قبل ثلاثة أيام فقط . ولم أنظم بعد أية قصيدة ، ولم أخالف أي قانون من قوانين البلاد » .

كافور : « أنت تدعي أنك شاعر ، فما الدليل على أنك شاعر حقاً ؟ ! » .

المتنبي : « أشعاري مشهورة في البلاد العربية كلها ، ولا أحد يجهلها » .

كافور : « يالك من وقح ! أتجرؤ على اتهامنا بالجهل ؟ » .

المتنبي : « كل ما أردت قوله هو أني شاعر ذائع الصيت ، ونظمت كثيراً من الأ[illegible] » .

كافور : « هل غنى أشعارك مشاهير المغنين والمغنيات ؟ أم كلثوم .. ليلى .. وردة الجزائرية .. أحمد عدوية .. محرم فؤاد .. شادية .. عبد الحليم حافظ ؟ مابك صامت ؟ لماذا لاتجاوب ؟ أرى أن وجهك قد احمر .. احمر خجلاً من افتضاح كذبك . سأتيح لك الفرصة لتثبت أنك شاعر . هيا اسمعني بعض أشعارك » .

المتنبي :

يـا أعـدل النـاس إلا في معاملتي
فيك الخصام وأنت الخصم والحكم
أعيـذهـا نظـرات منك صادقـة
ان تحسب الشحم فيمن شحمه ورم
ومـا انتفـاع أخي الدنيـا بناظـره
اذا استـوت عنـده الأنـوار والظلم
أنـا الـذي نظـر الأعمى الى أدبي
وأسمعت كلمـاتي من بـه صمم

كافور : « ماسمعته ليس سيئاً . أتجيد نظم قصائد المدح ؟ » .

المتنبي : « سبق لي أن مدحت الكثير من الملوك والأمراء . إنني أتقن المدح اذا كان من سأمدحه يليق به المدح » .

كافور : « مادمت تتقن المدح ، فينبغي لك ان تنظم قصيدة في مدحي . أنت الآن في مصر ، وأنا حاكم مصر ، واذا كنت لست عميلاً لأعداء مصر وتحب مصر فمن واجبك مدح حاكمها » .

المتنبي : أنا لم أمدح في حياتي سوى رجال عرفتهم وعرفت مالهم وما عليهم » .

كافور : « أتلمح الى أنك لاتعرفني ؟ ها أنا قاعد قبالتك وقد صرت تعرفني » .

المتنبي : « لم أعرفك بعد المعرفة التي تتيح لي نظم قصيدة في مدحك » .

فابتسم كافور الأخشيدي ، وأشار بيده الى أعوانه ، فهجموا على المتنبي ، وطرحوه أرضاً ، ووضعوا رجليه في فلقة ، وانهال بعضهم بالعصا ضرباً على باطن قدميه بينما راح بعضهم الآخر يركل رأسه وجسمه ركلاً شديداً .

تألم المتنبي ، ورغب في أن يصرخ متوجعاً ، ولكنه قاوم وكظم رغبته . ومالبث الألم أن دفعه الى الصراخ شاتماً مستغيثاً . فضحك كافور ، وقال : « ماهذا الصوت الجميل ؟ أنت لست شاعراً . أنت تصلح لأن تكون مغنياً . الله ! ما أجمل هذا الصوت ! تابع .. اطربنا » . وحين تحول صراخ المتنبي الى بكاء ذليل ، أمر كافور بالكف عن ضربه .

ووقف المتنبي أمام كافور الأخشيدي محني الرأس بذل ، مبتل الوجه بالدموع والدماء .

كافور : « ستنظم قصيدة مطولة تمتدحني » .

المتنبي : « سأفعل ما تأمر به » .

كافور : « سأعطيك مهلة مدتها سبعة أيام لنظم القصيدة ، وستنجو من القتل اذا أعجبتني » .

وهمّ المتنبي بالخروج ، فقال له كافور : « قف واسمع يامتنبي . اياك وأن تظن أني كغيري من الحكام ، اذا أعجبتني قصيدتك فلا تحلم بنيل درهم واحد من أموالي » .

وعاد المتنبي الى كافور الأخشيدي بعد أربعة أيام ، وأسمعه مانظم من شعر في مدحه ، فطرب كافور ، وانتشى ، وقال : « أنت شاعر حقاً » .

وفكر كافور الأخشيدي لحظات ، ثم قال للمتنبي : « سأعرض عليك عرضاً لامثيل له . اختر إما الضرب حتى الموت وإما الحصول على ألف دينار » .

المتنبي : « لا أحد يفضل الضرب على ألف دينار » .

كافور : « ستنال ألف دينار اذا نظمت قصيدة تهجوني فيها أقذع هجاء » .

حاول المتنبي أن يتكلم ، ولكن كافوراً قال له : « اسكت ولاتنطق بكلمة واحدة . اذا لم تنظمها ضربت ، واذا هجوتني نلت ألف دينار » . فوعد المتنبي بأنه سيهجوه ، وبرّ بوعده ، ونظم قصيدة في هجاء كافور الأخشيدي ، ونال ألف دينار .

وما أن خرج المتنبي حتى تصايح أعوان كافور الأخشيدي مستغربين مستنكرين ، فقال لهم كافور بصوت صارم : « ستظلون أغبياء تجهلون التعامل مع البشر والحياة . سأشرح لكم مافعلت وأسبابه . المتنبي شاعر متكبر متعجرف معتد بنفسه ، ويجب أن يعاقب ولاسيما أنه سيكون في المستقبل من الشعراء الخالدين . وقد عاقبته شر عقاب . لقد أرغمته على مدحي ثم أرغمته على هجائي ، وهذا التناقض سيصبح في المستقبل تهمة شائنة تدين المتنبي ، وتبرهن على أنه مجرد مرتزق صغير غير جدير بالاحترام .

وفيما بعد ، اغتيل المتنبي ، ومات كافور الأخشيدي ، ولكن ماتنبأ به كافور تحقق ، وصار للمتنبي أصدقاء معجبون به ، وخصوم يزدرونه .



البُعد القومي للمعركة

بقلم: الدكتور محمد عمارة

لم يكن الخلاف بين الشيخ محمد الخضر حسين صاحب كتاب [نقض كتاب الاسلام وأصول الحكم] وبين الشيخ علي عبدالرازق ـ صاحب [كتاب الاسلام وأصول الحكم] ـ مجرد خلاف فكري ذي طابع فقهي أو تاريخي مجرد .. بل ولم يكن مجرد خلاف حضاري مع « النهج التغريبي » ، الذي رآه الشيخ الخضر قد حكم تفكير الشيخ علي عبدالرازق .. وإن شئنا الدقة ، فإن خلاف الشيخ الخضر مع هذا « النهج التغريبي » لم يكن مجرد استمساك بفضيلة الاستقلال الفكري ، ولا فرط أنفة من التبعية لقوم غير مسلمين ، كما قد يفهم البعض خطأ وقصر نظر ! .. وإنما كان وراء هذا الموقف ـ فضلاً عن أن فضيلة الاستقلال الفكري هي السبيل الوحيد لرؤية الخصائص التي تمايز بين الحضارات ، ومن ثم فإنها السبيل الوحيد لتحصيل الحقيقة وإدراك الصواب ـ كان وراء هذا الموقف المعادي لهذا « النهج التغريبي » موقف وطني يدرك وظيفة هذا النهج التغريبي في تكريس التبعية السياسية والعسكرية والاقتصادية المفروضة على وطن العروبة وعالم الاسلام من قبل أبناء الحضارة الغربية الغزاة المستعمرين .. فالتبعية الفكرية ، هنا ، تلعب دوراً فاعلاً وفعالاً في تأييد وتأبيد الاستعمار الذي يحول بين المسلمين وبين الحرية والنهضة والتقدم إلى الأمام ! ..

■ لقد كان "الخضر" شيخًا مُجددًا مناضلًا ، فهو عالم ملتزم بأصول الشريعة ، ومهتم بواقع المسلمين المعاصر

■ عندما ينبّه على تهافت أدلّة الشيخ علي عبد الرازق وحُجَجِه يشبِّهُها ساخرًا بوعود الدول الاستعمارية !

■ الشريعة الإسلامية في رأيه هي قانون الأمة الطبيعي ، وفي سيادتها مظهر من مظاهر الاستقلال

■ أدرك الشيخ "الخضر" خطر دعوى "علمانيّة الإسلام" على قضيّة رفض الأمّة لسلطان الأجنبي

■ الدولة الإسلامية هي المطلب ، وليست الخلافة هي الشكل الوحيد ولا الاسم المفرد لهذه الدولة

■ ذهب الإسلام السياسي في شروط الخليفة إلى الحدّ الذي يجعل من دولته الواقع القريب من مثال المدينة الفاضلة

لقد كان الخضر : « شيخاً مجدداً — مناضلاً » .. فهو عالم ملتزم بأصول الشريعة ومقاصدها .. وهو مجدد ، جعله تجديده مهتماً بواقع المسلمين المعاصر ، معنياً بالحلول الكافلة للأمة تجاوز سلبيات الواقع الذي تعيش فيه .. وهو مناضل يدرك دور الشريعة والتجديد في التصدي لأعداء الأمة ، الذين يفرضون عليها القهر والعبودية والتخلف ، ويحولون بينها وبين الحرية والقوة والانطلاق ..

وهو ، في تونس ، قد ناهض الاستعمار ، الذي اضطره إلى الهجرة من وطنه الأول إلى الشام ...

وهو ، في الآستانة ، يشارك في العمل السياسي ، ويضطلع بمهام في السفارات الخارجية ، تجعله على دراية بما يصنع الغرب ومايبيت لعالم الاسلام ...

وهو في دمشق ، يناضل الاستبداد ، ويدخل السجن ... ثم يضطره الاستعمار الفرنسي — الذي هجَّره من تونس — إلى الهجرة من دمشق إلى القاهرة ...

وفي القاهرة — وبصدد كتاب [الاسلام وأصول الحكم] — أبصر الرجل كم هي جليلة تلك الخدمة التي يقدمها للاستعمار كل من يدعو إلى تجريد الاسلام من طابعه ودوره السياسي ، وتجريد الدولة ، في وطن المسلمين ، من صبغتها الاسلامية ، وتقديم الاسلام ديناً لا دولة ، ورسالة روحية لا شرع فيها ولا سياسة ... ذلك أن المسلمين ، في ظل الاستعمار ، إذا اهتموا « بما لله » ، « وتركوا ما لقيصر لقيصر » ، كان المستفيد الأول من ذلك هو الأجنبي ، لأن « قيصر » هنا هو الاستعمار ! ... « فعلمنة الاسلام » هي — في حقيقتها وبصرف النظر عن النوايا — تشريع يمنع الحرج والإثم عن ضمير المسلم إن هو خضع لسلطان أجنبي أوسلطة غير إسلامية ... ومن ثم فإن اشتراط « أسلمة الدولة » و « أسلمة القانون » ، هو — في الحقيقة — دعوة للمسلمين كي يثوروا في سبيل حريتهم وتسويد شريعة الاسلام في الوطن الذى يعيشون فيه ! ...

أبصر الشيخ الخضر هذه الحقيقة الجوهرية ، ونبه إليها وهو يرد دعوى الشيخ علي عبدالرازق : « علمانية الاسلام » !

فهو عندما ينبه على تهافت أدلة الشيخ علي عبدالرازق وحججه ، يشبهها — ساخراً — بوعود الدول الاستعمارية وعهودها ؟! .. فيقول عنه : « إنه تشبث بأوهى من عهد دولة استعمارية (١) » ؟!

وعندما يستدل علي عبدالرازق على أن محمداً ، ﷺ ، كان رسولاً مبلغاً ، ولم يكن حاكماً منفذاً ، بأن « الرسالة » غير « الملك » ، وبكلمة المسيح ، عليه السلام : « أعطوا ما لقيصر لقيصر وما لله لله » ، وبأن يوسف عليه السلام ، كان عاملاً في دولة لاتدين بدينه ... ينبه الشيخ الخضر على مغايرة النهج الاسلامي لما سبقه من نهج في هذا الأمر ... ويشير إلى الخطر البادي من استغلال هذه الدعوى في تكريس انفراد « القيصر » المعاصر : الاستعمار ، بالسلطة والسلطان في عالم الاسلام .. فيقول : « لم يرض محمد بن عبدالله ، عليه السلام ، أن يقيم تحت سلطان غير سلطان الله ، ولم يرض لمعتنقي دينه الحنيف أن يستكينوا لسلطة غير اسلامية ، وفرض الهجرة والجهاد على ما نقول شهيد .

وما ينبغي للمؤلف — [علي عبدالرازق] أن يحشر في غضون كتابه مثل هذه الكلمة — [اعطوا ما لقيصر لقيصر وما لله لله] — التي تقضي حاجة في نفس المخالف المتغلب ، وتبقى في النفوس أثر الاستكانة إلى أي يد تقبض على زمامها (٢) » ؟! .. « إن محمد بن عبدالله ، صلوات الله عليه ، لم يعترف بسلطة دار الندوة بمكة ، وحاربها حتى خضد شوكتها واستأصل جرثومة فسادها ، ولم يعترف بسلطة قيصر ، وأخذ يعد ما استطاع من قوة ليدفع شره ويقوض دعائم ملكه .. (٣) » ؟! ..



الهدف من تأسيس الدولة الاسلامية

كذلك ، فإن الادعاء بأن الاسلام دين ليست به شريعة لسياسة الدولة والمجتمع ، هو ـ وعينا أم لم نع ـ دعوة تمنح المشروعية لسلطان الأجنبي المتغلب وفلسفة قانونه الغريبة عن روح الأمة وهويتها الحضارية . ذلك أن « الاسلام يقصد من تأسيس الدولة الاسلامية أمرين :
أحدهما : اجراء أحكامه العادلة ونظمه الكافلة بسعادة الحياة ، إذ لا يقوم عليها بحق إلا من آمن بحكمتها وأشرب قلبه الغيرة على تنفيذها .

ثانيهما : الاحتفاظ بكرامة أوليائه واعزاز جانبهم حتى لا يعيشوا تحت سلطة مخالف يدوس حقوقهم ، ويرفع أبناء قومه أو ملته عليهم درجات » ؟! (٤) .

والذين يجعلون الاسلام « ديناً » لا « شرعاً » ، سيهدرون ، ضمن مايهدرون من « مقاصد الشريعة » مقصد « الجهاد » ، الذي تجاوز كونه سبيلاً « لحفظ الدين » ، وأصبح ، في مواجهة الاستعمار الأجنبي السبيل الأول لحفظ مقاصد الشريعة كلها ! .. ذلك « أن المقاصد التي تقصدها الشريعة السماوية ترجع الى حفظ النفس ، والدين ، والعقل ، والعرض ، والنسب ، والمال . فالقصاص ، مثلاً ، مشروع لحفظ النفس ، وحد الزنا لصيانة النسب ، وحد القذف لصيانة العرض ، وعقوبة شارب الخمر لصيانة العقل ، والجهاد لحفظ الدين . بل الاستعمار الأجنبي دل على أن الجهاد مشروع لحفظ الدين والنفس والعرض والمال ، ويرشد إلى هذا قوله تعالى : [إن يظهروا عليكم لا يرقبوا فيكم إلاً ولا ذمة (٥)] ... (٦) » ... فللشريعة الاسلامية ، في الواقع الاسلامي ، دور تحريري .. وهي ليست مجرد نصوص .

ولقد كان طبيعياً للرجل الذي أدرك دلالة سيادة الشريعة وأحكامها على استقلال الأمة ودولتها ، أن يبصر دلالة سيادة « الشريعة » الاستعمارية في بلادنا على خضوعنا لهذا الاستعمار ... فأحكام الشريعة الإسلامية هي قانون الأمة الطبيعي ، وفي سيادتها ، بدلاً من الفلسفة القانونية للحضارة الغازية ، مظهر من مظاهر الاستقلال .. « وإذا كانت القوانين الوضعية لا يخضع لها المسلمون بقلوبهم ، ولا يتلقون القضاء القائم عليها بتسليم ، كان تقريرها للفصل بينهم غير مطابق لقاعدة الحرية . إذ المعروف أن الأمة الحرة هي التي تساس بقوانين ونظم تألفها وتكون على وفق إرادتها أو إرادة جمهورها . فالشعوب الاسلامية لا تبلغ حريتها إلا أن تساس بقوانين ونظم يراعى فيها أصول شريعتها ، وكل قوة تضرب عليها قوانين تخالف مقاصد دينها فهي حكومة مستبدة غير عادلة . فالذين ينقلون قوانين وضعها سكان رومة أو لندرة أو باريز أو برلين ، ويحاولون إجراءها في بلاد شرقية ، كتونس أو مصر أو الشام إنما هم قوم لايدرون أن بين أيديهم قواعد شريعة تنزل من أفق لا تدب فيه مناكب الخيال أو الضلال ، وأن في هذه القواعد مايحيط بمصالح الأمة حفظاً ، ويسير بها في سبيل المدنية الراقية عنَقاً (٧) فسيحاً . ولو قيض الله لشعوب هذه الأمة الاسلامية رؤساء يحافظون على قاعدة حرية الأمم ، لألفوا لجاناً ممن وقفوا على روح التشريع الاسلامي ، وكانوا على بصيرة من أحوال الاجتماع ومقتضيات العصر ، وناطوا بعهدتهم تدوين قانون يقتبس من أصول الشريعة ويراعى فيه قاعدة جلب المصالح ودرء المفاسد . وبغير هذا العمل لايملك المسلمون أساس حريتهم ، ولايسيرون في سبيل سعادتهم آمنين (٨) » !

فسيادة أحكام الشريعة في الأمة ، وهيمنتها وهيمنة فلسفتها بالمؤسسة القضائية الوطنية قسمة من قسمات « الاستقلال الحضاري » ، بدونها ستظل سيادة الأمة منقوصة ، وحريتها ناقصة ، حتى ولو حققت « الاستقلال السياسي » . فأصبح لها « علَمٌ » و « نشيد » !

مهمة الخلافة

ومن هذه « الزاوية النضالية » ، وبهذا « المنطق التحريري » أبصر الشيخ الخضر مهمة « الخلافة » الإسلامية ، ودورها التوحيدي للأمة ، ومردود هذا الدور وفعاليته في مواجهة التحديات التاريخية التي فرضها الاستعمار الغربي على عالم الاسلام .. « فالخلافة لا تزيد على ما يسمى دولة ، إلا أنها رابطة سياسية تجعل شعوباً مختلفي العناصر والقومية يولون وجوههم شطر رايتها بعاطفة من أنفسهم واختيارهم . ومن هذه الوجهة ينظر إليها بغاة الاستعمار بعين عابسة ، ويحاول الغرّ ، الذي ينخدع ببهرج آرائهم ، أن يطوي رايتها ويمحو أثرها (٩) » ؟! ..

لقد كانت الحصن الذي جمع المسلمين ، على امتداد تاريخهم الطويل ، في مواجهة الغزاة .. وحتى في لحظات ضعفها ومرضها ، كانت « الرمز » الذي ظل الاستعمار على عدائه له وسعيه لمحوه ، مخافة أن يتداركها التجديد والاصلاح فتعود حصناً للمسلمين ، يجمع وحدتهم ، ويحول بين الاستعمار وبين التهام أوطانهم واستنزاف ثرواتهم واحتلال عقلهم بفكرية التغريب ! ..

هكذا أدرك الشيخ الخضر خطر دعوى « علمانية الاسلام » على قضية القضايا بالنسبة للأمة .. قضية : رفضها لسلطان الأجنبي ، ونهوضها لانتزاع حريتها من الاستعمار .

وإذا كان كتاب [الإسلام وأصول الحكم] قد ذهب في تشويه صورة « الخلافة » الإسلامية ، تاريخيا ، الى حد الافتراء الذي جعلها قهراً مسلحاً واستبداداً بالأمر ، من دون الأمة ، باسم الله ! .. فإن كتاب الشيخ الخضر قد برىء من « رد الفعل » الذي يبيض وجه الخلافة دائما ، حتى ولو كان ذلك بالزور والبهتان ! .. بل إن الرجل لا يرغب في إدارة المعركة حول اسم النظام وعنوانه .. فالدولة الاسلامية هي المطلب .. وليست « الخلافة » هي الشكل الوحيد ولا الاسم المفرد لهذه الدولة الاسلامية .. وفارق بين أن ننتقد تراثنا في نظم الحكم لنقترب من مقاصد الاسلام

في «الدولة الاسلامية»، وبين أن يكون هذا النقد سبيلاً إلى التخلي عن شرط «أسلمة الدولة» وتجريد الاسلام من شرعه ومدخله في السياسة وتنظيم المجتمعات... «فلم يدع أحد قط أن صلاح شأن الرعية وصيانة شعائر الدين مربوطان باسم الخلافة، وأن لقب الخليفة كالرقية النافعة، يذهب بها كل بأس، أو الدعوة المستجابة، ينزل عندها كل خير، والذي نعلمه ويعلمه أشباه العامة من المسلمين أن الخلافة لاتريك آثارها وتمنحك ثمارها من منعة وعزة وعدالة إلا إذا سارت على سنة العزم في الأمور والحكمة في السياسة [١٠]».

وإذا كان العصر الحديث قد ألح ويلح على إعلاء مكانة الأمة في تسيير شئون الدولة والمجتمع، فليس هناك، في نهج الاسلام السياسي، ما يعارض هذا الاتجاه.. بل إن هذا هو نهج الاسلام الأصيل في هذا الباب «فالقوة المشروعة للخليفة لا تزيد على القوة التي يملكها رئيس دولة دستورية، وانتخابه في الواقع إنما كان لأجل مسمى وهو مدة إقامته قاعدة الشورى على وجهها، وبذله الجهد في حراسة حقوق الأمة، وعدم وقوفه في سبيل حريتها [١١]... وشكل بعض الحكومات القائمة على خليفة ووزراء ومجلس نيابي يجري انتخابه تحت ظلال الحرية التامة لايخالف الشكل الملائم للخلافة الحقيقية بحال [١٢]».. بل لقد ذهب الاسلام السياسي في شروط الخليفة إلى الحد الذي يجعل من دولته «الواقع» القريب من «مثال» «المدينة الفاضلة»!.. فلقد «قرر جمهور أهل العلم في شروط الخليفة أن يكون بالغاً في العلم رتبة الاجتهاد، وأن يكون ذا رأي وخبرة بتدبير الحرب والسلم، وأن يكون شجاعاً لا يرهب الموت الزؤام فما دونه، وأن يكون عادلاً لا تأخذه في الحق لومة لائم. وتعرف مزية العدل باختبار سيرته فيما كان يتولاه من أعمال قبل منصب الخلافة أو بما تدل عليه التجارب والمشاهدة الطويلة من استقامته وشرف همته وانـكـاره مـا يفعل الظـالمون بغيـرة وحماسة [١٣]»..

وليست صحيحة ولا دقيقة ولاصادقة تلك الصورة الشوهاء التي عممها صاحب [الاسلام وأصول الحكم] على مجمل نظام الخلافة الاسلامية عبر التاريخ الاسلامي.. «فلقد أتى عليها حين من الدهر وهي لا تنتضي حسامها ولا تلمع بإنذارها ووعيدها إلا في وجه عدو يتربص بالمؤمنين الدوائر، أو ثائر عصفت به ريح الأهواء وماله من أولي الألباب ولي ولا عاذر. وأدركها زمن بعدت فيه عن حقيقتها، فخلطت عملاً صالحا وآخر سيئاً، وربما كان إثمها في بعض الأحيان أكبر من نفعها [١٤]».. فالتعميم في تصوير الخلافة بصورة «القهر المستبد باسم الله» غريب عن المنهج العلمي في دراسة التاريخ..

أما الصورة العثمانية للخلافة، والتي

ليست صحيحة ولادقيقة تلك الصورة الشوهاء التي عممها علي عبد الرازق على مجمل نظام الخلافة عبر التاريخ الإسلامي

الإسلام السياسي حجة على الصورة العثمانية للخلافة وليس حجة في صالحها


الشيخ الخضر حسين

أتاحت لأعداء «الدولة الاسلامية» تشويه صورة الخلافة، باطلاق وتعميم، فإن الاسلام السياسي حجة عليها وعلى سلاطينها، وليست هي بالحجة على هذا الاسلام!.. «ولو أن المتأخرين من سلاطين آل عثمان أعطوا للخلافة شيئاً من حقوقها، وراعوا ما أمر الله به من وسائل استقامتها لما انفرط عقد هذه الممالك الاسلامية وأصبح كل قطعة منها تحت سلطة أجنبية تستبد عليها في حكمها وتتصرف في رقاب شعوبها وأموالهم كيف تشاء [١٥]».

لكن المرض لايبرر الاعدام.. والفساد لايستدعي اليأس من الاصلاح.. فإذا كانت الخلافة الاسلامية لا تعدو: «الدولة الاسلامية الجامعة»، «فليس إصلاح شأنها — [إذا فسد] — وإعادتها إلى سيرتها المثلى ممن يغارون على مصلحة الشرق واتحاد شعوبه ببعيد [١٦]»؟!..

هذا عن الخلافة في التاريخ..

محمد عمارة

هوامش

(١) الباب الثاني من الكتاب الثاني [ص ١٥٢ من طبعة الأصل].
(٢) الباب الثاني من الكتاب الثاني [ص ١٣٦، ١٣٧ من طبعة الأصل].
(٣) الباب الثاني من الكتاب الأول [ص ٣٤ من طبعة الأصل].
(٤) الباب الثاني من الكتاب الثاني [ص ١٤٦ من طبعة الأصل].
(٥) التوبة: ٨
(٦) الباب الأول من الكتاب الثالث [ص ٢٠٠ من طبعة الأصل].
(٧) العَنَق — بفتح العين والنون — هو السير السريع.
(٨) الباب الثالث من الكتاب الثالث [٢٤٣، ٢٤٤ من طبعة الأصل].
(٩) الباب الثالث من الكتاب الأول [ص ٨٧ من طبعة الأصل].
(١٠) الباب الثالث من الكتاب الأول [ص ٩٠ من طبعة الأصل].
(١١) الباب الأول من الكتاب الأول [ص ١٣ من طبعة الأصل].
(١٢) الباب الثالث من الكتاب الأول [ص ٨٤ من طبعة الأصل].
(١٣) الباب الثالث من الكتاب الأول [ص ٨٢ من طبعة الأصل].
(١٤) الباب الثالث من الكتاب الأول [ص ٦٤ من طبعة الأصل].
(١٥) الباب الثالث من الكتاب الأول [ص ٨٧ من طبعة الأصل].
(١٦) الباب الثالث من الكتاب الأول [ص ٦٤ من طبعة الأصل].



شاعر لاتكذبي وقضيته المعلقة



كامل الشناوي

بقلم : كمال النجمي

الأوساط الأدبية والفنية في القاهرة تتحدث الآن عن قضية تنظر فيها إحدى المحاكم المصرية . محورها الشاعر كامل الشناوي الذي ملأ الدنيا طوال حياته بأشعاره وأخباره وأسماره .. ولحن له الموسيقار محمد عبدالوهاب في أواخر الأربعينيات قصيدة « زعموا حبي ياقلب خطايا » .. ثم لحن له في الستينيات قصيدة « لا تكذبي » .. فكانت لها ضجة وكثرت حولها التساؤلات ، فقد تضمنت قصة أو حادثة واضحة المعالم ، كان ضحيتها كامل الشناوي نفسه ، ولكنه تحمل وطأة هذه الحادثة العاطفية بشجاعة ، وتفكر فيها بشيء من الفلسفة الرواقية : مستسلماً للأقدار ، كعادته في كل معاركه العاطفية التي خسرها جميعاً على امتداد حياته ..

في قصيدته « زعموا حبي يا قلب خطايا » .. كانت ملهمته معروفة بالاسم والرسم ، وكذلك كانت ملهمته الأخرى في « لا تكذبي » .. وبينهما عشرون عاماً ، وعشرون حادثة عاطفية ! ..

إلا أن « لا تكذبي » كانت القفص الذي حواه حياً وميتاً . في حياته صار لقبه « شاعر لا تكذبي » .. وحمل ديوانه الأول والأخير عنوان « لا تكذبي » .. وبعد موته بعشرين عاماً دخل قفص « محكمة الجنح » بنفس هذا الاسم أو اللقب ، مع أن « لا تكذبي » كانت مفتاح حريته من قصص الحب المتوالية العاثرة ، وبهذه القصيدة استطاع في أخريات حياته أن يسلو ويفطم قلبه الطفل عن ارتشاف قطرات الحب المر الذي أدمن عليه .. ولم ينظم بعدها شعراً في الحب إلا ما كان من التجميش البرئ العاجز في سهراته ونظراته وخطراته . ينظمها شعراً ، ليلة بعد ليلة ، من قلب خلي كان الحب همه الأكبر .. وانتهى بعد اليأس إلى السلوان وبرودة الذكريات !

كان كامل الشناوي نسيج وحده في تعامله مع الدنيا . كما كان نسيج وحده في شعره .. لم يشبهه أحد من زملائه وأصدقائه في حياته الساهرة الضاحكة الباكية . ولا نسج على منواله أحد من معاصريه في شعره الغارق في التعبيرات المجنحة المبتكرة ، والمصبوغ بصفرة المسْكنة والاسترحام في طلب الحب ، مع ادعاء الترفع والاستغناء ، كأنه « صاحب القلب المسكين » الذي أبدع في وصفه الأديب الكبير مصطفى صادق الرافعي في بعض مقالاته القصصية الرائعة .

إن صاحب القلب المسكين الذي كان دائم الحب ، دائم اليأس من الحب ، لا يسلو ولا يبلغ أملاً — كما وصفه الرافعي — هو بعينه كامل الشناوي ، لولا أن الرافعي كان يتحدث عن نفسه ، ويصف بلواه الشخصية ! ..

وفي مصر تنفطر قلوب كثير من الشعراء غماً وكمداً ، لما يلقونه من جحود الناس كباراً وصغاراً ، فإذا مات أحد هؤلاء الشعراء انبعث اسمه عالياً مدوياً كالرعد ، وأدهشت عبقريته — فجأة — كل الناس كأنهم يرون بعيونهم برقاً يلمع في سماء صافية ، وعرف من لم يكن يعرف فضل هذا الراحل العظيم ، فنعاه وبكاه واستمطر على جدثه السحاب ! ..

ولكن كامل الشناوي كان أحد القلائل الذين انتزعوا لأنفسهم شيئاً من الانصاف في حياتهم ، ففرض نفسه على المجتمع فرضاً ، فكان اسمه من فرط شهرته في حياته كأنه ضوء معلق في الفضاء ، يتخذه الناس رمزاً لأشياء كثيرة جميلة في الحياة: الحب والشعر والسعادة والفن والمرح والصداقة والموسيقى والغناء ! ..

رأيته أول مرة سنة ١٩٤٣ في مكتب أنطون الجميل باشا رئيس تحرير الأهرام .. وكانت هناك مطربة لبنانية جديدة انفجرت شهرتها حينذاك كالقنبلة ، ورشحها بعضهم خليفة لأم كلثوم ! ..

فلما نهضت الفتاة تغني ، راعني صوتها بسعة مساحته واكتماله جواباً وقراراً ، ولم يشغلني من أمرها إلا هذه المقاييس الفنية ، فلم يكن في الأمر ما يدعو إلى أكثر من ذلك .. ورأيت الباشا — وكان نبيلاً رقيقاً — يصغي إليها بحنو أبوي ، أما كامل الشناوي فكان يرتجف سعادة ، ويبكي طرباً فلما فرغت الفتاة من غنائها ، وقف فألقى بين يديها خطبة مرتجلة بليغة ، يثني فيها على غنائها وعلى شخصها أحر الثناء ، وتهدج صوته تأثراً ، وبرقت أساريره ، ولمعت عيناه ! ..

هذا الشاعر المتأجج العاطفة ، القريب الدمع ، كان قادراً عند الضرورة أن ينسى

وينتقل بقلبه إلى إلهام جديد ! .. وهو بين هذا وذاك منهمك في « المقامرة » بحياته ، وبما في يده ، بلا احتراس ولا مبالاة ولا شفقة على نفسه ! ..

كذلك كانت صورته في حياته ، فكان محور الأحاديث الدائمة في الأندية ، والأسمار الطريفة في الصحف .. حتى انطفأت ذات يوم من أواخر سنة ١٩٦٥ أضواء الساحة الكبيرة التي كان يلعب فيها كامل الشناوي أمام عيون الحشود الحاشدة ! ..

والآن .. بعد عشرين عاماً من رحيله ، فإن هذا الشاعر الذي بلغ في عصره منزلة الضوء المعلق والرمز المجرد من الكيان المادي ، لا تجد له أثراً إلا في ديوان صغير الحجم سماه ناشره « لا تكذبي » تمسحاً بالأغنية المشهورة ، ثم نشرته إحدى دور النشر باسم « ديوان كامل الشناوي » دون أن تضيف إليه شيئاً ذا بال ، مع أن له شعراً غير قليل متناثراً في صحف قديمة ، ولم ينشر في ديوانيه هذين ..

لقد عاش كامل الشناوي حياة ثرية لامعة وإن أثقلته المشكلات والأوجاع البدنية والنفسية ، ولم يكد يفارق الدنيا حتى خمد صليل السيوف من حوله ، كأنما كانت حياته حرباً طاحنة ثم وضعت أوزارها ، وأمسى أصدقاؤه يتساءلون عن آثاره .. أين هي ؟! .. فكأنهم يتساءلون عن آثار شاعر مغمور أو منكور لم يعرفه ملايين الناس يوماً ، ولا ترنم بشعره أم كلثوم وعبد الوهاب وعبدالحليم حافظ ونور الهدى ونجاة وفريد الأطرش وغيرهم ..

كان كامل الشناوي في حياته يملأ الاذاعة المصرية بصوته المتميز العميق ، ويتألق بقبحه الجميل على « الشاشة الصغيرة » .. ولو شاء لتألق أيضاً على الشاشة الكبيرة .. ناهيك بالألق الخاطف للأبصار في الصحف وفي الأندية وفي قمة مجالس الترف وذروة الهرم الاجتماعي ! ..

والآن يقال : هذا شاعر تخطاه الزمن شعراً وفكراً .. كان في الشعر آخر الرومانسيين على الطريقة العربية العباسية ، آخذاً بلمحات من رومانسية القرن التاسع عشر الأوربية ورومانسية مصر في الثلاثينيات من القرن العشرين ! .. وقد أراد أن يجدد على طريقة شعراء التفعيلة حين ارتفعت راياتهم قبل عشرين عاماً ، فتنازل عن البحور والقوافي تنازلاً صورياً لكي يدخل في زمرة هؤلاء المجددين ، بغير تجديد على غرارهم ! ..

ولكن أحداً لم ينكر خلال حياة هذا الشاعر أنه استطاع بحيويته الجذابة أن يجعل أشعاره وخواطره وسوانحه وأشتات أفكاره ، تملأ « عموم » الآفاق المصرية والعربية ، وبخاصة القاهرة .. وصار تذوق الشعر مطلباً من مطالب عامة الناس في أيامه ، وكان من قبل مطلباً للخاصة من المثقفين .. ولو لم يكن لكامل الشناوي في شعره إلا هذه المأثرة لرجح بها ميزانه ، فكيف وله معها مأثرة الصدق في التعبير عن عصره ومجتمعه ومرحلته الاجتماعية والسياسية والفكرية التي كان يتحرك على اتساع أجوائها وملابساتها المعقدة المتباينة .. ولهذا استمع إلى شعره ملايين الناس وتعلقوا بقائله الذي انشدهم فأطربهم ، وبكى بين أيديهم ، ورقص تحت أنظارهم ، وأقام لهم من هذا الشعر مبنى تغمره الأضواء ، يختلط فيه فن المسرح بفن الرقص .. بفن السيرك ! ..

ومع هذا يمكن أن يقال — مع الأسف — إن كامل الشناوي الذي كان شديد التألق في حياته ، أمسى وقد طويت صفحته ، وجفت أقلامه ، على غير ما جرت به عادة مواطنينا الكرام من السخاء في التنويه بأمثاله بعد موتهم ، والمباهاة بأسمائهم وأعمالهم ..

لم يتبق منه إلا الذكريات ..

في بيته بجاردن سيتي بالقاهرة — وكان حياً جميلاً هادئاً في الماضي — جلست إليه قبل رحيله عن الدنيا بأشهر قلائل .

كان قد غادر المستشفى متماثلاً للشفاء بعد إحدى نكساته الصحية الخطيرة الكثيرة .. ولم يبق من جسده الضخم إلا آثار البدانة التي أذابها الداء ، فبدا كأنه أخ شقيق للمهاتما غاندي ، أشهر المهازيل في العالم قديماً وحديثاً ..

وكان في تلك الأيام الأخيرة من حياته قد استقرت نفسه ، كأنها طابت ورضيت ووجدت برد الرضى وراحته بعد طول حل وترحال مع العذاب ..

وانفضت من حول الشاعر المريض أساطير الرواة الذين صوروه كأنه كازانوفادون جوان وعمر بن أبي ربيعة وأبو نواس والخيام وبقية العشاق والفتاك من أرباب السيف وأرباب القلم الذين امتلأت كتب الشرق والغرب بأقاصيصهم ..

ولم يبق له من ماضيه في الحب إلا العقابيل التي لا يستطيع محوها ، والذكريات .. يستدفىء على نارها الهادئة .. والاستمتاع الوجداني المحض الذي تعنيه مشاهد ملامح جميلة على « شاشة التليفزيون » القائم قرب « الكنبة » التي تربع فوقها هانئاً بفنجانة القهوة « السادة » مع السيجارة ، مع أن أوامر الأطباء حرمت عليه السيجارة والقهوة ! ..

وتمزقت الصلات بينه وبين مرح الحياة ، إلا بالفكر والتأمل والخيال والكون .. والنهاية الحتمية ، وقبض الريح ..

فإذا أبعد عن ناظريه بعض الوقت هذا المشهد الذي يزيده المرض رهبة في نفسه ، جلس مع أحد الناس كأنه يحتمي به ، ويستشفي من داء بداء ، على حد تعبير المتنبي ! ..

وقد تمر بخاطره هذه أو تلك ممن حكم عليه الزمن بالسلو عنهن وتحطيم صورتهن القديمة ، فيتذكر قوله في قصيدته « الخطايا » :

حَطَّمَتْنِي مثلما حطمتُهَا
فهي مني وأنا منها شظايا

وهو قول ينطبق على دنياه كلها لا على حبائبه اللاتي نفض منهن عواطفه وقنع من رحلته معهن بالإياب بعد العذاب ! ..

ولعله الآن ، وقد تحرر من هذه المشاهد كلها إلى الأبد ، يطل على قصته « الجديدة » التي تدور وراء قفص إحدى محاكم القاهرة ، ساخراً مما يدور ، غير عابئ بأن يعود الناس فيتذكروه ، لأنه لم يكن يخشى طوال حياته أن ينساه الناس ويستغنوا عنه بعد موته ، فالنسيان غاية كل حي ، وسيشبع الأحياء والموتى نسياناً ، بعضهم لبعض ! ..

وحتى القلائل من الشعراء الذين يضج الناس بذكرهم بعد موتهم ، لايلبث نسيان الأحياء لهم أن يهيل عليهم ترابه ! ..

غير أن كامل الشناوى عاد فجأة بطريقة تشبه السحر ، وتردد اسمه فى الصحف من جديد .. وصار « قضية » معروضة على المحاكم ، وكان قد فارق الدنيا وقضاياه فى الشعر والحب معلقة بدون حكم ، مع كثرة أوراقها وتضخم ملفاتها ! ..

ولكن حَسْبه أنه نفض يديه من كل شىء .. وبقى بعده شعره الذى يقول :

أين يأسى ؟ .. لقد مضى
ومضت مثله المنى
كل ماكان .. لم يكن
وأنا لم أعد أنا ..

وقصيدة « النسيان » التى مطلعها :

آه من دورة الزمان دهتنى
ورمتنى فى غمرة النسيان

والشاعر يقهر النسيان بورقة واحدة من شعره ، مابقيت أمته تتكلم اللغة التى نظم بها شعره ، ولكن ماذا يصنع الشاعر إذا نسيت أمته لغتها ؟ ! .. هذه قضية كل شاعر عربى ! ..



قضية عنصرية طريفة ، تتفاعل حاليا في الكيان الصهيوني ، هي قضية اليهود السود أو جماعة « العبرانيين السود » ، التي تكشف عن الوجه العنصري القبيح لاسرائيل ، فقد قامت السلطات الاسرائيلية في نيسان (أبريل) الماضي ، باعتقال ٤٦ شخصاً من أبناء هذه الطائفة الصغيرة ، وهددت بترحيلهم الى الولايات المتحدة التي قدموا منها ، فيما هدد زعيم الطائفة « بن عمي كارتر » أو « بن عمي يسرائيل » ، بالرد بعنف على محاولة ترحيل أبناء طائفته « والنضال حتى النهاية » .



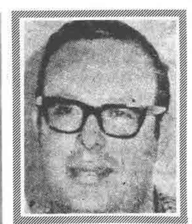
لكن من هم هؤلاء اليهود السود أو العبرانيون السود ؟؟

كانت المرة الأولى التي اهتم فيها العالم الخارجي بقضية اليهود السود ، في عام ١٩٧٢ ، حين إتهم زنوج اميركيون يطلقون على أنفسهم ، اسم اليهود السود ، اسرائيل بأنها دولة عنصرية ، تماما كدولة جنوب افريقيا العنصرية ، فقد عقد تسعة من قادة الطائفة ، مؤتمراً صحفياً في القطاع الغربي من مدينة القدس المحتلة . قالوا فيه إن المسؤولين الاسرائيليين ودوائر الحاخامية ، رفضت إعطاءهم حقوقا مساوية للاسرائيليين سواء في مجال العمل أو في مجالي الخدمات التعليمية والسكن ، وذلك بسبب كونهم غير يهود . وقد أعلن زعيم الجماعة « بن عمي يسرائيل » ، ان السلطات الاسرائيلية ، تمارس « عنصرية منهجية » ضد اليهود السود ، وقال إن حوالي ألف زنجي وصلوا الى « اسرائيل » في عام ١٩٦٩ ، لكنهم قوبلوا بعنصرية الاسرائيليين التي باتت لاتحتمل ، ومضى قائلاً : « إنهم يعطون شعبنا بيوتاً هي عبارة عن ملاجيء ضد القنابل ، كما أن خمسين بالمئة من أطفالنا ، لايُسمح لهم بدخول المدارس ، إضافة الى أن السلطات لاتقدم لنا أعمالاً أو وظائف . » واشار بن عمي يسرائيل (أو كارتر) ، الى أن طائفة العبرانيين السود ، قررت اتخاذ خطوات في المجال الصحفي ، كما انها تدرس فكرة تقديم التماسات الى الأمم المتحدة . »

وقد نشرت صحيفة « عال همشمار » مؤخراً ، مقالاً عن هذه الطائفة ، يُعَرِّف بها ويتحدث عن تعاليمها وأفكارها ، وأوضاعها القانونية والمعيشية ، وموقف الحكومة والرأي العام الاسرائيلي منها .

وجاء في ذلك المقال ، أن أفراد هذه الطائفة يعيشون في جنوب فلسطين المحتلة ، في « ديمونا ، متسبيه ريشون ، عراد ويروحام » ، ويبلغ عددهم حوالى ألفي نسمة ، جميعهم بالطبع من السود ، وقد هاجروا من الولايات المتحدة الاميركية الى « اسرائيل » ، في ثلاث موجات ، ابتداء من عام ١٩٦٩ ، وقد نشأت هذه الطائفة في الستينيات في الولايات المتحدة ، اثناء ازدهار موجة البحث عن الجذور ، وهي الموجة التي اجتاحت الزنوج الأميركيين في تلك الفترة ، وكانت رسالة زعيمهم « بن عمي كارتر » لأتباعه بسيطة وموجزة : أنتم أبناء اسرائيل الحقيقيون ، ومكانكم في أرض اسرائيل » .

ويعيش أفراد هذه الطائفة ، على حوافي المدن والقرى الأربع المذكوره آنفاً ، في أكواخ بائسة من التنك ، ويعملون في « الخدمات السوداء » المنهكة ذات الأجر البخس ، وهم معزولون اجتماعيا عن جيرانهم البيض ، وغالباً ماتتسبب الخلافات الناشئة بين الطرفين في اندلاع مشاجرات تستدعي تدخل الشرطة لفضّها ، يضاف الى ذلك أن « العبرانيين السود » ، لا يأكلون سوى الأطعمة النباتية ، ويتمسكون بمعتقدات تسمح بتعدد الزوجات ، ونساؤهم يضعن أطفالهن بالوسائل الطبيعية ، في حين يقف حِبْر الطائفة بالباب ، يرتّل أجزاء من التوراة ، لكن هؤلاء الأطفال لايسمح لهم فيما بعد ، بالالتحاق بالمدارس العامة ، على الرغم من كونهم من مواليد « اسرائيل » .



دافيد غلاس

■ "اليهود السود" لايعترفون بإسرائيل ولا بوجود يهود غيرهم في هذا العالم!



بن عمي يسرائيل زعيم طائفة اليهود السود

وتتهم وزارة الداخلية الاسرائيلية اليهود السود ، بالتكتم على المواليد الجدد داخل الطائفة ، وبدفن موتاهم سرا خلال الليل ، وتقول إنهم يرفضون شغل الوظائف ، ويفضلون العيش من ريع الأشغال اليدوية ، كما انهم متقوقعون تماماً على أنفسهم ، وقد أقاموا « دولة داخل الدولة » ، وهم يتجاهلون القوانين الاسرائيلية تماما .

أما بالنسبة للحاخامية ، فإن سلطاتها ، رفضت منذ البداية ، الاعتراف ب « الزنوج العبريين » كيهود ، تماما مثلما رفضت السلطات المدنية ، منحهم الجنسية الاسرائيلية ، وهم موجودون في الكيان الصهيوني حاليا ، بدون مستندات إقامة شرعية ، بعد أن دخلوا عبر مطار اللد ، بتأشيرات دخول سياحية أصبحت منتهية منذ اكثر من سبعة عشر عاما ، ولم تُبْدِ السلطات الاسرائيلية ، إشارة تذكر على تغيير موقفها ، وقال متحدث باسم وزارة الداخلية : « لايمكن لأشخاص بخلاف الاسرائيليين ، البقاء في اسرائيل الى أجل غير محدّد ، فهذه سياستنا ، ونعتزم تنفيذها » .

دعوة للابادة !!

ان أعجب مافي قضية اليهود السود ، هو الوجه العنصري للصهيونية ، حيث قامت الحركة الصهيونية على أساس فكرة جمع اليهود في « فلسطين الكبرى أو اسرائيل الكبرى الممتدة من الفرات الى النيل » ، باعتبار أن ذلك يمثل الحلّ السليم والوحيد لما كان يسمى في أوروبا « المسألة اليهودية » ، وقد أقيم الكيان الصهيوني بالعنف والارهاب في فلسطين المغتصبة ، لكي يكون هذا الكيان ، المكان الذي يجتمع فيه « يهود الشتات » من كل لون وأرض ، لانهاء أسطورة اليهودي التائه والمشرد والمضطهد كما تزعم الصهيونية ، لكن .. هاهم اليهود البيض يضطهدون اليهود السود في الكيان الصهيوني نفسه ، والزنوج العبرانيون ليسوا الوحيدين الذين يلقون هذا الاضطهاد والتمييز العنصري ، بسبب لونهم وأصلهم العرقي ، فهناك أيضا اضطهاد اليهود الغربيين (الأشكناز) لليهود الشرقيين (السفارديم أو يهود البلاد العربية) .

ولعل من غرائب ماتطرح الصهيونية من حلول لقضية اليهود السود ، حلّ الابادة الجماعية ، وهو الحل نفسه الذي استغلته الصهيونية ، لاثارة الرأي العام الغربي ، من أجل دعم إقامة الكيان الصهيوني على أرض فلسطين العربية ، ولعل الأمر الأكثر غرابة في هذا الحل ، وروده على لسان لجنة صهيونية خاصة ، تشكلت من أجل دراسة أنجع الحلول الممكنة لهذه القضية ، خاصة بعد ابعاد ثمانية من قادة اليهود السود الى الولايات المتحدة ، في أعقاب رفض المحكمة العليا الاسرائيلية الاعتراف بيهودية هؤلاء اليهود !!

وكان أبرز الداعين لحل الابادة الجماعية ، رئيس اللجنة الخاصة نفسه « دافيد غلاس » ، ففي ٤ آب (أغسطس) ١٩٧٨ ، انتهت اللجنة من وضع توصياتها ، ورفعتها الى وزارة الداخلية ، وقد جاءت هذه التوصيات ضمن تقرير شامل استند في مادته الى لقاءات مع عينات وأوساط يهودية مختلفة من البيض والسود واليهود الشرقيين (السمر) ، وأرفقت بالتقرير ملاحق كان الجزء الاكبر منها سرياً ، وبين الأمور التي كشف التقرير عنها ، ان جماعة اليهود السود تحكمها مجموعة من القادة أبرزهم « بن عمي يسرائيل » ، وان المجموعة تشكل في مستوطناتها الاربع المتجاورة بصحراء النقب ، مجتمعاً متماسكاً ومتميزاً .

بداية القصة

يقول التقرير : إن مسألة يهودية العبرانيين السود ، مسألة مهمة جداً « لقضية اسرائيل » ، لأن أبناء هذه الجماعة طلبوا من « اسرائيل » الاعتراف بهم كيهود بكل معنى الكلمة ، وتطبيق أحكام « قانون العودة » عليهم ، وكل ماسيتبع ذلك بالنسبة لاقامتهم في « إسرائيل » . ومضى التقرير قائلاً : انه في نهاية عام ١٩٧٢ ، تقدمت مجموعة مؤلفة من ثمانية عبرانيين سود ، صدر بحقهم قرار طرد ، بشكوى الى المحكمة العليا ، طالبوا فيها بمنحهم تصاريح مهاجرين الى « اسرائيل » ، طبقاً « لقانون العودة » ، ويحدد ذلك القانون ،

قضية عنصرية مثيرة تشتعل في الكيان الصهيوني

خاصة في أعقاب التعديل الذي أدخل عليه في عام ١٩٧٠ ، يحدد اليهودي الذي يحق له الاستفادة من ذلك القانون ، بالقول إنه مَنْ وُلد لأمّ يهودية ، أو الذي تهوّد ولم يعد يتبع سوى الديانة اليهودية .

ومع ذلك ، فقد رفضت المحكمة العليا الاعتراف بيهودية أبناء تلك المجموعة ، وقد ورد في قرار المحكمة وبصورة قاطعة ، أن المستأنفين لقرار الابعاد ، لاتتوافر لديهم الشروط المطلوبة ، وهي أن تكون أمهم يهودية ، أو تهودوا في وقت سابق ، وأكثر من ذلك فإن التقرير أشار الى الشكوك التي تنتاب أعضاء اللجنة حول يهودية اليهود السود ، وقد جاء قرار المحكمة العليا ، نسخة طبق الأصل عن تقرير اللجنة الخاصة ، حيث أشار الى أن المحكمة لاتعترف بيهودية هؤلاء ، لافتقارهم الى مايسند دعواهم بأنهم يهود .

البحث عن اليهودية

ونعود الى تقرير اللجنة ، فقد قال التقرير في وصف حالة هؤلاء ، إن الأرضية التي أوجدت العبرانيين السود ، هي أزمة الهوية والبحث عن طريق بين الشريحة الملوّنة في الولايات المتحدة الاميركية ، وهو البحث الذي تزايد في نهاية القرن العشرين ، فعلى ضوء أوضاعهم الاقتصادية السيئة ، وانخفاض مستواهم الاجتماعي والثقافي ، ثم التمييز العنصري الذي عانوا منه ، أخذ الجزء الأكبر منهم ، يبحث عن ملجأ بين الجماعات الطائفية على اختلافها .

وأضاف التقرير : ان العبرانيين السود ، يدّعون أنهم اليهود الحقيقيون وهم يتبعون الأسباط العبرانية القديمة المنقرضة ، كما انهم يمثلون آخر يهود العالم ، منذ أن تاهوا في أفريقيا الغربية ، حيث اختطفوا وبيعوا هناك في سوق العبيد ، للاميركيين البيض ، وهم يقولون إن اليهود الحاليين ليسوا من أبناء الأسباط اليهودية القديمة ، وإنما خليط من شعوب أوروبية مختلفة .

قيادة الجماعة

تخضع جماعة اليهود لادارة مؤلفة من ١٢ أميراً أي بعدد الأسباط اليهودية التي ورد ذكرها في التوراة ، لكن قيادتهم الحالية لاتضم سوى عشرة من القادة ، رئيسهم « بن عمي يسرائيل » بيْد أن تقرير اللجنة الخاصة ، يشير الى أن الانطباع الأولي الذي قد يفهمه الآخرون خارج إطار الجماعة ، هو أن هذه الطائفة ، انما يديرها مجلس الامراء ، وهو استنتاج خاطىء ، إذ أن بن عمي يسرائيل هو القائد الحقيقي والوحيد ، حيث يفرض على الجماعة مايريد ، وبقرار منه ، يتم تنفيذ كل شيء مهما كان صغيراً أو كبيراً ، وقد تأكدت اللجنة من ذلك خلال وجودها في مستوطنتيْ متسبيه ريشون وعراد ، وكذلك خلال اجتماعات عقدتها مع قادة الجماعة في ديمونا والقدس ، ويشير التقرير الى أن اليهود السود يطيعون قادتهم طاعة عمياء ، وعندما تنشب خلافات في الرأي ، ترفع المسألة الى محكمة داخلية ، ولا ترفع الى المحاكم الاسرائيلية بأي شكل من الأشكال ، وذلك من أجل تفويت الفرصة على السلطات الاسرائيلية ، لاتخاذ أي إجراء ، يستهدف إبعاد أبناء الطائفة من « اسرائيل » بذريعة هذه الخلافات .

الظروف المعيشية

يقول التقرير أيضا : إنه بسبب حالة الجماعة الخاصة ، وتزايد عدد أفرادها ، بسبب التكاثر الطبيعي ، الناجم أصلاً عن قدوم مئات النساء اللواتي وصلن الى « اسرائيل » بطرق غير شرعية خلال السنوات الاخيرة من العقد الماضي (اواخر السبعينيات) ، فان اليهود السود يعيشون حالة سكن خانقة ، ويقيم أكثر من عشرين نسمة في شقق لاتزيد مساحة الواحدة منها ، عن ٦٤ متراً مربعاً ، وأحيانا في بيوت أصغر حجماً من ذلك ، (٤٢ متراً مربعاً) ، وتلك الظروف الحياتية القاسية ، لاشبيه لها في « اسرائيل » ولا في الولايات المتحدة ، وفي رأي اللجنة الخاصة فإن تلك الظروف الحياتية القاسية ، تعتبر العامل الأول الذي أدى الى الاحتكاكات اليومية بين أفراد طائفة العبريين السود وجيرانهم من اليهود البيض ، ومع أن اللجنة تقول في تقريرها إنها تحمل الحكومة الاسرائيلية ، المسؤولية عن المشاكل التي رافقت وجود تلك الجماعة في « اسرائيل » ، الا أنها تشير أيضا الى أن أبناء طائفة الزنوج العبريين مايزالون يعتقدون بأنهم أسياد « اسرائيل » الحقيقيون ، ولذلك فإن أجهزة الأمن مضطرة لفرض رقابة مشددة عليهم وبصورة دائمة ، وذلك خوفاً من « اتصالهم بجهات معادية للدولة ! » .

■ لجنة إسرائيلية خاصة توصي باعتماد حل الإبادة الجماعية لليهود الزنوج

حملة اعلامية

وبعد أن سدّت السلطات الاسرائيلية أبواب الرزق في وجوه اليهود العبرانيين ، وحاصرتهم في أماكن سكنهم ، امتلأ هؤلاء كراهية وعداء لمحيطهم اليهودي ، واثر ذلك قام قادتهم ، وعلى رأسهم بن عمي يسرائيل وَشليح بن يهودا ، بحملة اعلامية ضد « اسرائيل » ومؤسساتها ، ويشير تقرير اللجنة الخاصة الى أن هذه الحملة تصاعدت مؤخرا ، بسبب تفاقم المشاكل المعيشية والمعاناة الحياتية اليومية ، وكانت تلك الدعاية متعددة الأوجه ، خاصة عبر وسائل الاعلام الاميركية ، وعبر التوجه الى شخصيات دولية معروفة بدفاعها عن الحقوق الانسانية . ومن الأمثلة البارزة على حملة الدعاية التي شنها قادة اليهود السود تلك الرسالة التي بعث بها « شليح بن يهودا » ـ الزعيم رقم ٢ في المجموعة ، في عام ١٩٧٨ ، الى الرئيس الاوغندي الأسبق « عيدي أمين » ، حيث جاء في تلك الرسالة : « إن الخرق الحقيقي لحقوق الانسان في العالم ، ليس قائماً سوى على يد السلطات الاسرائيلية ضد اليهود السود » وقد اختتم بن يهودا رسالته تلك بقوله : « متى ستنتهي الأعمال الوحشية ضد العبرانيين



اليهود السود في مستوطنة ديمونا

السود ؟ » .

لكن .. ماذا قالت اللجنة الخاصة في توصياتها بالنسبة للحل الممكن لقضية اليهود السود ؟

جاء في تقرير اللجنة بهذا الصدد ، أن الخطأ الاكبر ، انما وقع لأن الكنيست لم يتخذ أي إجراء لاغلاق الطريق أمام هؤلاء الناس ، واقتلاع جذورهم من الأساس . ومنذ كانون الأول (ديسمبر) ١٩٦٩ ، عندما دخلت أول مجموعة من العبرانيين السود الى « اسرائيل » .

اما الخيارات الحالية ، كما تراها اللجنة فهي ثلاثة : التعايش مع الوضع الراهن — طردهم من « اسرائيل » — أو ابقاؤهم ومحاولة دمجهم ضمن أضيق الأطر — اي اسقاط صفة المهاجرين غير الشرعيين عنهم ، حتى يتمكنوا من العيش بصفة شرعية ، لكن هذا الحل الاخير ، لايجوز ان يعني كما تقول اللجنة في تقريرها ، استيعاب اليهود السود ضمن تجمعات سكانية يهودية (بيضاء) ، بل يعني اقامة مستوطنة خاصة لهم بجنوب فلسطين المحتلة (بصحراء النقب) ، لايحتكون فيها مع محيطهم اليهودي ، وعلى ان يتعاشوا من اعمال خاصة بهم . إلا أن اللجنة أوصت مع ذلك ، بالحذر الشديد في حال اعتماد هذا الحل ، وطالبت بضرورة وضع حدّ لتزايد أعداد الطائفة ، عن طريق تعهد قادة الطائفة بعدم ضمّ أشخاص جدد الى جماعتهم .

ونواب يطالبون بابعادهم

في الواقع لم تكن اللجنة الخاصة بقضية اليهود السود ، التي شكلها وزير الداخلية الأسبق يوسف بورغ الوحيدة بأعضائها ، التي طالبت بتطبيق هذه الحلول المأساوية ضد طائفة اليهود العبرانيين ، وانما هناك رسميون آخرون ، رفعوا أصواتهم كذلك منادين بابعاد أفراد هذه الطائفة جميعا عن مجتمعهم « اليهودي الابيض » ، وكان بين هؤلاء النائب في الكنيست « دوف شيلانسكي » الذي اطلق نعوتاً مهينة ضد اليهود السود ، واعلن عن رفضه للوسائل السلمية المقترحة لانهاء قضيتهم .

وفي رأي شيلانسكي هذا ، ان « اسرائيل » بسكوتها على بقاء اليهود السود ضمن « المجتمع الاسرائيلي » ، انما تعمل على تنمية وخلق منظمة تحرير فلسطينية جديدة !! ... حيث ان اليهود السود هم في واقع الحال برأيه ، أعداء من الدرجة الأولى لاسرائيل .

ويقول شيلانسكي ، ان هذه الجماعة ، تدعي انها هي الطائفة اليهودية الحقيقية ، وان الاسرائيليين او اليهود خارج « اسرائيل » ، انما هم يهود مزيفون ، وانهم بالتالي جاؤوا الى « أرض الميعاد » وسرقوا الأرض منهم (أي من اليهود السود) .. ومن الطريف أن شيلانسكي يشير الى أن هذه الجماعة ، تبث في دعايتها في الولايات المتحدة شعارات ضد الاسرائيليين ، مثل « انها لخسارة فادحة ، لأن هتلر لم يكمل تنفيذ المهمة — اي إبادة اليهود بشكل جماعي » . وفي رأي شيلانسكي ايضا ، أن تعداد طائفة اليهود السود هذه في « اسرائيل » ، يصل الى حوالي خمسة آلاف نسمة ، وليس الفين فقط كما تقول المصادر الاسرائيلية الرسمية ، ويضيف ان أبناء هذه الطائفة يخططون منذ الآن ، لاقامة قاعدة تصلح لانشاء ادارة ذاتية خاصة بهم ، مثل اقامة جهاز قضائي خاص .

ويحذر شيلانسكي كذلك من الخطر الخارجي الذي يمثله اليهود السود بالنسبة لاسرائيل ، حيث يعمل هؤلاء على مستوى دولي — على حدّ تعبيره — ولهم مراكز خارج الولايات المتحدة ، مثل غانا وليبيريا ، ويدعو شيلانسكي الى مايسميه بالشجاعة المستمدة من الشارع العريض في اسرائيل ، واللجوء الى حل جذري لمشكلة هؤلاء ، ويتلخص هذا الحل ، في وضع اليهود العبرانيين فوق سفينة ، واعادتهم الى الولايات المتحدة وطنهم الاصلي ، وعدم الاكتفاء بطردهم على دفعات ، كما هو الحال في الوقت الراهن ، حيث يجري طرد عشرين شخصاً أو أكثر كل عام .

ويحذر شيلانسكي أيضا من أن اليهود السود ، يشكلون كارثة تنتظر « إسرائيل » في المستقبل ، اذا لم تُحل قضيتهم بابعادهم وطردهم نهائيا ، ويقول انه مالم تبادر « اسرائيل » الى اتخاذ هذا الحل « فسوف يشتمنا اولادنا واحفادنا ، عندما يضطرون لحمل السلاح وتوجيهه ضد السلاح الذي سيحمله هؤلاء العبرانيون السود » .

الموقف العربي الضائع

ازاء قضية اليهود السود المشتعلة في الكيان الصهيوني هذه الأيام ، يبقى أن نسأل عن الموقف العربي ازاء هذه القضية ؟ ونحن نبحث عنه بكل الوسائل البصرية والسمعية المتاحة بما فيها « النواظير المكبرة » .. فلا نجده مع الاسف ..

فهذه القضية ، هي خير برهان على الروح والممارسات العنصرية « لاسرائيل » والصهيونية ، وهي قضية يجب ان تدخل مادة اساسية في الاعلام العربي ضد الكيان الصهيوني ، خاصة لدى الأفارقة ودول العالم الثالث ، وضمن دعاية وحملات اعلامية مركزة موجهة الى اليهود الشرقيين في هذا الكيان ، والذين يواجهون نفس الممارسات العنصرية ، بل ماهو أعتى منها ... هذا فضلاً عن أن المخاوف الاسرائيلية ، وعلامات الشك والحذر الواردة في تقرير اللجنة الخاصة باليهود السود ، هي اشارات واضحة ، على ان العنصريين الصهاينة ، أصبحوا قلقين من احتمال انقلاب اليهود السود ، الى بؤرة معادية للكيان الصهيوني ، ويحتمل ان ينهض اليهود السود لحمل السلاح والقتال ضد اليهود العنصريين الى جانب العرب ، اذا انقلبت الأوضاع ، وغلبت كفة العرب في أية حرب قادمة . لكن السؤال الذي يبقى أمام ذاكرة المواطن العربي ويطرق أبوابها بعنف ، هو لماذا لايستغل العرب هذا الشرخ الجديد في الكيان الصهيوني ، سواء على صعيد تركيبة هذا الكيان الفسيفسائية الهشة ، أو على صعيد الاعلام الخارجي ؟

عصام شريح

النشوة في نوفمبر



قصة جديدة بقلم الكاتب الكبير

نجيب محفوظ

لدى خروجه من مملكة النوم الغامضة تلقى وحدته . أمس والآن وربما غداً. بللورة الوعي المتثائب . وطاف حنينه بأجواء غريبة حبيبة ، الولد في بلجيكا والبنت في سنغافورة ورفيقة العمر تحت الثرى . لكنه يستقبل الصباح الباكر بارتياح وبشر. نوفمبر ذو برودة حانية . يغادر الفراش ، يتناول الروب من فوق المشجب ويلتف به ، ثم يذهب إلى حجرة السفرة ليجد الشاي والجبن والشهد والتوست المحمص في انتظاره على أحسن صورة.

عبده عجوز نشيط رغم طعونه في السن . وهو سعيد حقاً بالجبن والعسل . الجبن الدمياطي الأبيض والعسل البائح بشذا البرتقال . يحب منظر ابريق الشاي الفضي وأوعية اللبن والسكر والأطباق الصغيرة المزخرفة . ويركب طاقم أسنانه ويقبل على الإفطار بشهية . لم يعد يضيق بالوحدة كما تعود على الحياة بعد السبعين . صحة لا بأس بها ، بوسعها أن تهنأ بالهدية إذا جادت بها السماء على غير انتظار . هدية جميلة حقاً قلبت موازين الزمن . وشحنت الدقائق والساعات بالوعود المسكرة . وعندما ارتدى ملابسه بدا في بدلته الصوفية نحيلاً طويلاً ، أبيض الرأس والشارب ، خفيف التجاعيد . ووجد الشارع أمام العمارة مغسولاً متألقاً ، ترى هل أمطرت بعذوبة في الليل ؟ وانبسطت السماء بين هامات العمائر تسبح فيها السحب البيضاء في زرقة عميقة صافية . انشرح صدره وتحفز للهو رغم موعد الطبيب المضروب . وطبيبه أيضاً على المعاش ويستقبل مرضاه خلال ساعتين أو ثلاث في نصف النهار الأول . وبسبب من بعض الأمراض المزمنة ــ القلب مثلاً ــ تنشأ صداقة بين المريض والطبيب على مدى الزمن . تصافحا ، جلس أمام مكتبه الحافل بالمراجع وقوارير العينات حتى تساءل الطبيب :

ــ خير؟

ــ وجبت الزيارة بعد غياب أشهر..

وخلع جاكتته ومضى إلى الفراش وراء البرافان ، ففك حزام البنطلون ، واستلقى على ظهره . وفحصه الرجل بعناية مستعيناً بأصابعه المدربة ومقياس القلب والضغط . وفي أثناء ذلك جعل يعلق على الأحداث السياسية المثيرة ، فضحك الرجل الراقد وتساءل :

ــ حتى متى يحل لأمثالنا الكلام في السياسة ؟

فأجابه الطبيب وهو لا يكف عن الفحص :

ــ حتى تختل الذاكرة فتعفينا من قرفها ، كيف حال ذاكرتك ؟

ــ نحمده ، ولكنها فقدت مزايا لا يستهان بها .

ــ على فكرة ، الدواء الذي تواظب عليه ينفع أيضاً للذاكرة .

وارتدى ملابسه وعاد إلى مجلسه الأول أمام المكتب وأخرج من جيب الجاكتة الصغير مشطاً فسوى به شعره الأبيض الذي تشعث . وقال الطبيب :





النشوة في نوفمبر

ـ بصفة عامة الحالة طيبة لا تغيير في الدواء ولا إضافة . وعليك بتجنب الانفعال ..

ـ نصيحة ثمينة ومستحيلة

ـ لا أعني الانفعال وحده !

ـ أفندم ؟

ابتسم الطبيب ابتسامة ذات مغزى وقال :

ـ أنت تزعم أنك ما زلت قادراً على الحب ؟

ـ ولكني عجوز أرمل !

ـ عظيم واظب على ذلك ..

فهز رأسه موافقاً أو متظاهراً بذلك فقال الطبيب ضاحكاً :

ـ صحتك أحسن من صحتي

غادر العيادة مطمئناً . وقال لنفسه إن نشوة رقيقة خير من حياة عامين بلا نشوة . وابتسم داخله . أحمق أم حكيم ؟ . رب أحمق حكيم ورب حكيم أحمق . من يرفض هدية سقطت من السماء سهواً ؟ وحام خياله وهو في السيارة حول التجربة الجديدة . تلك الجارة المحترمة . في الأربعين أو جاوزتها بقليل ، غاية في النضج والجاذبية . كيف ولماذا أثار اهتمامها ؟ لن يجد عند المنطق جواباً ولكنه اهتمام مذهل فلم يستطع أن يقاومه . يقاومه ؟ هوى من حصنه دون أدنى مقاومة . وهبته نشوة فاقت جميع انتصارات الحياة . ذاق انتصارات المناصب والثراء والزواج الأرستقراطي الموفق والبنوة الفريدة ، هذا الانتصار يفوق سابقيه جميعاً . ولعله لم يفقد حسن ادراكه فهو يشعر بأنه لا يحب . انه لا يحب كما أحب في الماضي البعيد . ما هو إلا تعلق بأهداب الحياة . آخر نظرة للشمس قبل الغروب . وهل نسي أنه نبذ فرصة متاحة وهو في الخمسين رافضاً أن يخون رفيقة عمره ؟ ولكن الاستهانة بالفرصة الأخيرة جنون ، جنون لا يغتفر . وانزلق في رعونة إلى الحلم بتبادل الاشارات خلسة .. وينتظر في قلق .. ويسعد باللقاء .. ويتغنى بالعواطف كالأيام الخالية . بل افترض أيضاً أنها امرأة ذات خطة وغرض ، ومكر ودهاء ، فلم يثنه ذلك عن الاندفاع ، ورأى العدل كل العدل في أن يؤدي ثمن ما ينال . غير أن الأيام تمر ولاتبدي هي إلا الود ، وتهب الحرارة والصدق ، دون أي مقابل . فليصدق إذن ، أو فليصدق وليوطن نفسه على أي نكسة . ولو أنه كاشف طبيبه نفسه بما يفعل لاقتنع ، بل ولربما حسده على جميل حظه . لذلك لم يكبح تحذير الطبيب اصراره واندفاعه . وانطلق مساء اليوم نفسه إلى عشه . ونسي في رحابها هموم الحياة وهواجسها . وامتلأ فؤاده بالرضى والراحة والسرور . طيبة ورقيقة ومستجيبة ولله في خلقه شئون . يقول لها :

ـ توجد أماكن صياحية غاية في الأناقة والعزلة فتقول :

ـ الستر أوجب

فيقول متمنياً :

ـ ليتني أرجع إلى الوراء ثلاثين عاماً .

فتقول باسمة :

ـ ولكني أحبك كما أنت !

أحياناً يصدق ولايصدق أحياناً . في فترة الجفاف تنبثق له وردة مشتعلة الأوراق . ويتوقع مفاجأة لا تريد أن تقع . ويتمادى في لهفة وراء النشوات . حتى شعر ذات صباح أنه في أشد الحاجة إلى لقاء طبيبه . لم يستطع أن يغادر فراشه وكان ذا خبرة سابقة . وجاء الطبيب وراح يفحصه بعناية وهو يقول :

ـ انقطعت عني مدة غير قصيرة .

لاذ بالصمت أو أجبر عليه . وفرغ الطبيب من فحصه فقال :

ـ أزمة بسيطة ولكن الأفضل أن تنتقل إلى المستشفى ، ما رأيك ؟

أجاب بصوت ضعيف :

ـ كما تشاء

ـ هناك ستجد كل ما يلزم وسوف أرتب كل شيء ، وإن شاء الله تسترد صحتك في أقرب وقت ..

ـ أشك في هذا ..

ـ ليس الأمر بالخطورة التي تظن .

ـ بل هو خطير حقاً

ـ سوف أذكرك .

وتردد الطبيب قليلاً ثم قال باسماً :

ـ يبدو أنك لم تعمل بنصيحتي !

فقال وهو يسدل جفنيه :

ـ ولست نادماً على ذلك .

نجيب محفوظ

شجون رحلة

من الدوحة .. إلى القاهرة برًّا

بقلم: درويش مصطفى الفار



قافلة في الصحراء .. لوحة للفنان الانجليزي روبرت كيلي ١٨٩٩



مسيرة الرحلة في شبه الجزيرة العربية من الدوحة الى الدوحة

كان الفنان الكندي المعاصر، رونالد أوكي ، الذي اشتهر ، برسم لوحات كثيرة عن البادية والصحراء ، جندياً شاباً في سلاح الطيران البريطاني إبان الحرب العالمية الثانية ، وقدر له ان يعيش زمن تلك الحرب فيما بين سيناء شرقاً وتونس غرباً...

كتب لي رسالة بعد أن استقر به المقام في كندا مهاجراً من بلاد الانجليز يقول :

« إن ليالي الصحراء الهادئة ، تعطي لأعصاب الإنسان زاداً من الطمأنينة ، يفوق كل مايعطيه الأطباء وعلماء النفس المعالجون في هذه المدن الصاخبة في بلادنا .. » وكتب الاستاذ ، ر . ف . س . بودلي ، مؤلف كتاب (الرسول) وكتاب (رياح الصحراء) بعد أن اعتنق الاسلام وعاش بين البدو في صحراء الجزائر القصوى يقول : « إن العيش في الصحراء يتسامى بالإنسان ويسمو بروحه ، ويرزقه من الشفافية ما لا يستغرب معه أن الله جلت قدرته ، قد اختار الأنبياء والمرسلين عبر التاريخ ، من أبناء البوادي والصحراء . »

وكان الطيار الشاب « نسبيت » قد اضطر للهبوط بطائرته لعطل ألم بها في عرض الصحراء بين مصر وليبيا والسودان ، ومكث هنالك وحيداً فريداً لعدة أيام حتى لحقت به قافلة الانقاذ ، فألف كتاباً سماه « الريح والرمال والنجوم » بعد نجاته قال فيه ...

« اغلقوا كل مصانع الأدوية واذهبوا بالمرضى الى أعماق الصحراء ، فهنالك الشفاء الحق للروح والبدن »..

وعلّمنا أساتذتنا الأجلاء في كلية العلوم بجامعة فؤاد الأول (القاهرة اليوم) أن تلك القطعة من سطح الأرض فيما بين النيل غرباً ، والمحيط الهندي شرقاً ، كانت قبل أن يتكون أخدود البحر الأحمر ، رتقاً متصلاً ، من

شجون رحلة

من الدوحــة .. إلى القــاهرة بــرًّا

الصخور النارية والبركانية والمتحولة ، تتخللها جددٌ بيض وحمر مختلف ألوانها وغرابيب سود ، وتحيط بها أسورة من الصخور وحجارة رسوبية أقل عمراً ترسبت طبقاتها فيما بين حقب الحياة القديمة (٦٠٠ مليون سنة مضت) وعصر المايوسين (٢٥ مليون سنة مضت) وعلمونا كذلك ، أن معرفة الأرض وصخورها وحجارتها وتضاريسها ، لايمكن أن يستوعبها العقل والقلب من الخرائط والمصورات الفضائية والصور الجوية والكتب المؤلفة والنشرات العلمية المبثوثة ، وحدها ، وأن المشاهد الفعلية هي التي تنضج عقلية الإنسان المشتغل بعلوم الأرض ومعادنها وتاريخها... حتى قالوا ، لأن ترى موقعاً جيولوجياً مائة مرة أفضل من أن تراه تسعاً وتسعين مرة!!!

وعلمنا أساتذتنا ومدرسونا في المدارس الابتدائية والثانوية ، أن الجزيرة العربية هي الأرض التي استطاعت ، على الرغم من كل نظريات التفسير المادي للتاريخ ، أن تحمل رسالة الحضارة ومكارم الأخلاق ، عبر الوهاد والنجود والوديان والآكام والكثبان والأغوار والأوشال والأطواد ، إلى الناس جميعاً في مشارق الأرض ومغاربها.

وبدأت أتعرف على الصحراء ، بحكم المولد والنشأة ، في أنحاء شبه جزيرة سيناء متنقلاً مع والديَّ رحمهما الله ، فيما بين العريش شمالاً والطور جنوباً ، ونما تعلقي بتلك البيئة الطاهرة من التلوث ، مع عملي في أرجاء الصحراء المصرية شرقي النيل الخالد وغربيه ، وفي سيناء ، حيث تم لي بتوفيق الله وفضله ، إضافة إلى ما أعتز به من معلومات إقتصادية وأكاديمية ، لم تتيسر لأحد قبلي... وما أن حطت بي الرحال في قطر ، حرسها الله من كل سوء ، حتى عقدت النية على عبور الصحراء العربية من الدوحة إلى القاهرة ، بطريق البر... وكان لابد للقيام بهذه الرحلة من إعداد...

وكانت أولى إجراءات الاعداد ، هي إقناع أفراد الأسرة بفضل تلك الرحلة ومزاياها ، وكانت الثانية : عرض السيارة على المختصين للتأكد من صلاحيتها لقطع أكثر من سبعة آلاف كيلومتر ذهاباً وعودة...

كانت « ورشة » الشركة ، شأن غيرها في أقطار الخليج العربية كلها ، تعج بأصناف من البشر ، لايتكلمون لغة واحدة ، فلكل منهم لسان ورطانة ، ولكنهم استطاعوا أن يخترعوا لهم نوعاً من (الاسبرانتو) الهجين من العربية والانكليزية والفارسية ، والأوردية والصومالية ، وأن يولدوا مصطلحات وألفاظاً ، أرائي على يقين مؤكد أن أحداً من نسل آدم وحواء ، عليهما السلام ، لم ينطق بها ، عبر التاريخ الانساني كله ، قبل أن يأذن الله باكتشاف النفط في هذه المنطقة من العالم... أخذ الرجل الآسيوي الأسمر يكتب ورقة (التشبيك) أي الفحص ، ثم التفت إليَّ وهو يهز رأسه يمنة ويسرة وقال :

« سيارة مال إنت ، خراب واجد ، سيدا خمسة يوم تشبيك مافي ينفع . لازم إثنين أسبوع كلش تمام يسير واجد زين » وانطلقت بنا السيارة في يوم الموعد فجراً من الدوحة إلى أبي سمرا ، وتمت الاجراءات الحدودية المعروفة منذ عهد « سايس » و « بيكوه »...

وفيما بين الدوحة والحدود ، تأملت في الإبل السائمة حول الطريق ، وتساءلت هل هي من نسل النوق القطريات التي اشتهرت بين العرب في الجاهلية والاسلام أم أنها من سلالات أخرى ، وهل حمل أجدادها البرود القطرية التي جاء ذكرها في أحاديث الرسول صلوات الله عليه عبر التاريخ ؟ وأين هي القرية التي كانت تسمى (قطر) وذكرها ياقوت الحموي في معجم البلدان ، حيث كتبت تحت كلمة (الخَط بفتح الخاء) : « ومن قراه القطيف والعقير وقطر ، ثم يضيف : « ومن الخط عيسى بن فاتك الخطي أحد بني تيم الله ابن ثعلبة وكان من الخوارج مع أبي بلال بن مرداس بن أدية » .

ودخلنا حدود المملكة العربية السعودية عند سلوى ، نقصد الهفوف بالاحساء أو منطقة هجر ذات الشهرة التاريخية في تجارة التمور حتى قال المثل « فلان يحمل التمر إلى هجر » أو « يبيع الماء في حارة السقائين » وذكرتنا المنطقة فيما بين الهفوف وعرعر بشمال سيناء بمصر ، فهي تشبهها شبهاً كبيراً لولا اختلافات في أنواع النبات البري... ومن عرعر كان علينا أن نتجه إلى تبوك غرباً ، فما ان وصلنا إلى سكاكة ، حتى بطل سحر الهندي في ورشة السيارات بالدوحة حيث تعطلت السيارة ، ولكن الله هدانا إلى ورشة أبي عبدالرحمن .

وأبو عبدالرحمن ذاك ، بدوي أمي ، عمل في شبابه مع شركة (أرامكو) واستطاع بسليقته السليمة وذكائه الفطري ، أن يستوعب محركات السيارات ، واشتهر بذلك فأصلح لنا العطب ، وانطلقنا لانلوي على شيء . وفي مقابل دومة الجندل ، أدركنا المساء ، ونال منا التعب ، فانتحينا جانباً من الطريق ، وافترشنا بعض متاعنا على بساط من الرمل ، متخيلين أن حصان سيدنا خالد بن الوليد رضي الله عنه قد سار فوقه ، حينما جاء من تبوك ليعاقب الأكيدر بن عبدالملك ، الذي استسلم وامتنع أخوه حسان في الحصن ، فحاصره ابن الوليد حتى أرغمه على التسليم وصالحه على ألفي بعير وثمانمائة فرس وأربعمائة رمح...

وتحت السماء الصافية وفي الهدوء السرمدي الذي لاتعكره إلا الناقلات الضخمة بين آن وآخر قرأنا الفاتحة مترحمين على الملك عبدالعزيز بن سعود ، فما كان لمثلنا من العزل أن يناموا مطمئنين في هذه البيداء قبل توطيده لأركان الأمن والأمان في هذه البقاع.

وبعد صلاة الفجر ، يممنا شطر تبوك ، وتذكرنا منازل عامله ولخم وجذام وبني عذرة ممن تحالفوا مع الروم وشتت الله جمعهم في السنة الثامنة لهجرة خاتم المرسلين ﷺ إبان غزوة تبوك ، وقصة كعب بن مالك ، حين تخلف عن الغزاة فلما سأل عنه النبي عليه السلام ، قال القائل :

حبسه برداه والنظر في عطفيه — ولم نستطع في عجلتنا أن نتبين جبلي حسمي وشروري ولا مكان الأيكة ولابترين عريضا ، إذكان علينا أن نغشى (ميكانيكياً) فلسطينياً من الذين هربوا أطفالاً بعد مذبحة دير ياسين سنة ١٩٤٨ . وبعد مسيرة وصلنا إلى حقل التي ينسب إليها محمد بن عبدالله بن أيمن الحقلي الفقيه العارف مولى نافع مولى سيدنا عثمان رضي الله عنه ، والتي ينسب إليها كُثيّر عزة الذي قال :

سقى دمنتين لم نجد لهما أهلا
بحقل لكم يا عز قد زانتا حقلا
نجاء الثريا كل آخر ليلة
تجودهما جودا وتردفه وبلا

ومن حقل عبرنا الحدود إلى الدرة فالعقبة . وفي العقبة ابتلينا بمن أشار علينا بركوب البحر إلى السويس بدل النويبعة في سيناء ، وياليتنا لم نعمل بمشورة ذلك الخراص . !

وفي العودة كان هدفنا الذي استعددنا له أن نعبر من النويبعة ، وهي قرية من قرى



فرسان من البادية يروضون خيولهم في عرض الصحراء

الساحل الغربي لخليج العقبة ، التي غير الإحتلال اليهودي أسماءها وأقام فيها أوكار الاثم والفجور والعرى والمخدرات طوال خمسة عشر عاماً وكان يؤمها الفاسدون ومرضى الهربيز والايدز من كل بقاع العالم .

عبرنا قناة السويس لأول مرة من نفق الشهيد أحمد حمدي ، وهو أول ضابط مهندس استشهد في أول يوم في معركة العاشر من رمضان سنة ١٣٩٣ ... وعرجنا على عيون موسى ، التي لم يثبت علمياً إلى الآن أن سيدنا موسى قد مر عليها ، وتوقفنا قرب أبي زنيمة وأبي رديس تاركين إلى يسارنا طريق دير سانت كاترين ومعبد سرابيط الخادم الذي كان الفرعون في مصر لايتوج ولايمسك بصولجان الملك إلا بعد أن يحج إلى ذلك المعبد ويقدم البخور والقرابين تحت قدمي (حتحور) ربة النحاس والفيروز ... ومن الطور عرجت لزيارة صديق قديم لوالدي عليه رحمة الله ، شيخ مشايخ قبيلة مزينة الشيخ سالم أبو جبلي الذي لم تغيره الأحداث ولا الصعاب .وعبرنا من النويبعة إلى العقبة ، وعدنا إلى تبوك ، ومنها قررنا تغيير الطريق صوب مسجد رسول الله ﷺ ثم بيت الله الحرام لأداء العمرة ...

وعرجنا قبل تبوك على حالة عمار التي يقال ان منها الصوفية المشهورة رابعة العدوية .

ومن تبوك إلى تيماء ، التي كان بها حصن الأبلق الذي كان للسموأل بن عاديا اليهودي ، والتي لاشك أن مخططات الصهيونية تضعها في الحساب . ومن تيماء إلى خيبر بدأت الحرات وهي الطفوح البركانية السمراء ، في الظهور . وقد ذكر ياقوت في معجم البلدان تسعاً وعشرين حرة يصف بعضها في قوله :

وحرة بني سليم ، في عالية نجد ، وبها معدن الدهنج (كربونات النحاس) وحرة النار من ديار غطفان بين وادي القرى وتيماء ، وسكانها من عنزة وبها معدن البورق ، وهو مانسميه اليوم البوراكس معدن استراتيجي يدخل في صناعة توربينات الصواريخ والنفاثات .

ولعل من أقدم الأوصاف العلمية العربية لسيل حمم بركاني ، ذلك الذي ذكره في (النجوم الزاهرة) العلامة ابن تغري بردي ، حيث قال في أحداث منتصف القرن السابع الهجري :

« وأما أمر النار التي ظهرت بالحجاز : قال قاضي المدينة سنان الحسيني لما كان ليلة الأربعاء ، ثالث جمادى الآخرة سنة ٦٥٤ ظهر بالمدينة الشريفة دوي عظيم ثم زلزلة عظيمة ، رجفت منها المدينة والحيطان والسقوف ساعة بعد ساعة إلى يوم الجمعة خامس الشهر المذكور ، ظهرت نار عظيمة وقد سالت أودية منها بالنار إلى وادي شظا حيث يسيل الماء ، وقد سدت مسيل الماء بوادي شظا وما عاد يسيل . ولقد طلعنا جماعة نبصرها فإذا الجبال تسيل نيراناً تأكل الحجارة . وقد كتبت هذا يوم خامس رجب سنة أربع وخمسين والنار في زيادة ماتغيرت » .

ولعل تلك الحرات السمراء فيما بين خيبر والمدينة المنورة ، وماحولهما يرجع الكثير منها إلى ذلك الطفح البركاني الحديث .

ومن أغرب ماقرأت عن خيبر ، بعد العودة إلى الدوحة العزيزة ، ماكتبه رحالة ايطالي يدعى (لودفيكو دي فارتيما) ١٥١٠ م . وقد تخفى ذلك الرحالة في ثياب المماليك واستخدم الرشوة لتتاح له فرصة دخول الديار المقدسة مدعياً اعتناقه الاسلام . كتب دي فارتيما كلاماً عجيباً يستحق التحري والفحص :

« قابلت في منطقة خيبر ، قوماً سمر الوجوه طوال القامة ، يعيشون على أكل لحوم الضأن ، ولايأكلون غيرها .

ولقد أخبروني ، بعد أن اطمأنوا إلى أنني أوروبي ، أنهم من بقايا يهود خيبر القدامى ، وأنهم لايزالون (١٥١٠ م) يهوداً ، وأنهم إذا اتيحت لهم الفرصة للاختلاء بعيداً عن أعين الرقباء ، بأي إنسان عربي قح ، فإنهم يذبحونه ذبح الشاة ، ويسلخون جلده !!! » .

ولا أدري إذا ماكان دي فارتيما هذا ، قد اخترع تلك القصة من محض خياله أم أنه صادق في روايتها ..

مطلوب البحث والتحري ..

وكم من الكتب التي كتبوها عن هذه الأمة ، في حاجة إلى البحث والتحري والدراسة والرد عليها ، إذ أن كثيراً من الكتاب الأجانب ، وليس كلهم ، يجنحون إلى الاختراع والخيال ، بل والدس والتزوير والبلبلة .

إن خط الرحلة من الدوحة إلى القاهرة ، براً ، وخاصة إذا تخللته مناسك العمرة والصلاة في مسجد المصطفى ﷺ ، زاد روحاني وعقلي لايشترى بمال .

وحبذا أن يتصدى أي جهاز تلفاز عربي لتسجيل معالم طريق هذه الرحلة تسجيلاً علمياً فنياً ، ليتعرف الانسان العربي على معالم وطنه الواسع الرحيب ، ويستعيد ذكريات تاريخه وأمجاد أمة مدنت العالم ورفعت لواء الحضارة وأصبح حاضرها كما قال المرحوم الشاعر محمود غنيم :

ويح العروبة كان الكون مسرحها
فأصبحت تتوارى في زواياه
كم صرّفتنا يد كنّا نصرّفها
وبات يملكنا من كنا ملكناه

« وماكان ربك ليهلك القرى بظلم وأهلها مصلحون » . صدق الله العظيم .

درويش مصطفى الفار

الأقنعة السبعة

بقلم : سليـمـان فيــــاض

في سنوات الأربعينات ، كانت تصدر بمصر مجلة مصورة هي مجلة « مسامرات الجيب » كان يرأس تحريرها ، عمر عبد العزيز أمين ، صاحب سلسلة « روايات الجيب » الشهيرة التي أثرت على شباب الأربعينات ، حبا للقص ، وجرأة عليه . وكانت المسامرات تنتزع الأرض الصحفية من مجلتي « الاثنين » ، و « الهلال » بصفة خاصة ، وتنافس بصحفيتها وموادها التحريرية المنوعة مجلتي « الرسالة » و « الثقافة » ، تواجه بالوجبات الثقافية السريعة ، لجيل جديد ، الوجبات الثقافية الدسمة بمجلات « الرسالة » ، و « الثقافة » ، و « الكتاب » و « الكاتب المصري » . كانت مجلة رومانسية الطابع والتوجه ، يجد فيها القراء أثناء الحرب العالمية الثانية وبعد هذه الحرب ، التسلية والمهرب ، وكانت تعتمد في جانب كبير منها على الترجمة للقصص الرومانسي ، هذه الترجمة المشوهة ، والتي لاتجد مانعا من التلخيص ، والاضافة ، والحذف والتعديل . وكانت أزمة حصول المجلات والصحف على ورق في ذلك الحين طاحنة .

الى صاحب المسامرات أخذ شاب يبعث بفيض من القصص الرومانسية ، تحمل توقيعه ، وتمر الأسابيع ولا قصة واحدة منها تنشر . وذهب الشاب الى صاحب المسامرات سائلا عن مصير قصصه . فقال له فيما يحكي العالمون ببواطن الأمور :

ــ قصصك صالحة للنشر بالمسامرات ، لكنها طويلة بعض الشيء . ونحن نعاني من أزمة ورق .

ــ أوشك الشاب أن يقول له : إنه على استعداد لاختصارها للحيز المطلوب ، لكن فكرة أخرى ومضت في رأسه . كان له قريب ، ربما كان خاله ، يهيمن على توزيع الورق على الصحف والمجلات ، فقال له فيما يرويه المعاصرون :

ــ وإن حللت لك أزمة الورق هذه ، وبالسعر الرسمي ، بعيدا عن السوق السوداء .

فأجابه صاحب المسامرات :

ــ ياليت . ننشر لك قصصك إذن ، ونحن مطمئنون ، ولانبالي معها بقصر ولا بطول .

منذ ذلك الحين ، صارت تتوسط صفحات المجلة الأسبوعية ، كل أسبوع تقريبا ، قصص الشاب ، مفرودة على الصفحات ، ومزينة برسوم ملونة ، يتصدرها اسم الضابط الشاب ببنط خطيّ كبير .

كانت القصص رومانسية ، توشك أن تكون ضربا من الأساطير والخرافات ، تتسق مع طابع المجلة الرومانسي العام ، وتلبي حاجة أرباع المتعلمين ، والمراهقين والمراهقات ، الى التسلية والترفيه ، والهرب

من الواقع المأساوى لجو الحرب العالمية ، وآثارها .

ولمع اسم الشاب الجديد إلى جانب أسماء أخرى من نفس الطراز من الرومانسيين : الورداني ، وغراب . وكانت القصة العربية ، في مصر ، تشق لنفسها دروبا واقعية أخرى على أيدى كتاب كبار . ويقال والعهدة على الرواة ، إن قصص الشاب لم تكن له ، وأنها كانت بين أوراق أبيه ، ومن تأليف أبيه ، وأنه تجرأ على نسبتها لنفسه . ولم يتسع لى الوقت ولا الجهد يوما للتحقق من هذا الأمر ، ولا أذكر أن قصص الشاب بالمسامرات ، قد نشرت في كتاب بعد ذلك ، بين كتبه الكثيرة . فهل طوى الشاب هذه الصفحة ، بعد أن نال ثمرتها ، وخجل فيما بعد من استمرار هذه الكذبة على أمل أن ينسى الناس ، أو ان يخنق هذه الخدعة في ضميره ، أم أنني أسوق الشك جزافا دون تحقق من مدى صحته ؟ !

صانع المعجزات

كان صاحبنا من الضباط الشبان الذين يمارسون الكتابة ولم يكن من الضباط الأحرار .

بعد قيام الثورة ، واستقرار الأمور ، وفيما أذكر إثر جلاء المحتل ، وكانت الأحزاب قد حلت ، والبرلمان قد ركن على الرف ، والدستور قد ألغى ، ليحل محله دستور مؤقت ، كانت الثورة تستهدف السيطرة على الرأى العام بالصحف ، وعلى الثقافة بالمجلات والأجهزة . وكان من الطبيعى أن تتقدم الثقة بالضباط المتصلين بالثقافة بسبب ما ، على الثقة بغيرهم من المدنيين ، أو على الأقل يوكل إليهم قيادة الأمور ، وتدبيرها بالتخطيط . وكانت الفرصة ذهبية ، للضابط الشاب ، ليكون رجل الدولة الجديدة ، في الثقافة المصرية ، وفيما بعد في الثقافة العربية ، والآسيوية والافريقية .

تقدم الشاب ، بمشروعات لأجهزة وأندية ومصالح ثقافية ، وتمت الموافقة عليها . فظهـرت مهاراته الادارية في التخطيط والإشراف والمتابعة ، وجاء حين صار فيه (مصريا ، وعربيا ، وأفرو آسيويا) صاحب مناصب سبعة ، كان عليه أن يرتدى لكل منها قناعا ، في كل ساعة من ساعات يومه . وكان قوى البنيان ، بائن الطول ، ملون العينين ، تشى ملامح وجهه وبشرته بأصوله التركية القديمة .

كانت غايته الأولى ، وغاية الدولة منه ، أن يستقطب دائما المثقفين إلى صف الخط السياسى للدولة ، وإلى الولاء لشخصه ، وإلى جانب ذلك أن يحقق لنفسه لقب « الكاتب الكبير » عبر محورين في موضوعات قصصه : أحداث الثورة ، والحكايات التى تستهوى المراهقين والمراهقات ، في جو رومانسي ، وأكثر مصرية ، يجهد ليكون واقعيا ، ورمزيا ، في نفس الوقت ، ففى مواجهته في دنيا القص ، كتاب كبار ولوامع ، كثيرا ما أثاروا غيرته وغيظه ، فالقراء المثقفون يحتفون بهم ، أكثر منه ومن نظرائه ، والنقاد دائمو الكتابة عنهم كلما صدر لأحدهم كتاب جديد ، وكان يقول دائما للنقاد :

ــ أليس في البلد سوى فلان وفلان ؟ لماذا لاتكتبون عنى ، حتى ولو بالشتيمة ، وعن فلان ، وفلان . وفلان ؟ أنتم متحيزون و ....

كانت كل مقاليد الثقافة تقريبا في يده ، وكان نفوذه واسعا ، على الصحف ، وعلى المجلات ، ولكنه لم يستطع أن يملك قلب أحد ، أو قلم أحد ، ممن يعنيه أن يمتلكهم ، ســوى بعض المتحلقيـن ، والمتزلفين ، والوصوليين . ومع ذلك كان دائم الاصدار لكتبه ، عبر دار نشر وحيدة ، وكانت كتبه رائجة ، واسعة الانتشار ، سرعان ماتتحول عناوينها إلى جمل محفوظة تتردد على ألسنة المراهقين والمراهقات في كل حوار ، وسرعان ماتتحول حكاياتها إلى أفلام ، تنحدر معها دموع المشاهدين ، في المواقف الميلودرامية . وكان يقول لزائريه رافعا إحدى قدميه عن الأرض وهو جالس إلى أعلى قدر مستطاع :

ــ من فلان ؟ ومن فلان ؟ .. أنا وحدي تأتينى كل يوم رسائل من القراء ، بهذا الارتفاع . أنـتم أيـهـا المثقفون والنقاد مخدوعون .

كانت تلك محنته ، وجراحه ، وظل يحاول التعالى عليها بالوجه البشوش ، فغايته هى استقطاب المثقفين ، في البداية بالإحسان إليهم ، يوفر لهم عملاً ، ودخلا قليلا ، ويظلون أبدا بحاجة إليه ، عن طريق المكافآت . ثم عليهم أن يثبتوا ولاءهم لشخصه ، يحملون حقيبته عنه حين يرونه ، أو ينقلون إليه أخبار الوسط الثقافى ، أو يقفون له احتراما إثر حضوره ، أو ينوبون عنه في الرد على معارضيه وخصومه ، يكيلون لهم شـتى الاتـهامات باللون الأحمر تارة ، وبالانحراف تارة ، وربما بالخيانة تارة أخرى ، مصفقين له في الندوات ، مستخدمين عضلاتهم وأصواتهم المرتفعة تارة أخرى .

كن كما أهوى .. واتبعنى

كان الشاب خدوما ، لمن يطلب مكرمته ، ممن أصابتهم حرفة الأدب . أتاح مرة لشاعر أكثر من مكافأة ، في أكثر من مكان من الأجهزة الثقافية ، نظير عمل محدد ، أن يتواجد في كل ليلة بناد معين من أنديته ، ومهمته أن يسمع مايدور ، ويرى مايحدث ، بين الشباب المثقفين بصالة النادى . لم يقل له ذلك . قال له فقط :

ــ أحب أن أراك مساء كل يوم بصالة النادى .

ولم يكن حقا يراه ، إلا حين يريد الآخر مقابلته ، ويغلق وراءه الباب ، فقد كان من عادته ، « الضابط الشاب » ، أن يصعد سلما خاصا به في النادى ، ويدخل غرفته ، كرجل دولة . وعلى الكل أن يسعى إليه .

وأتاح مرة لكاتب قصة شاب متمرد ، ولا انتماء سياسى له ، جاء من « عروس البحر » يطلب عملا بالثقافة ، ولا مؤهل له . كان بائع صحف متفتح القلب والعقل ، جرته قراءته للصحف وللكتب ، مثلنا جميعا ، لكتابة قصص « لا معقولة » ، لم يرتد مثلها من كتاب العرب أحد قبله . وكانت قد صدرت له مجموعة قصص « لا معقولة » ، ورحب به الضابط الشاب ، وأوكل له عملا بمكتبه ، في جهاز من أجهزته الثقافية ، لكن القصاص الشاب لم ينجح في أن يكون موظفا صغيرا ، يتجمل بحسن المظهر ، وذلاقة اللسان ، وإظهار الطاعة ، فاصطدم به بكلمات عنيفة ، وعاد إلى « عروس البحر » ، ربما ليبيع الصحف مرة أخرى . قال لى على شاطىء « عروس البحر » :

ــ قلت له .. وقلت له .. لست من حملة الحقائب الذين يحيطون به ، ويعيشون ساعات يومهم لأجل مرضاته . أنا لم أولد عبداً لأحد .

وكانت تلك آفته في الاستقطاب . يريد أتباعا ، ولا يريد رفاقا وأخوة ، يريد جنودا له عليهم الأمر ، وعليهم السمع والطاعة .

كانت الحياة الثقافية الشابة منقسمة آنذاك : ثمة كتاب لهم انتماءاتهم السياسية

وجـــوه من الذاكـــرة

الأقنعة السبعة

التي تتجاوز واقع الثورة نفسه . وبينهم كان كتاب حقيقيون ، لهم قراؤهم ونقادهم أيضا ، ويعارضونه وكتاب الطبقة الثالثة والرابعة ونازلا يتبعونه . وكانت لكل منهما خنادقه في الحياة العامة . وكان الشاب يائسا من مجموعات المنتمين ، لكنه كان دائم اللقاء لهم ، والإحسان إلى من يطلب إحسانه منهم ، ووضع عينيه على فئة من الكتاب ، خارج الخندقين وهو يعلم أنهم بأقلامهم ، وفكرهم ، في خندق هؤلاء الكتاب المنتمين . وبدأ محاولة يائسة لاستقطابهم ، وكنت واحدا منهم .

تجربة صغيرة

قيل لي ، على لسان صديق كاتب ، إنه يريد مقابلتي . وذهبت معه إليه ، في غرفته الليلية بناديه . وجدته جالسا إلى صدر منضدة اجتماعات محدودة المقاعد ومعه عدد من حملة الحقائب . كانت المنضدة مكسوة بالجوخ الأخضر مثل مكتبه . ولامني لأنني لست عضوا في الناديين اللذين يشرف عليهما ، مع أنني كاتب ، وذكر لي أنه قد وقع لي استمارتي عضوية بالناديين . وقبل أن يسمع رأيي قذف بي في التجربة . كانت ثمة مجلة لأحد الناديين ، يريد مشاركتي في إحيائها ، مع صديقي الكاتب . وكنت وكان الكل يعلم مدى فشلها التحريري ، إلى درجة أنها لاتوزع إلا ستين نسخة بالسوق ، برغم ماينفق عليها من أموال تستقطع من بنود ميزانيات أجهزة ثقافية رسمية أخرى .

وكان ينظر إلى ، بشك مستريب ، لكنه كان ، فيما يبدو راضخا لإرادة رجل الدولة . طلبت شرطا واحدا لنفسي ، ولصديقي الكاتب ، ألا تنشر مادة بالمجلة دون موافقة مني ومن صديقي . وذلك يعني أن يرفع هو ، الضابط الشاب ، ومعه رئيس تحرير المجلة ، يده عن التحرير . فلنا اختيار المادة للنشر ، وليس لهما حق الإجازة للنشر . ولدهشتي قبل

الشاب ذلك ، وأبدى لي ودا مفاجئا لي ، وهو يصافحني قائلا كأنه يضع ذيلا ثانويا للأمر كله :

ـــ سيكون معك ، أنت وصديقك ، فلان ، وفلان ، وفلان ، ستكون مهمتهم معكما هي الإشراف على التنفيذ والطبع .

كانت المهمة غير مأجورة . لكن الرغبة في إحياء مجلة ، كانت في نفسي كاسحة . ولم أسترح لحملة الحقائب الذين ذكرهم . فاقترحت اسمين آخرين ، أعرف قيمتهما ، كانا عونين له في جهازين خطيرين للثقافة ، فقال لي :

ـــ لهما مهام أخرى معي ، وهما مثلك وصاحبك ، لا وقت لديهما للمطبعة .

بدأنا اجتماعات الإعداد للمجلة في عهدها الجديد ، مع عدد من الكتاب الشبان . واتصلنا بالأصدقاء . وبالفعل نجحنا في إصدار مجلة ناجحة المادة والتحرير ، برغم أن اسمها ، وقد مات ، لم يتغير . كنا نجتمع في مكتب رئيس التحرير ، الوثير ، بمقاعدها الجلدية ، حتى حدث أمر لا ينسى . وفدنا لاجتماع ذات ليلة قبل حضوره ، فوجدنا باب غرفته بالنادي مغلقا في وجوهنا . طلبنا من « ساعي » المكان ، فتحه ، فأخبرنا أن المكتب خاص برئيس التحرير ، وأن هذه هي أوامره . استبد بي الغيظ ، وراح صديقي الكاتب ، يهدىء من ثائرتي ، وجلسنا في انتظار رئيس التحرير بالصالة . ولكنه جاء ، ولم يلتفت إلينا ، ودخل مكتبه ، وأغلق وراءه بابه . ذهبت إليه ، وسألته عن السبب ، فقال منتفخا بزهو تركي :

ـــ المكتب لرئيس التحرير ، ولا يجلس فيه أبناء الفلاحين .

ثرت في وجهه ، وأعلنت انسحابي من المجلة ، ولحق بي حملة الحقائب في الطريق لإثنائي عن قراري ، وليسمعوا مني مايسرهم ، في الضابط الشاب وفي رئيس التحرير ، وينقلوه إليهما ، ولم أتحسّب في التعبير عن رأيي .

كان السبب في هذا التغير واضحا لي . من الشاب ، حمل حملة الحقائب موضوعا كتب عليه : « ينشر » ، وذيله بتوقيعه . ومن رئيس التحرير ، حول موضوع آخر للنشر ، وكان أمر النشر موقعا ، وقرأت وصديقي الكاتب الموضوعين ، ورفضنا نشرهما لضعفهما الواضح . فنشرهما يعني بداية انهيار المجلة ،

ويعني التنازل ، والتنازل يجر تنازلا ، وكأن الغاية هي مجرد استقطابي وصاحبي ، وضمنا إلى الزمرة .

وكان فراقا ، لم أحزن عليه ، دام عشر سنوات ، فيما أذكره .

وفد أدبي

دعاني الشاب بعد سنين ، لأكون عضوا في وفد من الوفود الأدبية ، لعاصمة أوربية ، وقبلت الدعوة ، قابلته بمكتبه ، كان بشوشا كعادته ، وكأن شيئا لم يحدث بيننا قبل عشر سنين مضت ، وكأن كلمة واحدة لم تنقل إليه يومها ، زودني بالأوراق الرسمية اللازمة لتأشيرة الخروج آنذاك . وقبل أن أغادر مكتبه ، أراني ، من سلة المهملات ، ورقة بها أسماء أكثر من عشرين كاتبا ، كانت الورقة ممزقة نصفين وقال لي :

ـــ أتعرف صديقك فلان « الأحمر » ؟

قلت له ضاحكا :

ـــ نعم . أعرفه . وأشك في أنه حقا « أحمر » .

قال الشاب :

ـــ كان هنا قبل قليل . وقدم لي هذه الورقة ، قائلا إن بها أسماء الكتاب الحمر وطلب أن أقدمها لأجهزة الأمن ، لم ألق عليها حتى نظرة ، ومزقتها كما ترى ، وألقيت بها في هذه « السلة » ثم قال لي :

ـــ ستفهم حقيقة هؤلاء الناس يوما .

لم أكذبه . ولم أشك في صحة ماحدث . ولم أسأل من كتب الورقة . ولم أقل له ، للشاب ، لم تحتفظ بها إذن ، في .. سلة المهملات . لكن الموقف أحدث في قلبي وجعا .

كان بين أعضاء الوفد ، وكنا خمسة ، واحد فقط من حملة الحقائب ، يحمل اسما أدبيا ، كأسماء النجوم ، غير اسمه الحقيقي . ويقال إنه غيّر اسمه ، بعد تورطه في فضيحة مالية ، من عمله ، فتقرب للضابط الشاب بالكتابة عن أبيه ، فألحقه بعمل ، مع حملة الحقائب .

أثناء الرحلة بين مدن ، ذلك البلد الأوربي ، ولم يكن أحد من أعضاء الوفد ، فيما نعرف بعضنا البعض ، يعرف لغة أهل البلد ،

كان الحوار الأدبى ، وغير الأدبى ، يتم بواسطة مترجم . وحدث أن مسؤولا بهذا البلد ، كان يتكلم بلغة بلده مع المترجم . نحوا من خمس دقائق . والحظ ، ولاحظنا معه ، الأذن المرهفة لحامل الحقائب ، والابتسامة الصفراء لما يسمعه من المسؤول . فوجم المسؤول وقطع حواره مع المترجم . أدركنا أن رفيقنا ، حامل الحقائب ، يعرف لغة البلد ، وأنه من بيننا يسمع . ولا يتكلم ، ويرقب ، ولا يعلق . وهمس لى المترجم فيما بعد ، بأن صاحبنا هذا يعرف الألمانية ، ودرسها قبل ذلك ثمانى سنوات بمصر ، ولم يكن قد مر سوى يوم على ماحدث . وتأكدت والصحبة أنه سينقل كل شىء إلى الضابط الشاب ، وأن أحدا منا لن يكون مطالبا بتقرير عن الرحلة ، إثر العودة ، وأن للبلد للأوربى وسائله للمعرفة ، من الأرشيف ، وأن علينا أن نحترس . فى الغربة ، وفى الوطن .

اللقاء الأخير

ضاق صدرى بعملى كمدرس . شحذت ذهنى ، وكتبت طلبا للشاب ، ووسطت صديقا ، كان يعمل ساعدا أيمن له ، فى أحد أجهزته ، وذهبت لمقابلته ، فى أهم مكتب لديه بين مكاتبه . قدمت له طلبى ، وطلبت موافقته لنقلى . وكنت أعلم أن فى وسعه ذلك بجرة قلم . فوضع الطلب جانبا ، ونظرا إلىّ وقال بوجه بشوش :

ــ كيف ، وأنت لست معنا .

قلت له :

ــ أعرف فقط ، أننى كاتب ، وأن من حقى أن أحصل على عمل يتناسب مع عملى ككاتب . والعمل ليس غايتى . الكاتب فىّ هو ماأحرص عليه .

مال نحوى ، وقال ضاحكا ، ولأول مرة يكون صريحا :

ــ اكتب أولا فى مجلة (كذا) .

وكان يرأس تحريرها أحد حملة الحقائب . قلت له :

ــ لا أقبل ذلك . ليس ذلك موقفا من المجلة ، ولا من الدولة ، ولا من الثورة ، ولا منك . وإلا لما جئت إليك . هذه المجلة تتسهل فى النشر لمن ليسوا كتابا ، ونشرى معهم ، فى مجلة واحدة ، سيسىء إلىّ . أنا يشرفنى النشر مع الكتاب الذين أحترم أقلامهم ، وأحترم فيهم كونهم أصحاب رسالة .

أخذ يغرينى بأن يدفع أضعاف ماياخذه أى أحد من الكتبة ، وأن ينقلنى ويرقينى إلى المنصب الذى أختاره .

اتخذت قرارى بينى وبين نفسى فى تلك اللحظة ، أن أبقى مدرسا إلى النهاية ، فهآنذا أستدرج لأصبح واحدا من حملة الحقائب ، ويجفونى قلمى . وغادرت مكتبه الفاخر ، قائلا له : آسف .

وسط الطريق

حدثنى فيما بعد ، صديق شاعر . ذكر لى أنه قابل الشاب فى حفل بسفارة ، فى عيد قومى لبلادها . أخذه جانبا وقال له ضاحكا :

ــ إلى متى ستظل تسير أنت ، وأصدقاؤك : فلان ، وفلان ، وفلان ، فى وسط الطريق ؟

وفسر لى صديقى الشاعر ، مادار بينهما . ثمة كتاب يمشون على الطوار الأيسر ، ويهتمون ببعضهم البعض ، وكتاب يمشون على الطوار الأيمن ، ويهتمون ببعضهم البعض . وآخرون ، مثلنا ، يمشون فى وسط الطريق ، لا يهتم بهم أحد من أهل الطوار الأيمن . ولا من أهل الطوار الأيسر .

وضحكت وصديقى الشاعر . فصاحب القلم انتماؤه فى قلمه ، مع مايعتقد أنه الصواب والحق ، والفن الجيد هو بالضرورة مع التقدم . والكاتب الحق هو من يقدر أبدا على قول : لا ، فى أى وقت . والانتماء ، أى انتماء ، يحرمه من هذه القدرة ــ الحرية . والانتماءات تنسى فى التاريخ إلا أن تكون شائنة ، ولايبقى سوى الفن الجيد .

ذو الأقنعة السبعة

رجل دولة كان ، أجل . وأضعف من دوره ، حرصه الدائم ، على تسخير ماتحت يده من أجهزة ، لخدمة نفسه ككاتب ، وأراد بها دائما أن يضع كل المثقفين فى خدمة واحدة ، فى سلة واحدة ، يقدمها للدولة : أبواقا وإعلاما ، مثلما يفعل هو . وبشرط واحد أن يسبحوا بحمده ، ويمجدوا ثمرات قلمه ، طوعا أو كرها .

فى كل صباح ، فى الثامنة تماما ، يغادر عربته ، ويصعد إلى مكتبه بأحد نواديه ، ويظل ساعتين يكتب دون تردد للحظة (رأيت مسوداته على مكتبه) دون شطب كلمة واحدة .

فى العاشرة ينزع قناع الكاتب ، ويرتدى قناعا آخر ، ويظل هكذا كل ساعتين ، يعبر به سائقه الطرق والكبارى من مكتب إلى مكتب ، والأقنعة تتغير .

كانت كتبه تتوالى فى السوق ، بأغلفة ملونة ، وصور نسوية ، بعضها مجرد خطوط على أرضية ذهبية ، وتتحول أفلاما ، ولم يكن يظهر فيها خطأ لغوى واحد ، وقد رأيت بنفسى كثرة أخطائه النحوية والإملائية فى مسوداته . وقيل لى يوما ، أن أحد أخواله أستاذ لغة ، بكلية جامعية ، وأنه يراجع له ماكتبه ، قبل أن يدفع به إلى دار النشر .

ومع موقفه الواضح مع التقدم فى إطار الثورة وشعاراتها ومقولاتها ، وضد التقدم خارج الثورة بين المثقفين ، فقد دهشت لنيله جائزة دولية لا أعرف أنها تعطى لمثله .

ومع إلحاحه الدائم على النقاد كى يكتبوا عنه ولو بالشتيمة ، فلم يطق صبرا حين تعرض ناقد للكتابة عنه بحرية وجرأة . فتوعده بالويل والثبور ، وعظائم الأمور ، حتى وهو فى عمل بعيد عن التبعية له ، وتحدث الناس عن خوف الناقد وذهابه إليه مسترضيا ومعتذرا أكثر من مرة ، وقبوله ، أكثر من مرة ، العمل معه ، فى مجلاته ، متنازلا عن ذات نفسه ، قابلا أن تغلق المجلات على يديه واحدة بعد الأخرى . ففى ظل الضغوط والقيود ، والرغبة فى وضع الكل فى سلة واحدة ، والجيد منها مع الردىء ، وفرار الجيد من الردىء ، لايمكن أن تستمر مجلة فى الصدور ، أو ينجح معها تحرير .

ومن عهد ، إلى عهد ، لم ينس قط ، أنه رجل الدولة فى الثقافة ، حتى عندما ضرب عهد بعهد . كان مع الثورة فى تقدميتها فى عهد ، ثم كان معها فى تراجعاتها فى عهد آخر ، سوطا فى يد سيد الثورة . وكانت النتيجة المحتومة أن يذهب ضحية أقنعته السبعة ، وتنقله كالبهلوان ، من حبل إلى حبل ، فوق ارتفاعات شاهقة .

مازلت أذكر له موقفا غريبا ، فعلى كونه رجل دولة وثورة فى الثقافة ، رأيته فى مقر أهم أجهزته ، واقفا على السلم بالساحة ينتظر ، وكنت ذاهبا لزيارة صديق ، وجاءت سيارة فارهة ، تحمل فلان (باشا سابقا) ، وأسرع الشاب ، يفتح له باب السيارة قائلا بانحناء :

ــ تفضل ياباشا .

سليمان فياض

القاهرة

المركب المهيب يعبر النهر

شعر: الدكتور تاج السر الحسن

اعلم أن الموت سوف يأتي،
سوف يحصد الجميع.
لكن بأي أرض
لم أُجب، ولم تُجبْ على السؤال.
لكن جدتي العجوز،
بنت الصادق الخضراء،
تدرك أنّها تموت في الجزيرة.
مدافن الأغبش،
حيث يكبو الديشُ(*)، فوق النيل،
فموجةٌ في الظل،
والأخرى على الظّهيرة.
وأنفُ تمساحٍ تشمُّ خضرة الأصيل.

● ● ●

هناك دفنوا بابكر الشقيق،
جدي الكبير بابكر.
أذكر وجهه واللحية المدورة،
وأثر الصلاة في جبهته، والمصحف العتيق
يرتل القرآن.

● ● ●

الفضة التي تصهرها دماؤنا في لحظة الابداع،
على جبينه تسيل.
على زنديه يجري العرق اللماع.
بابكر الكبير.
كفان فوق قبضة المحراث.
وفي البعيد يسمع الخرير.
حينما تموج خصلة الموجات
كالأرجوان ماأروعها،
كالأرجوان والحياة.

جنازة، عويل نسوة، على الشطآن،
جدي الكبير بابكر،
الفارس المغوار بابكر،
الزارع القائم الليل، لربه المنان
التالي الصبح،
وفي المساء سور القرآن
قد مات.
الشمس تغيب،
والمساء،
يخيم النخيل في احنائه،
يمدد السعف.
عويل نسوة يشق صفحة النهر،
بلا عظم ظهر(*)،
بلا عظم ظهر.
فيسمع الشرق ويسمع الغرب أسى النساء.

المركب المهاب يعبر النهر.
جثمان جدي، حوله وجوه القوم والصحاب.
البلياب،
الجابراب،
الانجرياب.
محمد الأمين مشعل القرآن فوق الغاب
المركب المهاب يعبر النهر،
فينحني على أقدامه الصفصاف.

جدي الكبير بابكر،
الفارس المغوار بابكر.
الليل في النصف الأخير

والسماء ،
صافية كعين الديك .
والقمر ،
تحوطه النجوم .
يرشق بالنظرة صفحة النهر
ومن خلال سعف النخل ،
وهدأة السحر ،
شعلته تضيء وجه جدي بابكر .
تحية من السماء والنجوم ،
تحية من القمر ،
رفيق جدي بابكر .

• • •

لطالما شدا الرحال ،
عبر صحراء الشمال ،
السيف في اليمين والخنجر في الشمال .
لطالما على دربهما غام المطر .
واليوم يعلم القمر ،
وفوق خده تسيل دمعتان ،
بأن الفارس الكبير بابكر ،
على فراشه الأخير
وحوله الأحفاد والنساء ،
على آماقهنّ يقطر الندى الحزين .
إنّا إليه راجعون أجمعين ،
على فراشه الأخير مات بابكر .

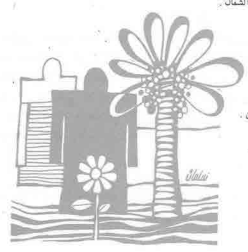
• • •

واحمرت السعدة ،
واحمرت النخلة والسنطات ،
واحمرت وجوه الفتية الصغار ،
واحمر حتى وجه ذلك الغبار .
ماأروع اللحظة ،
وحامي النساء والأطفال بابكر
حمال أثقال الجميع بابكر .
صدى ،
يردد الوادي ،
ترجع الضفاف ،
مقاطع الحروف ،
بابكر .
والموكب المهاب يعبر النهر ،
وينحني على أقدامه الصفصاف .

• • •

أعلم أن الموت سوف يأتي ،
سوف يحصد الجميع .
لكن بأي أرض ؟
لم أجب ، ولم تجب على السؤال
لكن جدي مات في الجزيرة ،
مدافن الأغبش ،
حيث يكبو الديس فوق النيل ،
فموجة في الظل ،
والأخرى على الظهيرة ،
وأنف تمساح تشم خضرة الأصيل .

(الخرطوم)



* الديس أعشاب كثيفة تنمو على ضفة النيل
* إشارة إلى لغز سوداني قطع البحر بلا عظم ظهر ــ وهو الصوت



المنفلوطي



كتاب للمنفلوطي

يؤدي إلى فصله من وظيفته وتأمر حكومة الاحتلال بمصادرته ويثير ضجة وطنية كبيرة

بقلم : الدكتور علي شلش

لهذا الكتاب المنفلوطي المجهول قصة طريفة معي ، ففي أواخر الخمسينات اشتريت منه نسخة كنت قد رأيتها مصادفة على سور الأزبكية ، ومنذ ذلك الحين احتفظت بهذه النسخة في مكتبتي دون أن أتصفحها ، فقد عددتها من الكتب القديمة التي يشتريها المرء ، ويحفظها دون لمس كأنها قطع أثرية ، وربما صدني عن قراءتها أن اسم المؤلف لم يكن عليها ، ولم تكن عبارة « بقلم كاتب كبير » التي على غلافها تشجع على القراءة ، فما أكثر الكتب التي قد تقع في أيدينا على هذا النحو ، ونودعها أرفف المكتبة دون اهتمام كبير !

■ ما هي العاصفة التي أشار إليها المنفلوطي في كتابه.. ومن هم الذين كانوا موضوعاً لهجومه العنيف ؟

وذات يوم ، منذ عامين ، كنت أفتش عن كتاب معين على أحد أرفف مكتبة مدرسة الدراسات الشرقية والأفريقية بجامعة لندن ، وفجأة وقع بصرى على نسخة من ذلك الكتاب فذكرتنى بنسختى السابقة ، ووجدت يدى تمتد إليها ، وأصابعى تقلب صفحاتها ، ولشد ماكانت دهشتى حين قرأت قصاصة الورق الملصقة على غلافها الداخلى والمكتوبة بالانجليزية حول بيانات الكتاب ، فقد جاء فى هذه القصاصة أن المؤلف هو المنفلوطى .

غير أنى كنت أعلم ، حتى ذلك الوقت ، أن أحداً من دارسى المنفلوطى لم يشر من قريب أو بعيد إلى الكتاب ، وقررت أن أتحقق من الأمر بنفسى مسترشدا بالنتيجة التى توصلت إليها ، وهى نتيجة أيدها فى ذهنى وجود الانجليز فى مصر خلال حياة المنفلوطى ، ومقدرتهم ــ فى ذلك الوقت ــ على معرفة حقيقة مؤلف الكتاب ، ثم لجأت إلى الدراسات التى كتبت عن المنفلوطى فلم أجد ذكرا للكتاب ، وقررت مرة أخرى أن أمضى فى تحقيق الموضوع .

وبدأت بقراءة الكتاب على أساس التفسير الانجليزى فوجدته مطابقا له ، وربما لو كنت قرأته يوم اشتريت نسخته أول مرة لتحققت من نسبته إلى المنفلوطى ، فالأسلوب أسلوبه ، والرؤية رؤيته ، والتناول تناوله ، فضلا عما عرفناه عنه من حبه لسعد زغلول وإعجابه البالغ بشخصه ومواقفه .

وقادتنى المصادفة ــ مرة أخرى ــ إلى تأييد آخر للتفسير الانجليزى ، فى الوقت الذى شغلنى فيه الموضوع أصدر الصديق الدكتور محمد أبو الأنوار كتابا ضخما من ثلاثة أجزاء عن المنفلوطى : حياته ونثره وشعره ، وطلبت من الصديق العون فأهدانى ــ مشكورا ــ الكتاب بأجزائه الثلاثة ، وحين بحثت فيه عن سر ذلك الكتاب المنفلوطى المجهول وجدته مجلواً بما لا يدع مجالا للشك .

مرحلة الانتقال بين الكتابة القديمة والحديثة

مهما كان الرأى فى كتابات مصطفى لطفى المنفلوطى ، واختلاف الناس حول قيمتها وقابليتها للقراءة فى عصرنا ، فلاشك أن لهذه الكتابات قيمة تاريخية ، فهى تشكل مرحلة الانتقال بين الكتابة القديمة والكتابة الحديثة .

وربما كان وضع الكتابتين على هذا النحو يؤدى إلى الخلط والتشوه فى فهم الكتابة القديمة بوجه عام ، ولاسيما فى النثر ، فقد بلغت هذه الكتابة درجة كبيرة من درجات النضج والحداثة على يدى رجل مثل الجاحظ ، بل على يدى رجال آخرين لم يكن لهم نشاط ملحوظ فى الأدب مثلما كان لهم فى العلوم الانسانية ، ولاسيما فى الفلسفة والتاريخ ، مثل الفارابى والغزالى وابن رشد وابن خلدون ، فلم يكن الجاحظ والفارابى والغزالى وابن رشد وابن خلدون ــ على سبيل المثال لا الحصر ــ يشغلون أنفسهم وقراءهم بالشكل على حساب المضمون كما تقول بلغة اليوم ، أو يشغلونه باللفظ على حساب المعنى كما يقال بلغة يومهم ، ولكن هذا النوع المتقدم من الكتابة الذى قدمه هؤلاء لم يستمر طويلا ، أو يتجاوز مايسمى فى التاريخ باسم العصر العباسى ، فقد سقطت الكتابة العربية ــ بهذا المعنى ــ تحت سنابك اللفظ والصنعة اللفظية بعد ذلك ، وكانت العصور التالية فى التاريخ العربى متخلفة عن هذا المعنى فى أقل تقدير ، ثم جاء العصر العثمانى عام ١٥١٧ فسجل ــ بوجه عام ــ وفاة الكتابة العربية المتقدمة ، وسيطرة الكتابة الجاهلة إذا صح التعبير ، لأن أصحابها لم يعودوا على صلة بالمتقدمين الأوائل ، وهذه الكتابة الجاهلة هى مانقصده حين نفرق بين الكتابة القديمة والكتابة الحديثة ، لأنها قديمة أيضا من حيث بعد الزمن ، لا من حيث صلتها بالكتابة القديمة الحقيقية .

حين نقول « الكتابة القديمة » نعنى إذن هذا النوع الأخير من الكتابة الذى امتد حتى نهاية النصف الأول من القرن الماضى ، وبعدها دخلت عوامل متعددة إلى الساحة العربية كان على رأسها ظهور الطباعة والصحافة ، وبداية الإطلاع على الكتابة الأوربية والإقدام على طبع الكتابة القديمة ونشرها ، وقد كان من الطبيعى أن تتفاعل هذه العوامل الثلاثة ، وأن ينشأ من تفاعلها الإقدام على ربط الكتابة بالعصر والذات المنتجة لها والمعنى الساعية إليه .

وقد بدأ هذا الإقدام على الكتابة الحديثة فى مصر بصفة خاصة ، نتيجة عوامل أخرى معروفة ، وجاءت البدايات على أيدى رفاعة الطهطاوى فى بعض أعماله ، ومحمد عبده وابراهيم المويلحى ، على سبيل المثال والترتيب التاريخى لظهورهم ، فقد حاول هؤلاء الثلاثة أن يرتبطوا فى كتاباتهم بعصرهم وذواتهم والمعانى التى شدتهم إليها ، ورفضوا سجع الكتابة القديمة الميتة ــ حتى نفرق بينها وبين الكتابة القديمة الحية ، كما رفضوا ماأغرق فيه أصحاب هذه الكتابة الميتة من صنعة ومحسنات بلا معنى ، وكانوا فى الوقت ذاته أصحاب مرحلة الانتقال من الكتابة الميتة إلى الكتابة الحية ، أو من الكتابة القديمة (الميتة) إلى الكتابة الحديثة .

أين نضع المنفلوطى إذن ؟

لقد عاصر أصحاب الكتابة الميتة وأصحاب الكتابة الحية سواء بسواء . فقد نشأ نشأة تقليدية مثل الطهطاوى وعبده والمويلحى ، ودرس فى الأزهر مثلهم ، وإن كان لم يتم دراسته ، مع أن المويلحى لم يدرس فى الأزهر ، واكتفى بمدرسة الحياة والتجارب والأسفار والمغامرات .

وحين نقول إن المنفلوطى عاصر هؤلاء فليس معنى هذا أنه من جيلهم ولا من سنهم ، فقد ولد بعد ثلاثة أعوام من وفاة الطهطاوى عام ١٨٧٣ ، ولم يعرف محمد عبده أو المويلحى إلا وهما فى دور الكهولة ، بعد عودة الأول إلى مصر عام ١٨٨٩ وعودة الآخر عام ١٨٩٥ ، فهو قد عاصرهما فى السنين الأخيرة من حياتهما ، ولكنه لم يتأثر بهما فى الكتابة على الأطلاق ، وإن كان قد تأثر بهما فى الحياة ، نظرا لما كتبه مؤرخوه عن صلته بمحمد عبده وتشجيع الأخير له ، ولكن محمد عبده نفسه لم يكن يكتب على طريقة المنفلوطى ، أو حتى يتخيل أنه يستطيع أن يكتب بها ، وإن كان من أشداء المساهمين فى إطلاق الكتابة من قيود عبودية اللفظ والصنعة بالرغم من ممارسته للسجع فى فترات متقطعة ، ربما على سبيل

كتاب للمنفلوطي

يؤدي إلى فصله من وظيفته وتأمر حكومة الاحتلال بمصادرته ويثير ضجة وطنية كبيرة

الفكاهة ، ومن جهة أخرى لم يكن لأسلوب المنفلوطى صلة بأسلوب ابراهيم المويلحى الذى كان يسجع أحيانا ، وكان مثل محمد عبده فى إيمانه باطلاق سراح الكتابة ، وكان أيضا على طرف نقيض مع محمد عبده فى ميله إلى السخرية والدعابة فى الكتابة ، مما لم يظهر أثره على المنفلوطى بأى شكل من الأشكال .

ولكن المنفلوطى عاصر أسلوب الطهطاوى ممتدا فى تلاميذه ، وعاصر أسلوب عبده والمويلحى ، كما عاصر بعد ذلك أصحاب الكتابة الحية ابتداء من جيل عبده والمويلحى على مستوى الصحافة ، ونعنى على يوسف صاحب جريدة « المؤيد » إلى جيل تلاميذ عبده والمويلحى على مستوى الصحافة أيضا ونعنى أحمد لطفى السيد وطه حسين والعقاد والمازنى . وكان هؤلاء وأولئك يشتركون جميعا فى سمة واحدة مهمة ، هى تحرير الكتابة من رق اللفظ والصنعة ، وربطها بالزمان والمكان والمعنى .

وهذا هو الدرس المهم الذى تلقاه المنفلوطى عن جيل عبده والمويلحى ، ثم رآه ماثلا بعدهما فى تلاميذهما ، أى فى أبناء جيله ، ومع ذلك تميز هو نفسه عن هؤلاء وأولئك بطريقة مختلفة فى التفاصيل لا فى الأساس . فالأساس واحد ، حتى على الرغم من ضعفه أحيانا أمام القديم المتهالك .

اختلاف المنفلوطى فى التفاصيل هو سر وقوفه بكتاباته كلها فى مرحلة الانتقال بين الكتابة القديمة الميتة والكتابة الحديثة الحية ، أى أنه وقف حيث وقف جيل أساتذته لا جيل تلاميذهم ، على الرغم أيضا من تفوق جيل أساتذته هذا الذى حقق قدرا كبيرا من الثقافة والوعى والخبرة بالحياة والكتابة على السواء . أما ثقافة المنفلوطى فدون ذلك بكثير ، ووعيه بالتراث والتاريخ أقل ، وخبرته فى الحياة محدودة ، ومغلقة على عكس تلاميذ أساتذته ابتداء من لطفى السيد إلى العقاد والمازنى وطه حسين ، ولكن ما هذه التفاصيل التى تضع المنفلوطى فى مرحلة الانتقال التى أشرنا اليها ؟

يمكن أن نجمل هذه التفاصيل فى أربعة عناصر :



سعد زغلول

١ ــ المادة :

كانت مادته اجتماعية فى أساسها ، ولكنها قشرية فى مظهرها ، تستهوى الجمهور البسيط الباحث عن السلوى الذهنية ، والتبرير السريع لحياته الضائعة وأحلامه المجهضة .

٢ ــ الرؤية :

كان يرى الواقع بمنظار قاتم ، ولا يراه فى شموله أو عمقه ، كما كان يميل إلى تجزئة الواقع واختيار الصور المحزنة منه ، دون تحليل أو تفصيص للجزئية التى ينقلها ، وكان خياله محدودا على عكس ما ظن البعض .

٣ ــ التناول :

كان المقال أداته الأساسية بالرغم من أنه كتب الشعر والقصة ، ولكن هذه الأداة الأساسية ظلت محدودة بحدود الخواطر التى لم يكن يعبر عنها كما يحسها ، وإنما كما تستقر فى حافظته الانشائية من الموروث والمحفوظ ، أى بالنحت فى الصور الذهنية مع التهويل والمبالغة فى التعبير فى كثير من الأحيان .

٤ ــ اللغة :

حفلت لغته بالمترادفات والتكرار والألفاظ المعجمية التى تحتاج إلى شرح ، كما حفلت من جهة أخرى بصيغ شبه ثابتة مثل المفعول المطلق والاستفهام والتعجب ، ومالت إلى الانشاء لا التعبير .

بهذه العناصر الأربعة ، وتفاصيلها ، اختلف المنفلوطى عن أبناء جيله ، ولاسيما أحمد لطفى السيد وشباب الجيل من أمثال محمد حسين هيكل والعقاد والمازنى وطه حسين وأحمد حسن الزيات وأحمد أمين ، ومع ذلك تأثر به طه حسين والزيات ــ بصفة خاصة ــ فى بعض مراحلهما الأسلوبية .

بل إنه أثر فى شباب الجيل اللاحق لهؤلاء من أمثال محمود كامل ، ونجيب محفوظ ــ فى بواكير أعماله ــ ومحمد عبد الحليم عبدالله ، وكان المنفلوطى أول أديب مصرى حديث يؤثر بأسلوبه خارج مصر .

وليس من السهل ــ بالطبع ــ أن نضع خطوطا حادة فاصلة بين مرحلة ومرحلة فى الكتابة ، فالمراحل تتداخل عادة ، ويولد جديدها من قديمها ، وقد عاش محمد عبد الحليم عبدالله ــ مثلا ــ فى جيل لم يعرف المنفلوطى أو يخالطه ، وإنما عرف كتاباته وخالطها ونشأ عليها ، فى الوقت الذى تخلص فيه نجيب محفوظ ــ مثلا ــ من أثر المنفلوطى واتبع أصحاب الكتابة الجديدة ، أى الكتابة الناهضة للكتابة المنفلوطية .

المنفلوطى والسياسة

نعود إلى ذلك الكتاب المجهول فنقول إنه كتاب سياسى من أوله إلى آخره ، ولكن ما صلة المنفلوطى بالسياسة ؟ هل كان كاتبا سياسيا مثلما كان كاتبا اجتماعيا ووجدانيا ؟

وربما يكون من المستغرب أن يبدأ المنفلوطى حياته الأدبية بالسياسة ، ولكن أغلب الظن أنه كان فى بواكير حياته شابا متحمسا يفيض بالغيرة على بلاده ومستقبلها ، ومع أنه لم يتغير من هذه الناحية بعد ذلك فقد كانت حماسته الأولى متدفقة فيما يبدو ، فى نحو العشرين من عمره ، أو أكثر قليلا ، عام ١٨٩٧ ، هاجم الخديو عباس الثانى فى قصيدة كانت لها ضجة وقضية مثيرة ، على الرغم من أنها ظهرت بدون توقيع ، وعلى الرغم أيضا من أنه لم يكن وحده ناظمها .

وفيها يخاطب الخديو بقوله :

رمتنا بكم مقدونيا فأصابنا مصوب سهم بالبلاء شديد
فلما توليتم طغيتم وهكذا إذا أصبح التركى وهو عميد (١)

■ إصلاح الإدارة والمال ورعاية العدل والحرية لا يأتي إلا من حكومة تحبها الأمة

وقد روى العقاد البيتين بصورة مختلفة ، وأضاف أن التغيير جاء في الرواية المسموعة للقصيدة ، وهي تختلف عن نصها المنشور(٢) . وكانت القصيدة قد خضعت لعملية تغيير كبيرة عند الناس والشعراء وقتها (٣) . وكان من نتيجة ذلك ــ على أي حال ــ أن قبض على المنفلوطي وحقق معه ، وحكم عليه بالسجن ستة أشهر ، وبرىء محمد توفيق البكري الذي قيل أنه شريكه في نظم القصيدة .

يبدو أن سجنه قد أثر في كتابته وسلوكه بعد ذلك . فقد استرحم الخديو بقصيدة مدح بعدها (٤) وسجل في أكثر من موضع في كتابه « النظرات » كراهيته للسياسة والسياسيين .

ومع ذلك هاجم الرئيس الأمريكي تيودور روزفلت الذي زار مصر سنة ١٩١٠ وأيد استعمارها على أيدي الإنجليز ، كما هاجم اللورد كرومر أكثر من مرة ، وتعلق بسعد زغلول مادحا ومؤيدا حتى وفاته ، وتعرض بسبب هذا التعلق إلى الفصل من وظيفته ومصادرة كتابه « النظرات » حين حاول طبعه مع بعض مقالات كتابه المجهول هذا ، بل رفض أن يحرق مقالات هذا الكتاب حين جاءه حسن نشأت وكيل الديوان الملكي ليعرض عليه وظيفة في الديوان مقابل إحراق الكتاب ، ولما رفض المنفلوطي قام نشأت نفسه باحراقه ، ثم جاءت الشرطة للتفتيش فلم تجد شيئا ، ولكن بيته ظل محاصرا أربعة أيام .

وتدعونا صلة هذا الكتاب الممنوع بسعد زغلول إلى الحديث عن صلة المنفلوطي نفسه بسعد زغلول ، وقد كانت هذه الصلة نابعة من العلاقة الشخصية بين الرجلين ، وهي كالتي تجمع بين الشيخ والمريد ، أو بين الأستاذ والتلميذ ، وقد جمعت من قبل بين محمد عبده والمنفلوطي ، فقد كان محمد عبده أستاذ المنفلوطي في الأدب والحياة ، وكان راعيه في بداية حياته ، وأغلب الظن أنه هو الذي قدمه إلى أصدقائه ومريديه ، وعلى رأسهم إبراهيم المويلحي صاحب « مصباح الشرق » الذي نشر له بواكير كتاباته ، وسعد زغلول المحامي الناجح والسياسي الواعد ــ في أواخر القرن الماضي ــ الذي كان له أفضال عديدة عليه بعد ذلك .

كان محمد عبده هو الذي تشفع عند الخديو للعفو عن المنفلوطي بعد غضبته عليه ، ولما مات محمد عبده عام ١٩٠٥ حزن عليه تلميذه المنفلوطي ، وترك القاهرة إلى بلدته « منفلوط » ولم يعد إلا في أواخر عام ١٩٠٨ ، وكان سعد زغلول أشبه بولي أمره بعد ذلك ، فحين عين وزيرا للمعارف في ذلك العام الذي عاد فيه المنفلوطي إلى القاهرة عينه محررا عربيا بالوزارة ، وهي وظيفة مهمتها ترقية أساليب الكتابة الديوانية ، ولما ترك سعد زغلول وزارة المعارف وتولى وزارة الحقانية (العدل) نقل المنفلوطي إليها ، وأسس له الوظيفة ذاتها ، ولما انتخب سعد زغلول وكيلا للجمعية التشريعية (مجلس النواب) عام ١٩١٣ جعل المنفلوطي سكرتيرا بالجمعية .

وفي مقابل هذا حفظ المنفلوطي عهده وولاءه لأستاذه ، وكتب مقالات هذا الكتاب الممنوع على مدار السنوات ١٩٢١ ــ ١٩٢٣ دفاعا عن سعد زغلول وهجوما على خصومه الذين انشقوا عليه ، بل إنه دافع عن سعد زغلول ابتداء من ثالث مقال نشره بجريدة « المؤيد » في بداية حياته ، وفي عام ١٩١٠ أصدر المنفلوطي الطبعة الأولى من « النظرات » وصدرها بعبارة وصف فيها زغلول بقوله : « ولي أمري سيدي سعد باشا زغلول » ، وبشاء القدر أن يكون يوم الاعتداء على سعد زغلول في ١٢ يوليو ١٩٢٤ هو نفسه يوم وفاة المنفلوطي ، فلما بلغ النبأ الزعيم الجريح بكى ، وصور حافظ ابراهيم الموقف في رثائه للمنفلوطي قائلا :

قد بكاك الرئيس وهو جريح
ودموع الرئيس كالرحمات (٥)

وقد مات المنفلوطي بعد نحو عام من ظهور كتابه الغفل من التوقيع هذا ، وقامت الحكومة في عهد عبد الخالق ثروت رئيس الوزراء بمصادرة الكتاب وقتها ، وفصل المنفلوطي من وظيفته . ومن الواضح أن الحكومة علمت بوسائلها الخاصة حقيقة صلة الكتاب بالمنفلوطي ، وقد حاول البعض أن يشير بأصابع الاتهام إلى طه حسين ، وأن ينسب إليه وشايته بالمنفلوطي ، فقد ذكر محيي الدين رضا ــ الصحفي والكاتب شقيق محمد رشيد رضا ــ أن طه حسين وشى بالمنفلوطي إلى وزارة ثروت حين أصدر الطبعة الرابعة من « النظرات » مضافا إليها مقالاته في الدفاع عن سعد زغلول ، وأن الحكومة صادرت تلك الطبعة ، وأحالته إلى المعاش ، حتى عينه الملك في ديوانه ثم في البرلمان (٦) .

ومع أن صلة طه حسين بثروت كانت قوية في ذلك الوقت ، وأن كتابه الممنوع « في الشعر الجاهلي » قد صدر عام ١٩٢٦ بإهداء عاطفي إلى عبد الخالق ثروت ، فليس من السهل التحقق من صحة تلك الوشاية ، ولا نعتقد أن لها قيمة في عملية مصادرة الكتاب ، وإحالة صاحبه إلى المعاش ، فلاشك أن ثروت قد عرف الحقيقة من مصادر متعددة ، وأنه اتخذ قراره بناء على موقفه المضاد لسعد زغلول ، فضلا عن رغبة القصر والانجليز ــ وقتها ــ في كسر شوكة زغلول ، فالأمر كله لم يكن موجها إلى المنفلوطي بمقدار ماكان موجها إلى سعد زغلول .

الخلفية التاريخية

ماذى أراد المنفلوطي أن يقوله في كتابه الممنوع « القضية المصرية » أو ماسميناه « انشقاق الوفد » ؟ ماحكاية انشقاق الوفد هذه ؟

سنكتفي هنا بمصدر واحد ، ولكنه جامع شامل لمصادر أخرى متعددة ، هو كتاب « تطور الحركة الوطنية في مصر » للدكتور عبد العظيم رمضان الذي درس في جزئه الأول تطورات الأحداث الوطنية في الفترة من ١٩١٨ إلى ١٩٣٦ .

ونبدأ الحكاية من أولها :

في ١٣ نوفمبر ١٩١٨ تألف « الوفد المصري » الذي سعى للتفاهم مع الانجليز حول مستقبل العلاقة بين مصر وبريطانيا بعد انتهاء الحرب العالمية الأولى ، ولايهمنا هنا أن نعرف حقيقة الخلاف التاريخي وتفاصيله حول تسلسل ظهور فكرة تأليف وفد على هذا النحو

كتاب للمنفلوطي

يؤدي إلى فصله من وظيفته وتأمر حكومة الاحتلال بمصادرته ويثير ضجة وطنية كبيرة

للمطالبة ببحث العلاقة بين البلدين وتحقيق الاستقلال لمصر. وإنما يهمنا النتيجة التى وصلت إليها الفكرة، وهذه النتيجة مؤداها أن الوفد تكون بالفعل فى ذلك التاريخ من سعد زغلول رئيسا وعضوية كل من: على شعراوى، عبد العزيز فهمى، محمد محمود، أحمد لطفى السيد، عبد اللطيف المكباتى، محمد على علوبة، وتم ذلك التكوين عن طريق الوكالة الشعبية، أى عن طريق تحرير توكيلات من مختلف طبقات الأمة، ثم ضم سعد زغلول بعد ذلك عددا آخر من المشتغلين بالقضية المصرية ــ كما كانت تسمى ــ وهم اسماعيل صدقى ومحمود أبو النصر وعبد الخالق مدكور ومصطفى النحاس وحافظ عفيفى وسينوت حنا وجورجى خياط وواصف غالى وحمد الباسل، وفى ٢٣ نوفمبر ١٩١٨ تم التصديق على قانون الوفد. وكانت المادة الثانية من القانون تنص على أن مهمته هى «السعى بالطرق السلمية المشروعة حيثما وجد للسعى سبيلا، فى استقلال مصر استقلالا تاما».

ولكن هذا السعى من أجل الاستقلال بالطرق السلمية المشروعة مالبث أن تفجر بعد ذلك فى ثورة ١٩١٩ الشعبية العارمة، وفيها تألق الوفد وقيادته وصارت لهما الزعامة الشعبية المنشودة، حتى رضخ اللورد مِلْنَرْ لتطورات الأحداث وقبل التفاوض مع الوفد وحده، بصفته الممثل الشعبى للأمة. ومع ذلك انتهت مفاوضات سعد زغلول وملنر الى طريق مسدودة بسبب مراوغة الانجليز، بل إن هذه المفاوضات شهدت أول تصدع فى الوفد المفاوض فى لندن، فقد حاول الإنجليز أن يشقوا الوفد، وأن ينفذوا من الشق الى مصالحهم، حتى نجحوا فى الحصول على موافقة عدلى يكن ــ عضو الوفد ــ على مشروع مِلْنَرْ مع بعض التعديلات، بالرغم من معارضة سعد زغلول للمشروع برمته، ثم قرر سعد عرض المشروع على الأمة وتحكيمها فى صلاحيته، وجاءت نتيجة التحكيم فى صف رأى سعد، فقد قررت الأمة ــ عن طريق مندوبيها ــ عدم صلاحية المشروع، مالم تقبل

د. طه حسين

معه التحفظات التى قيدت الأمة قبوله بها وأهمها إلغاء الحماية، التى أعلنتها بريطانيا على مصر وقت الحرب الأولى.

أصبح من الواضح بعد هذه التجربة أن هناك تيارين متعارضين فى الوفد: تيار المتطرفين بقيادة سعد زغلول وتيار المعتدلين بقيادة عدلى يكن، وكان التيار الأول يعتد بالشعب ويرفض التفريط فى حقوقه فى الحرية والاستقلال، فى حين كان التيار الآخر يأخذ بالحلول الوسط ولايريد التورط فى إغضاب الانجليز أو القصر.

وقد عاد سعد من تجربة المفاوضات غير الناجحة مع مِلْنر أكثر اعتدادا وتمسكا بالقوة الشعبية التى التفت حوله وزودته بالمزيد من الثقة بالنفس، وعند وصوله الى القاهرة فى ٥ أبريل ١٩٢١ استقبله الشعب بحفاوة بالغة.

لم يغلق تيار الاعتدال فى الوفد باب التفاوض مع الانجليز، على أى حال، فقد شرع عدلى يكن رئيس الوزراء وقتها فى جولة أخرى من المفاوضات، ويقول الدكتور رمضان فى ذلك إن المعتدلين «غرتهم كثرتهم فى الوفد فآثروا الصدام مع سعد زغلول فى قمة شعبيته وتأييد الأمة له. فكان هذا الصدام بداية مرحلة صاخبة فى حياة مصر الداخلية، أرسيت فيها كل تقاليد الصراع الحزبى العنيف والخصومة الحادة التى طبعت حياة مصر حتى قيام ثورة ٢٣ يوليو» (٧).

وقد وقع الصدام بين عدلى وسعد بسبب الخلاف حول شروط الأخير للاشتراك مع وزارة الأول فى المفاوضات. وكانت الشروط هى إلغاء الحماية والأحكام العرفية والرقابة على الصحف. والحصول على اعتراف بالاستقلال التام، مع الاحتفاظ للوفد بأغلبية المفاوضين ورئاسة الوفد المفاوض واستصدار مرسوم سلطانى بتحديد مأمورية المفاوضين، وكان شرط رئاسة الوفد وتحكمه فى الأغلبية هو السبب فى الصدام، فقد رفض عدلى وتياره المعتدل هذا الشرط بحجة أنه رئيس الوزارة وأن الأمر لايستحق التحزب، وقرر الاستمرار فى المفاوضات.

يقول الدكتور رمضان مرة أخرى إن عدلى كان يدرك الخلاف فى صفوف الوفد، وأن سعد لو أصر على موقفه من طلب عدم الثقة بالوزارة، فإن النتيجة سوف تكون انشقاق الوفد وتفتيته. كما كان يدرك أن فى انشقاق الوفد ضعفا لسعد وقوة له هو شخصيا، وهذا ماحدث، ولكن النتيجة كانت ضعفا لعدلى والمنشقين، وقوة لسعد وأصحابه، وهكذا تفاوض جورج الخامس مع جورج الخامس كما قال سعد زغلول. فقام عدلى رئيس الوزارة وأحد موظفى الحكومة الانجليزية كما سماه سعد بالتفاوض مع الحكومة الانجليزية التى ترعاه وتحفظ له وظيفته، ومع ذلك لم يصل الى شيء أكثر مما وصل إليه سعد من قبل، ولكن أخطر شيء كان الانشقاق وانسحاب عدد كبير من الوفديين الأوائل عن زعيمهم، ولم يبق مع سعد سوى نفر قليل مثل النحاس وغالى وحنا وواصف، وتفرع المنشقون الى مجموعتين: مجموعة أعضاء حزب الأمة القديم وأنصارهم. وقد كونوا حزب الأحرار الدستوريين فيما بعد، ومجموعة أخرى من أعضاء الحزب الوطنى الذى أصبح يمثل السلبية فى السياسة على حد قول الدكتور رمضان، وفوق هذه وتلك علا نجم الملك فؤاد كقوة تهدد سلطة الشعب وحقوقه، ومضى عدلى يكن فى تحديه لمشاعر الأمة وسلطتها، غير آبه بالمظاهرات التى اجتاحت البلاد ضده

وفشل في مفاوضاته مع الانجليز ، وكانت النتيجة النهائية هي نفي سعد زغلول وصدور تصريح ٢٨ فبراير ١٩٢٢ . ولكن روح ثورة ١٩١٩ لم تخمد (٨) .

مع سعد ضد الانشقاق

هذا هو مجمل الأحداث التي استفزت مشاعر المنفلوطي ، وأخرجته ــ مرة أخرى ــ عن سياق كتاباته الوجدانية والاجتماعية التي عرف بها . ولم يكن السر وراء استفزاز مشاعر المنفلوطي سوى فزعه من الخطر الذي هدد الوحدة الوطنية للأمة وزعمائها في وقت واحد ، وتمثلت آثار هذا الاستفزاز في ١٣ مقالا شكلت كتابه الصغير الممنوع .

والآن : ماذا يقول المنفلوطي في كتابه هذا أو في مقالاته هذه ؟

لقد استهل المقالة الأولى بعنوان « العاصفة » برشاش من الصور البيانية التي عهدناها في مقالاته غير السياسية . يقول :

« إن قلبي يرتعد خوفا وفرقا ، أسمع قعقعة في جوف السماء فهل هي نذير العاصفة التي يريد الله أن يرسلها علينا ؟ أرى الوجوه شاحبة ، والعيون حائرة ، والجباه عابسة ، فهل شعر الناس بويل مقبل انقبضت له صدورهم ، واقشعرت له جلودهم ؟ ماهذا المنظر المرعب المخيف ؟ ماهذه الضوضاء المرتفعة بالمجالات والمناقشات في المجتمعات العامة والخاصة ؟ ومن هم هؤلاء الذين يتصارعون ويتجاذبون ، ويبغي بعضهم على بعض ؟ إن كانوا مصريين فويل لمصر وأهلها ومستقبل الحياة بعد اليوم ، هذا هو شأن الأمم البائدة في أدوار سقوطها واضمحلالها ، وفي ساعة وقوفها على حافة الهوة العميقة » .

بهذه المقدمة المنفلوطية المعهودة يمضي الرجل الذي كان يُبكي الناس باللغة والبيان ، ويستطرد ، ثم يستطرد كعادته ، حتى يبلغ الحديث عن سعد زغلول في صراعه مع خصومه المعتزين بالقوة الأجنبية على حد تعبيره ، ويجد أن البلاد قد تقاسمتها قوتان هائلتان : قوة العدو الخارجي المستترة ، وقوة العدو الداخلي الظاهرة ، وكلاهما تسلم للأخرى ، وهما معاً يدعواننا إلى قوة أعظم تخلصنا منهما ، فلا الإنجليز ولا خصوم سعد أفضل لمصر ، وليس لهما دواء سوى « قوة العقيدة الراسخة ، والايمان الثابت ، والثقة بالنفس ، والأمل الواسع ، والثبات على المبدأ » .

■ القائد الحقيقي يُربي الشعب على الفضيلة وشرف الخُلق ، ويثبّت فيه روح الهمّة والعزيمة والصدق

■ رجل واحد من أبناء الأمة يتمسك بالحق .. في استطاعته أن يثبت أمام أقوى قوّة في العالم

وهو يتهم الانجليز بأنهم سبب تفريق الوحدة الوطنية « الشريفة » التي هي الحياة والروح وخير ما استفدنا من جهادنا ، لأن النهضة التي نهضتها مصر لم تكن رواية تمثيلية ، والشرق لم يشق بالجهل ولا بالضعف كما يقولون ... بل لأنه يوجد في كل شعب من شعوبه أمثال هؤلاء الأقوام (يقصد خصوم سعد) الذين ابتلينا بهم في مصر ، خبثاء الأغراض والمقاصد ، موتى العواطف والمشاعر » .

ولكن المنفلوطي لاينهي المقال بالدعوة إلى محاربة هؤلاء المنشقين الخارجين كما قد يتوقع قارئ المقال ، فهو يرى أن الانجليز قوة لاقبل لنا بها ، وأن هذه القوة تحميهم . بل لايرى أن يجادلهم الناس فيما اعتنقوه لأنهم من السماجة والصفاقة بحيث يستطيعون إنكار أن الأرض أرض والسماء سماء ، وليس عنده من دواء إزاءهم سوى الإعراض عنهم ، وهذه رؤية الأديب صاحب الخيال لا السياسي صاحب المواقف .

في المقالات الثلاثة التالية بعنوان « إلى خصوم سعد باشا » يحمل المنفلوطي هراوة ضخمة ، وينزل بها على رؤوس المنشقين ، فهو يعد سعد زغلول « خصم السياسة الانجليزية في مصر » وخصومه أصدقاء تلك السياسة ، ويفضح تشدق هؤلاء بالوطنية ، لأن دعوى الوطنية عنده قد أصبحت كلمة بسيطة تنطق بها جميع الناس في مصر بما في ذلك « سكينة » مجرمة الاسكندرية التي زعمت أنها « كانت تخدم الوطن بقتل النساء العاهرات ليعتبر بمصرعهن الحرائر الشريفات » ، فهي دعوى محتاجة دائما إلى برهان على حد قوله ، وبرهانها الوحيد عنده هو « مجافاة السياسة الانجليزية » ، أي مناصرة سعد زغلول .

ولذلك يطالب المنشقين ببرهان واحد على وطنيتهم ، هو أن يعقدوا اجتماعا عاما يعلنون فيه الاحتجاج الشديد اللهجة على بقاء الأحكام العرفية في مصر والقوانين الاستثنائية ، وقانون المطبوعات ، وتقييد حرية الخطابة والكتابة ، ومنع المظاهرات السلمية والاجتماعات السياسية ، واعتبار الوطنية جريمة تعاقب عليها المحاكم العسكرية والنظامية ، ثم يطالبهم بعد إعلان هذا الاحتجاج بأن يختتموه بهذه الكلمة :

« إنا لانقبل مفاوضة سياسية تجرى بين فريقين ، أحدهما سجين في سجن مظلم ضيق ، لايستطيع التنفس فيه ولا الحركة ، والآخر سجان قاس مستبد يجرد على رأسه سيف القوة والقهر ، ويملي عليه مايريد ويشتهي » .

وفي المقابل ، إذا لم يفعل المنشقون هذا ، فهو يستأذنهم في أن يعدهم الشعب أعداءه ، وأن يلوذ بالاخلاص للرجل الذي يجاهد في سبيل شعبه وأمته ، وهذا الرجل نفسه ــ سعد زغلول ــ لن تتخلى عنه الأمة مادام واقعا تحت سخط السياسة الانجليزية وما دام باقيا في صفوف الأمة ، وهنا يعلن المنفلوطي أن سعداً ليس خصم المنشقين ، وإنما خصومهم هم

كتاب للمنفلوطي

يؤدي إلى فصله من وظيفته وتأمر حكومة الاحتلال بمصادرته ويثير ضجة وطنية كبيرة

أولئك الذين يغرونهم به ويسلطونهم عليه ، لأنهم ــ الانجليز ــ يعلمون أن « الأمة لاتفلح بغير زعيم » .

ويحلل المنفلوطي بعد ذلك الأيادى الثلاث التى لسعد زغلول على الأمة :

١ ــ تأسيس الوحدة المصرية التى عجزت عنها القرون الثلاثة عشر الماضية .

٢ ــ نقل الفكرة الوطنية من دور الأمانى والأحلام إلى دور الجد والعمل .

٣ ــ نشر الدعوة الوطنية فى أنحاء العالم كله حتى وجدت فيه مسألة تسمى « المسألة المصرية » .

فى المقابل أيضا لايجد المنفلوطى لخصوم سعد شيئا من المنن ، بل يجد كل مايسىء إليهم ومايسىء منهم إلى وطنهم ، ويشرع فى مقارنة طويلة بينهم وبين الزعيم ، ومن المقارنة قوله بطريقته المعهودة التى ازدادت هنا حماسة وخطابية :

« سعد باشا يصيح فى جميع مواقفه ومشاهده قائلا : يجب أن يكون الشعب حرا مطلقا ، يختار لنفسه السياسة التى يريدها . وأنتم تصيحون قائلين : يجب أن يساق الشعب إلى السياسة التى تراد منه ، لأنه شعب جاهل منحط لايفهم مصلحته ، ولايستطيع تقديرها ، سعد باشا يربى الأمة على الفضيلة وشرف الخلق ، ويبث فيها روح الهمة والعزيمة والأنفة والصدق والصراحة والشرف والإباء وأنتم تفسدون أخلاقها وتمزقون أديم آدابها ، وتطلبون من القاضى أن يحكم بغير مايعتقد ، ومن الشاهد أن يشهد بغير مايعلم ، ومن الفقيه أن يفتى بما يخالف أحكام دينه وقواعده... سعد باشا يقول فيصدق ، وماعرفنا له أكذوبة قط مذ عرفناه ، واتصلنا به حتى اليوم ، وأنتم تطلعون علينا كل يوم بأكذوبة جديدة لاينتهى العجب منها حتى تتبعها أختها ، حتى سقطتم من أعيننا سقطة لم تسقطها طائفة من قبلكم ، وحتى قال عنكم أصحاب الرأى من الشيوخ المحنكين إنكم قد أفسدتم من أخلاق الأمة فى بضعة شهور فوق ماأفسد الاحتلال الانجليزى منها فى أربعين عاما » .

وعلى هذا النحو يمضى فيقارن عمل المنشقين بعمل محاكم التفتيش فى اسبانيا ، وتشتد لهجته عنفاً فيصف عدلى يكن بأنه « طريد الأمة وشريدها » ويتهم أنصاره بالطمع والشره والأنانية والعمالة للاستعمار.

فى المقال التالى ــ الخامس ــ بعنوان « اليوم الأسود » يذكر المنشقين بجرمهم الذى ارتكبوه فى مدينة أسيوط حين سلطوا زبانيتهم على سعد ورجاله يريدون إغراقهم فى النيل ، ويعد ذلك يوما أسود ، ويعدهم « رؤساء عصابات » ، ويعد حزبهم الذى حاولوا تكوينه « فئة من اللصوص المجرمين حملة الهراوات والنبابيت » ، بل يعدهم « بلهاء » ثم يضيف :

« لم يتكون حزب سياسى فى مصر تحت زعامة عدلى باشا ، والناس لايعرفون من أمر الرجل شيئا سوى أن السياسة الانجليزية اختارته لرئاسة الوزارة ، والمفاوضة فى المسألة المصرية ، فإن ذكر ذاكر منهم شيئا من ماضيه لايذكر له سوى أنه كان عضوا مهما فى وزارة الحماية التى ضربت على مصر فى سنة ١٩١٤ ، وأنه أول من ثغر فى جنح الظلام ذلك السد المتين الذى أقامته الأمة المصرية فى وجه لجنة ملنر وأنه أول رئيس وزارة اجترأت على مفاوضة الانجليز فى المسألة المصرية رغم إرادة الأمة وإرادة وكلائها » .

ويصل فى مقاله التالى بعنوان « جريمة الانشقاق » إلى التعليق على فشل عدلى يكن فى مفاوضاته الرسمية وما عرضه عليه الإنجليز بصورة أقل من الصورة التى رفضها سعد زغلول من قبل ، ويطلب من عدلى وشيعته الذين فرقوا وحدة الأمة ألا يلوموا سوى أنفسهم ، لأن سعداً حذرهم فلم يسمعوا ، ونورهم بالحق فلم يذعنوا ، فى حين « أن لاقوة فى مصر غير قوة الشعب ، ولا حكم فيها إلا حكمه »

فى المقال التالى ــ السابع ــ بعنوان « عبرة الدهر » يستخلص المنفلوطى من فشل عدلى وأصحابه فى المفاوضات مع اللورد ملنر ثم مع اللورد كيرزن عبرة تتلخص فى « أن رجلا واحدا من أبناء أمتكم ــ يقصد سعداً ــ تمسك بالحق فاستطاع أن يثبت أمام أقوى قوة فى العالم ، وأن ثباته قد أنقذ مصر من أعظم نكبة » ، وفى المقالين التاليين بعنوان « إلى أعدائنا » يوجه الخطاب إلى الإنجليز ، ويصفهم بأنهم قوة لاتوجد فى العالم قوة أخرى توازيها ، ولكن مصر على ضعفها وخلو يدها من السلاح أقوى منهم ، والسبب هو أن الانجليز حاربوا مصر بسلاح الخديعة والمكر الذى انتصروا به من قبل على شعوب الشرق ، ومع ذلك استطاع هذا الشعب الشرقى الصغير أن يدرك خبايا مقاصدهم .

ثم يناديهم : « اقتلونا ولكن بأيديكم لا بأيدينا ، ألفوا الوزارة ولكن من رجالكم لا من رجالنا ، أملكوا علينا كل شىء إلا قلوبنا وأفئدتنا ، احكمونا باسم الأحكام العرفية والأساليب االعسكرية ، لا باسم القوانين الشرعية والأحكام السماوية والأرضية ، افتخروا بأنكم قمعتم الحركة المصرية ، وأنكم أخفتم الناس وأرهبتموهم ، ولكن لاتفخروا بأنكم حللتم مشكلة مصر ، وفرغتم من قضيتها » .

ويسأل المنفلوطى الانجليز عن جريرة الرجل الذى حكموا عليه بالنفى ــ سعد زغلول ــ مع أنه من فريق الدعاة لا من فريق الثوار على حد قوله ، كل ذنبه أنه طالب بحق بلاده بالحجة والبرهان ومع ذلك لم يرحموا شيخوخته ومرضه ، ثم يذكرهم بأنهم كانوا يفاوضون بالأمس ، وصاروا يشردون الزعماء اليوم . وينهى مقاله الأخير بنداء :

« سنأكل الشيح والقيصوم إن عز الطعام إلا من أيديكم ، ونلبس الجلود والفراء إن أقفرت الأرض إلا من مصانعكم ، ونشرب الملح الأجاج إن أبى العذب الزلال أن ينبع إلا فى أفقكم ، ونعيش فى الظلمة الداجية إن أبت الشمس أن تشرق إلا من آفاقكم ، وسنخلع عن أرضنا ثوب الخصوبة والجمال ، ونلبسها ثوب القحط والجدب ، لنقطع السبيل على مطامعكم ، ونكدر عليكم صفاء العيش بين ظلالها وأمواهها ، غير شاكين ولا متبرمين ،

رجل واحد من أبناء الأمة يتمسك بالحق.. في استطاعته أن يثبت أمام أقوى قوة في العالم

فلا خير فى نعمة يكدُرها الذل ، وبُعداً لماء لا يشربه شاربه إلا ممزوجا بدم ».

فى المقال التالى – العاشر – بعنوان « إلى سعد باشا فى منفاه » يقدم المنفلوطى بطريقته المعهودة ترنيمة حب وعزاء للزعيم المنفى ، ويضفى عليه كل ما أمكنه من صفات وخِلال ، ويخاطبه بكلمة « مولاى » ، والمقال كله قطعة إنشائية منفلوطية نموذجية ، ثم يمضى فى المقال التالى بعنوان « فى أى سبيل هذا ؟ » فيذكر الزعيم المنفى بما جناه « المعتدلون » . ثم يذكر بما جنت أيديهم فى حق البلاد وحق زعيمها .

وفى المقال التالى أيضا بعنوان « ثم ماذا ؟ » يمضى مرة أخرى فى نكيره على المنشقين بعد أن بلغت الشدة منتهاها فى أواخر عهد الوزارة الثروتية ، على حد تعبيره ، نسبة لعبد الخالق ثروت ، ويذكرهم بما تحتاج إليه الأمة من توحيد الكلمة والدستور والبرلمان ، وإصلاح المال والإدارة والعلم ، ورعاية العدل والحرية . ولكن هذا كله لا يأتى إلا من حكومة تحبها الأمة ، ومع ذلك فهو لا يطالب المنشقين بالانسحاب من الحكم ، وإنما يطالبهم بألا يتعرضوا لقضية مصر السياسية بوجه من الوجوه ، وإلا فليعلنوا أن المسألة المصرية حكومية محضة لا دخل للأمة فيها .

وفى المقال الأخير – الثالث عشر – يخص سعد زغلول بالتحية والتهنئة بسلامة العودة من المنفى ، ويخاطبه على نحو يذكرنا بما فعله توفيق الحكيم فى « عودة الروح » قائلا : « مرحبا بالأمة فى رجل ، والعالم فى واحد :

والبطل الذى تمر به الحوادث الجسام التى تطير بألباب الرجال فيثبت ثبات الصخرة الصماء فى وجه الرياح الهوجاء ... إننا نحييك يامولاى فنحيى فيك الشرف والنبل ، والهمة والشجاعة ، والصبر والجلد ، والإخلاص والوفاء ، والتضحية الشريفة ، والألم الصامت ، ونحيى فيك مصر القديمة لأنك




عدلى يكن

توفيق الحكيم

ولدها النجيب ، وورثت صفاتها ومزاياها ، ومصر الحديثة لأنك واضع أساسها ، وغارس غرسها ، ونحيِّى معك تلك السيدة العظيمة المجاهدة الصابرة شريكتك فى نعمائك وبأسائك ومعينتك على همومك وآلامك .. »

بهذه العبارة الأخيرة وما تلاها من ترادف الحب والتحية ينتهى كتاب المنفلوطى المجهول ، والكتاب كله ، بمقالاته الثلاثة عشر ، يمثل المنفلوطى نفسه خير تمثيل فى رؤيته وتناوله ولغته ، أما مادته فهى هنا مادة سياسية فى الأساس ، ولكنها تطوف بالتاريخ والاجتماع ، وإذا عدنا إلى رؤيته الحزينة القاتمة التى نعهدها فى كتاباته الأخرى فالرؤية هنا حزينة وقاتمة أيضا ، فهو قلق وحزين على مستقبل البلاد فى أيدى المنشقين ، وهو أيضا متشائم يرى المستقبل كئيبا بدون سعد زغلول ، بل إن تناوله لموضوع ذلك الانشقاق الخطير فى صفوف الوفد لم يخل من العاطفية المسرفة والمبالغة والاستطراد .

ولم تخل لغته أيضا من التكرار والترادف ، والتضمين من القرآن والشعر ، والخطابية ، والازدواج وأدوات الاستفهام والاستدراك .

وبهذه الخصائص كلها يصبح الكتاب وثيقة أدبية مثلما هو وثيقة سياسية ، وهو وثيقة أدبية تتعلق بانتاج المنفلوطى من ناحية ، وهو أيضا وثيقة سياسية تتعلق بوطنية المنفلوطى وعصره من ناحية أخرى ، وهو أخيرا درس من دروس الوطنية .

على شلش

هوامش

١ – محمد أبو الأنوار (الدكتور) : مصطفى لطفى المنفلوطى ج ٣ ، مكتبة الشباب ، القاهرة ، ١٩٨٦ ص ٢٩١ .

٢ – عباس العقاد : رجال عرفتهم ، كتاب الهلال ، القاهرة ، ١٩٦٣ ، ص ١٠٢ . وقد أورد العقاد البيتين – من الرواية المسموعة – على الصورة التالية :

رمتنا بكم مقدونيا فأصابنا
سهام بلاء وقهر شديد
فلما توليتم طغيتم وهكذا
إذا أصبح القولى وهو عميد

٣ – أبو الأنوار : المصدر السابق ، ص ٤١ – ٥٢ .

٤ – أبو الأنوار ، المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٤١ – ٤٢ .

٥ – المصدر نفسه ، ص ٨٠ .

٦ – أحمد عبيد : كلمات المنفلوطى ، المكتبة العربية ، دمشق ، ١٩٢٤ ، ص ١٣٨ .

٧ – عبد العظيم رمضان (الدكتور) : تطور الحركة الوطنية فى مصر من ١٩١٨ الى ١٩٣٦ ، دار الكاتب العربى ، ١٩٦٨ ص ٣٢٠ .

٨ – المصدر نفسه ، ص ٣١٦ وما بعدها .

المرض الذي رفض الاستسلام للطب الحديث



الزكام

مفاهيم حديثة تلغي معظم معلوماتنا السابقة

بقلم الدكتور: عبدالله الباكر

أضواء على الزكام «البرد»

يعتبر الزكام من أقدم الأمراض وأكثرها انتشاراً على مر الأزمنة ، ولا يكاد يخلو منه منزل على طول العام ، ومن النادر أن يمر عام على أحد دون الاصابة به ولو على شكله الخفيف ، ومن الناس من يصاب به أكثر من ثلاث أو أربع مرات في العام ، وقد يصل إلى ١٠ مرات في الأطفال . ويشير التقييم الحديث إلى أن أمراض الجهاز التنفسي الحادة تشكل أكثر من نصف جميع الأمراض الحادة المعوقة وأن الزكام يعتبر أكثرها حدوثاً ، في الولايات المتحدة تتم الاصابة بمعدل مائة مليون حالة معوقة سنوياً ، حيث ينتج عنها في المعدل ٢٥٠ مليون يوم من النشاط المحدود و ٣٠ مليون يوم ضائعة من العمل أو المدرسة ، وتقدر مبيعات الأدوية والوصفات التي تباع من غير روشتة بمليار دولار سنوياً ، والأمر لا يقل عنه خسارة في بقية البلدان التي لديها احصائيات دقيقة والتي ليست لديها هذه الاحصائيات أيضاً ، هذا بالاضافة إلى المصاريف والتعقيدات التي قد تحدث من جراء الوصفات الشعبية والنصائح المختلفة .

■ مازلنا نتصور أن سبب هذا المرض هو برودة الجو

■ جهاز التكييف يحمي جسم المصاب من فقدان السوائل في الحر

■ هنالك أكثر من ٢٠٠ فيروس في العالم تسبب الزكام

■ الاتصال بالأيدي أخطر من الانتقال الهوائي لهذا الفيروس



تتحول أنوف الأطفال الى مخازن هائلة للفيروس أثناء المرض

إن الزكام هو أحد أبرز الأمراض التي يكثر فيها اجتهاد المجتهدين والخائبين على حد سواء.. والسبب في ذلك كان عجز الهيئات الصحية عن ايجاد الحلول المناسبة، فلقد استعمل الأقدمون النزف كعلاج له، ورأى أبو قراط أنه علاج عقيم، وفي القرن الأول للميلاد دعا أحد التلاميذ المجتهدين «بليني» الى تقبيل الخطم «الأنف» الشعري للفأر كوسيلة للعلاج، بينما وصف البعض بعدها شوربة الدجاج كعلاج للأمراض، ومنها أخذت فكرة استنشاق الهواء المشبع بالبخار الحار، وجاء الأطباء الشعبيون بقاموس الأعشاب لدرجة أنك لو فتحت كتاب الدكتور أمين رويحة وبحثت في الفهرس لوجدت فقرة عن الأنف تحتوي على النباتات التي تستعمل لعلاج الزكام وأهمها «البصل، الخمان الأسود، بابونج، قسطل الفرس، زنبق الوادي، حلبة، صعتر، زيزفون، غافث، مردقوش ونعنع، وهذه غالباً تستعمل على هيئة لبخة أو للاستنشاق أو للشرب أو كمستحلب».. وهذه الوصفات مأخوذة من الطرق التقليدية القديمة، ولذا فليس من المستغرب إذا كانت الدول المتقدمة أيضاً تستعمل مختلف الوصفات حتى الآن حيث تجد ذلك في كتاب حديث أصدرته «باربارا جريجز» وهي مستشارة معروفة لمجلة الصحة الجديدة الصادرة في انجلترا، ويعتمد الكتاب على الأعشاب والمواد المصنوعة منها وعلى مبدأ «أخرجْهُ عن طريق العرق» «Sweat it out». وهذه الطرق الشعبية غالبيتها تستعمل العسل والسكر والليمون في غالبية الوصفات بالاضافة إلى البصل والثوم بكثرة لأنهما يساعدان على عدم العدوى بسبب ابتعاد المصابين عنا.

ولقد شاركت الهيئات الطبية بما لديها من أدوية، بالمسكنات والمبيدات ومهبطات الحرارة وفيتامين جـ إلى أن أشركت أخيراً مركبات الزنك في التأثير على المرض وتقليل مدة الاصابة به، فهل يا ترى سيستمر بنا الحال

الزكام

مفاهيم حديثة تلغي معظم معلوماتنا السابقة

على هذا المنوال ؟ وهل سيظل علاج هذا المرض الشائع خاضعاً للقصص والحكايات وخبرات الجدود ؟ وهل سيبقى عصيان هذا المرض عن الاستسلام لقوة التقدم في الطب الحديث زمناً أطول ؟ وهل سيقبل الطب القول الشعبي المتداول في أوروبا والذي يردده حتى الأطباء بأن «أعراض الزكام إذا عولجت بحزم وقوة ستختفي خلال سبعة أيام ، بينما إذا تركت لشأنها ستختفي في مدة أسبوع» ؟!

لقد تعلمنا الكثير عن هذا المرض ، وبالذات في الثلاثين سنة الأخيرة ، وبدأ الطب يضع أقدامه عند البدايات الصحيحة على طريق مواجهة المرض ، وسنحاول هنا أن نستعرض ذلك للاستفادة من تلك الخطوات ، حتى يتم لنا الانتصار النهائي على هذا المرض .

علاقة البرودة بالزكام

إن الكثير من الحكايات والأساطير التي تروى حول الزكام سببها شيوع هذا المرض وانتشاره بيننا ، ولأن كل واحد فينا له تجربته الخاصة المتكررة على مر السنين بالنسبة للاصابة أو الأعراض أو التعقيدات ، الأمر الذي أدى إلى الاجتهادات والتوصيات الشخصية المختلفة لمقاومة هذا المرض ، وما دمنا نسمي هذا المرض بضربة البرد أو البرد العام فإن الأذهان لن تتخلى عن التصور بأن هذا المرض سببه برودة الجو سواء في الخارج أو في داخل البيوت والمكتبات والسيارات المكيفة ، والحقيقة التي تقال أن البرودة في حد ذاتها ليست سببا ، ولم تجد الدراسات التي أجريت ما يشير إلى دور برودة الجو.

إن الآراء العلمية المتوفرة في مختلف البلدان وعلى جانبي المحيط الأطلسي بالذات متفقة على أن التعرض إلى الهواء البارد أو الماء البارد لا يقلل مناعة الأنف لفيروسات الزكام ، أو أنه يؤدى الى تنشيط إصابة كامنة لهذه الفيروسات وأن ارتباط المرض بالبرودة ناتج عن الحدوث الفصلي لهذا المرض فهو أكثر في الخريف والشتاء منه من الصيف بالذات في نصف الكرة الشمالي خاصة وأن تلك الفترة ترتبط بعودة الأطفال للمدارس ، وهناك ينتقل إليهم الفيروس الجديد ، ومن خلالهم ينتشر المرض ، وفي هذا الفصل يزداد بقاء الناس داخل بيوتهم مما يؤدي إلى زيادة احتكاكهم ببعضهم البعض وبالمرض وبالأشياء التي يستعملونها ويلوثونها . هذا بالاضافة إلى أن الزكام قد يصاحبه قشعريرة نتيجة رفع الجسم لحرارته ليقضي على الفيروس بداخله ، وتحدث أيضاً عند تعرضنا للبرودة .

ومن الدراسات المعروفة في أمريكا والتي تشابهها دراسات أجريت في انجلترا وسالزبوري هي دراسة Gwaltny etal إذ قام بتلقيح متطوعين بوضع فيروس البرد في أنوفهم ، ووضع مجموعة منهم في غرفة باردة أو حمام بارد لمدة ٩٠ ــ ١٥٠ دقيقة وهم يلبسون فقط سروالاً قصيراً من القطن ، ومجموعة أخرى تركها كمجموعة مراقبة ، فلم تحدث نسبة في الاصابة في الذين تعرضوا للبرودة أعلى من المجموعة الأخرى .

وبهذا تكون النتيجة واضحة : إذ أن برودة الجو ليست لها علاقة سببية بالزكام ، وأن الذين يصيبهم ما يشبه البرد ــ وهو نوع من الحساسية في الأنف ــ سببه تعرضهم لمواد موجودة في الجو كالغبار وطلع الأشجار وغير ذلك من المسببات للحساسية بشكل عام ، وأحياناً لوجود نوع من الفطر في المكيفات التي لا تتعرض للصيانة والنظافة الدائمة وبالذات مكيفات السيارات فلقد وجد Pkumar et al من كلية الطب جامعة لويزيانا في دراسة شيقة وقيمة أن هذه المجموعة من المرضى تظهر أعراضهم بعد ١٥ ــ ٣٠ دقيقة من تشغيل مكيف السيارة ، وأن هذا لا يحدث لهم في العطلة الأسبوعية ، وبتتبع هذه الحالات باستعمال مجموعة من الفحوص الناجحة ، وفي مجموعات مختلفة من السيارات وجد أن الفطر قد لا يوجد في مخرج التكييف فقط بل في مناطق أخرى من جهاز التكييف بما في ذلك ثقوب «الفلتر» .

هذا هو دور التكييف في التهاب الأنف الحساسي إن وجد لا أكثر ، لذلك يجب أن لا ندخل في فترة الصيف الحار إلى بيوتنا لنوقف المكيف متهمين اياه أنه المسبب للبرد لنا ولعائلاتنا بينما هو المرطب والمريح وهو الذي يحمينا من فقدان السوائل والجفاف .

السبب الحقيقي للزكام

أخيراً نستطيع أن نقول أن من الأمور الراسخة أن الزكام أصله فيروس ، إذ أنه منذ إحدى وسبعين عاماً افترض W. Von Kruse وهو أحد العلماء الألمان أن الزكام سببه فيروس ، وقد قام بتجربة على متطوعين ليثبت هذه الفرضية لكن دون أن يعزل الفيروس ، ولم يؤيد رأيه أحد آنذاك حتى أتى A: R: Doches ليؤكد ذلك عام ١٩٣٨ ، وبدأت فكرة الفيروس كمسبب تغزو الأوساط العلمية حتى عزل Mr. Hiuman أول فيروس عام ١٩٥٣ . ومع هذا العزل دب الأمل في الأوساط العلمية في ايجاد طعم مناسب لهذا الفيروس ، حتى اكتشف فيروس آخر ، وهكذا كلما اكتشف فيروس كلما تضاءل الأمل وقل التفاؤل بامكانية اكتشاف طعم مضاد يقي العالم شر هذا المرض ، فلقد اكتشف حتى الآن مائتي فيروس يشتركون في احداث الزكام ، ولربما يكون هناك أكثر من ذلك لم يكتشف حتى الآن ، لكن الغالبية من هذه الفيروسات وتشكل ما يقرب من ٥٠٪ هي من عائلة الفيروس الأنفي (R.V) وهذه الفيروسات أيضاً لها فروع ، وبالرغم من أنها تشكل هذه النسبة إلا أن الاصابة بها أخف من الباقي وقليلاً ما تتعدى منطقة الأنف لتصيب الأجزاء الأخرى من الجهاز التنفسي . أما النوع الآخر ويشكل من ١٥ ــ ٢٠٪ من الفيروسات هو من عائلة (C.V) وتتوزع النسب الباقية على مجموعات أخرى مختلفة وأن التقدم في دراسة أسباب الزكام كشف أيضاً أن هناك عوامل لها علاقة بالاصابة بأنواع معينة منها كالفصول والسن والتهيئة البيئية لدرجة أنه في بعض الأحيان هناك احتمال بتوقع نوع الفيروس بناءً على هذه المعلومات .

إن الخبر المهم هو أن نهاية العام ١٩٨٥ حملت لنا أخباراً مهمة عن الفيروس ، فلقد استطاع العلماء في أمريكا أن يضعوا تخطيطاً لطبوغرافية الفيروس الأنفي ١٤ (RV—14) حيث استعملوا لأجل ذلك نوعاً من الأشعة ذا طاقة عالية ، وهو ببساطة يشبه شكل مصغر لكرة القدم ، وغلافه البروتيني الخارجي مجسم ذو عشرون وجه ، وتوجد على كل جهة ثلاثة مثلثات بروتينية متشابهة ، وهذه تحمل مولدات المضاد (Antigen) .

إن المهم في هذا الاكتشاف هو وجود شق أو منحدر على الوجوه العشرين لهذا الفيروس ، ويعتقد أنها تناسب المستقبلات على سطح الخلية Receptors فإذا تمكن العلم من اكتشاف نوع من مضادات الأجسام لسد هذا

الشق ، فإن هذا سيمكننا من منع العدوى والاصابة بالميكروب أو لربما نستطيع أن نصنع دواء جديداً يستطيع أن يغلف المستقبلات على سطح الخلية ، وبذلك نمنع التصاق الفيروسات بها . ونحن نعلم من دراستنا الحديثة أن كثيراً من فيروسات الأنف تشترك في نفس المستقبلات على الخلية .

ومن الأمور المشجعة أيضاً بالنسبة للدراسات والبحوث أن هذا الفيروس من أبسط الفيروسات الحيوانية ، وبالامكان انتاج كميات كبيرة منه مقارنة بالفيروسات الأنفية الأخرى .

انتشار المرض

إن المعلومات الحديثة عن طرق وسرعة وقدرة انتشار الفيروس أصبحت واضحة وكاملة . ويعتبر الباحثون هذا الوضوح من الأمور المهمة لوضع برنامج وقائي متكامل .

ومن المعروف أن الافرازات الأنفية الزائدة ليست إلا طريقة للتخلص من الفيروس الذي يسقط بعد انفجار الخلية التي امتلأت به . إذن يصبح من الواضح أن وسيلة الانتشار هي هذه الافرازات عن طريق واحدة من الطرق الثلاثة :

عن طريق الكحة والانتشار الهوائي للحبيبات الكبيرة ، أو عن طريق الكحة والعطس ، أو عن طريق الاحتكاك المباشر واللامباشر بالأدوات الملوثة بالفيروس .

وكان الاعتقاد السائد حتى فترة قريبة جداً أن الانتقال الهوائي هو السبيل الأول للانتقال . لكن الدراسات الأخيرة بينت أن الانتقال عن طريق الاتصال أو الاحتكاك هو أهم الطرق وأكثرها قبولاً بالنسبة لفيروس الزكام وأن اليد تمثل المسئول الأول . وكانت سلسلة الدراسات لتي قام بها Gwaltny and J. Ohendley من الوثائق الأساسية لتدعيم هذا الرأي ، إذ وجدا :

• أن ١١ مُستقبلا « غير مصابين » من أصل ١٥ قد أصيبوا من خلال الاتصال بالأيدي مع المصابين . وأن واحداً من عشرة وواحدة من اثنى عشرة مستقبلا أصيبوا فقط عن طريق الانتقال الهوائي ذي المكونات الصغيرة والكبيرة على التوالي .

• وأن المصابين بشدة توجد كمية عالية التركيز من الفيروسات في افرازاتهم ، فيتعرضون بشكل أكبر لتلوث أيديهم والأدوات الموجودة في البيئة . حيث أمكن استعادة الفيروس الأنفي من أيدي (٤٠ ـ ٩٠٪) من المصابين ومن (٦ ـ ١٥٪) من أدوات مختلفة كمقابض الأبواب ولعب الأطفال وأكواب القهوة والكئوس . فالفيروس يمكن أن يعيش لعدة ساعات على هذه الأدوات .

• إن طريقة الانتشار هذه تتم عن طريق الإصبع للاصبع باللمس أو التحية ، فإذا لمس الإصبع الملوث العين أو الأنف يتم انتقال الفيروس إليه . والمعلوم أن دعك العيون وقطف ما بداخل الأنوف مسجلة كسلوك بشري طبيعي . فلقد وجد « هندلي ومجموعته » بعد مراقبة دقيقة لمجموعتين من الناس احداها في قاعة محاضرات ممتلئة بطلبة الطب والأخرى لأطفال مدرسة الأحد أن واحداً من كل ثلاثة إما يحك أو يقطف داخل أنفه أو يدعك عينيه في الساعة الواحدة . وأن طلبة الطب أدخلوا أصابعهم في أنوفهم أكثر من الأطفال !

هذه الوسيلة لانتقال المرض أكدتها وتابعتها دراسات أخرى . وأصبحت اليد هي مكمن الخطر في انتشار الفيروس الأنفي . الأمر الذي قد يدعونا أن نفكر في القفازات بدل الأقنعة الواقية لمنع الانتشار .

أما القدرة على الانتشار وسرعتها فإنها أيضاً تعرضت للبحوث في المختبرات وعن طريق متطوعين . ولن أكون مغالياً إذ قلت أن مختلف النماذج استعملت لهذا الغرض لدرجة أن متطوعين قضوا شهر العسل في المختبرات تحت مختلف الظروف . ولقد توصلت الدراسات إلى ما يلي :

• أن اصابتنا بالفيروس ليست بالأمر اليسير وليست بالسهولة التي نتصورها ، فلقد قام (E. Dich et al) بدراسة مجموعة من المتزوجين ، ونقل الفيروس لواحد من الزوجين ، فوجد أن معدل سرعة الانتشار هو ٣٨٪ فقط .

• أن الفيروس الأنفي صعب انتقاله عن طريق الاتصال القصير الأمد ، تحت الظروف الطبيعية كاللقاء الاجتماعي العادي لمدة ٢ ـ ٣ ساعات مثلاً . أو التحية بالتقبيل لمدة دقيقة . أو المعيشة في اقلقسم الداخلي لمدة ستة وثلاثين ساعة في غرفة واحدة مع أحد المصابين .

• أن الانتشار يعتمد إلى درجة كبيرة على شدة المرض وأعراضه وكمية الفيروسات التي تنزل من المصاب .

• أنه بالرغم من أن أنواعاً ، من الفيروسات من الممكن أن تنتقل أحياناً إلى نسبة كبيرة من الناس في الأماكن المكتظة بالسكان إلا أن الغالبية العظمى منها تنتشر قليلاً أو لا تنتشر أبداً سواء كان المعنيون عمالاً أو موظفين أو جيراناً

بقى أن نقول أخيراً إن الأطفال يعتبرون وسيلة من وسائل الانتشار . وأن أنوفهم تعتبر مخازن للفيروسات ، وأن المدرسة مكان مهم للانتقال بالذات في فصول المرض ، لذلك نجد العائلات التي لديها أطفال أكثر عرضة لانتقال المرض إليهم من العائلات بلا أطفال .

مواجهة المرض

إذن ماذا في جعبة الطب الحديث لمواجهة المرض ؟

أولاً : في الجانب العلاجي :

إن جميع أنواع العلاج المستعمل سواء التي تتناولها من فوق أرفف الصيدليات أو التي يصفها بعض الأطباء لا علاقة لها بالفيروس بتاتاً ، اللهم إلا رضانا عنها ، وربما يكون هذا الرضا سبباً في تهدئتنا حتى ينتهي المرض ، إلا أننا يجب أن لا ننكر دور مهبطات الحرارة وبالذات في الأطفال . وأحياناً قطرات الأنف عندما نضطر إلى استعمالها بحذر . وسنتحدث عنها فيما بعد .

ولكننا في عصر الفيروسات وعصر المحاولات العديدة لايجاد دواء مضاد للفيروسات فلابد أن يكون لفيروسات الزكام نصيب من هذه المحاولات . لكن ما يعترض الطعم من مشاكل يعترض أيضاً الدواء المضاد للفيروسات . حيث أنها لكي تعمل بدون آثار جانبية يجب أن تستعمل في منطقة الأنف وبكمية قليلة .

والحقيقة التي تقال ان مجموعة من هذه الأدوية ـ على الرغم من تأثيرها المباشر في الخارج على الفيروسات أثناء التجربة المعملية ، إلا أنها فشلت أثناء التجارب الاكلينيكية في تأدية الغرض . وقد أدى بعضها إلى آثار جانبية . ومن ضمن قائمة هذه الأدوية على سبيل المثال (Enviro Xime and Roog ـ 0415)

وهناك دواء جديد الآن دخل في المرحلة الأولى من التجربة الاكلينكية ، ويعتقد أن نتائجه ستكون جيدة ، إذ أنه يمنع الفيروس من نزع غلافه البروتيني . وهذه هي وسيلة الفيروس للعدوى . وسنرى نتائج هذا الدواء (Win 51 ـ 711) في المستقبل .

ثانياً في الجانب الوقائي :

الزكام

مفاهيم حديثة تلغي معظم معلوماتنا السابقة

(١) استعمال طعم مضاد للفيروس :

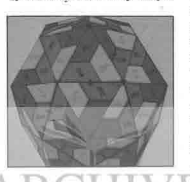
منذ أن تجدد الأمل في ايجاد طعم خاص لأكثر الفيروسات شيوعاً في منتصف السبعينات ، بدأت الابحاث تسير في هذا الاتجاه ، لقد أوضح الأوائل أن حقن الفيروس غير النشيط أحدث استجابة واضحة وانتاجاً لمضادات الأجسام للفيروس المحقون وللفيروسات الأخرى ذات العلاقة به ، ولم تبين تلك الأبحاث مدى امكانية استثارة الأغشية المخاطية للأنف لانتاج مضادات الأجسام محلياً ، إذ يعتقد أن انتاج هذه المضادات من الغشاء المخاطي أمرضروري للمناعة ضد الاصابة بالزكام .

وبطرح هذا السؤال والبحث في هذه القضية تبين أن ٩٥٪ من جلوبيولين المناعة الذي هو من النوع (iga) والذي يوجد في الأغشية المخاطية ينتج محلياً في الأنف ، إذن لابد من وجود صيغة للتعامل مع الفيروس محلياً . وربما تكون الطريقة المثلى هي إحداث اصابة فيروسية محلية في الأنف عن طريق الطعم الضعيف ، وفي دراسة قام بها كوش (R.B Couch) من معهد كيندي في بلتيمور بأمريكا حيث استعرض فيها الدراسات العلمية المنشورة في هذا الصدد ، استنتج أن هذا النوع من الاصابة ربما يكون أحسن وسيلة للتحصين ضد الزكام ، وهناك مشكلة واحدة وأساسية تتمثل في أن الأهداب الأنفية تتمتع بقدرة فائقة على التخلص من المواد الدقيقة بحركتها الدائمة الأمر الذي يجب أن يؤخذ في الحسبان للمحافظة على كمية كافية من الطعم في الممرات الأنفية لاحداث الاصابة ، هذا بالاضافة إلى أننا نحتاج إلى انتاج طعم لاحداث المناعة ضد مجموعة كبيرة من الفيروسات ، وهذه في حد ذاتها مهمة صعبة للغاية ، حتى لو عرفنا كل هذه الفيروسات ، وتم عمل طعم للغالبية التي تصيبنا فإن الحصانة هذه لن تطول لأن مضادات الأجسام المحدودة للفيروسات الأنفية لا تبقى لمدة طويلة ، وهذا ما يبرر تكرار اصابتنا في نفس الفصل أو العام نفسه ، ويرى الغالبية في الوقت الحاضر أنه من غير المنطقي انتاج طعم معقد يمنحنا حصانة لا تتعدى القليل من الشهور ..

(٢) استعمال الانترفرون :

الانترفرون عبارة عن مواد بروتينية أكتشفت عام ١٩٥٧ ، وتدخل في نطاق أجهزة الدفاع الطبيعية عن الخلية ضد الفيروسات والوسائل الأخرى المحدثة للأمراض ، وهذه البروتينات تنتجها الخلية كاستجابة للاصابة ، وهي لا تهاجم الفيروس نفسه ، لكنها تتدخل في عملية تكاثره بإثارة انتاج نوع من البروتينات يوقف قدرة الخلية المصابة على مضاعفة العدو المهاجم « الفيروس » .

ويعتقد أن لهذه علاقة بممارسة أمراض السرطان ، وكانت شحيحة في السنين الأولى من اكتشافها ، إذ كان يصعب الحصول عليها ، وكانت غالية الثمن لأنها كانت تستخلص من كريات الدم البيضاء .إلا أنه بالامكان تصنيعها الآن عن طريق التكنولوجيا الحديثة والتقدم في هندسة الخلية على نطاق واسع وبأسعار مناسبة ، لذلك بدأ التركيز عليها في علاج أمراض الفيروسات ، ومن الأمور المهمة لكي ينجح العلاج بالانترفرون أن يعطى قبل هجوم الفيروس الكامل ، ونحن نعلم أنه من الصعوبة معرفة متى ستظهر تلك الصورة ، لذلك فإن أفضل وسيلة هي اعطاء الأنترفرون بوضعه في الأنف أثناء فصول الاصابة بالزكام ، لقد بينت التجارب الأولية أن الجرعات الكبيرة في الأنف من المكن أن تمنع الاصابة بالزكام أو على الأقل تقلل من فترة الاصابة ، لكنه مع الأسف فإن العلاج الطويل الأمد يؤدي إلى أعراض جانبية غير مستحبة ، ومع أنها إرتدادية إلا أنها قدتكون سيئة في اعراض البرد ، وأسوأ هذه الآثار هو تضخم الأغشية الأنفية والتهاباتها ونزول دم مع المخاط بعد علاج يدوم لعدة أسابيع مرتين في اليوم ، أما التجارب الأخيرة التي أخذت في الحسبان ذلك واستعملت العلاج القصير الأجل بعد التعرض للزكام فقد بينت بأن هذا الأسلوب يمكن أن يكون ناجحاً في منع الاصابة بالبرد ، لكن الدكتور (Gwaltney) يعلق على ذلك بقوله ، إذا كنا نود أن نستعمل ذلك لمنع انتشار الفيروس في الأوساط العائلية فيجب أن يكون سعر الدواء معقولاً للتوصية به ، وتقوم الشركات بناء على الدراسات الأخيرة بتقدير الجرعة المستعملة بالضبط وتكلفتها .



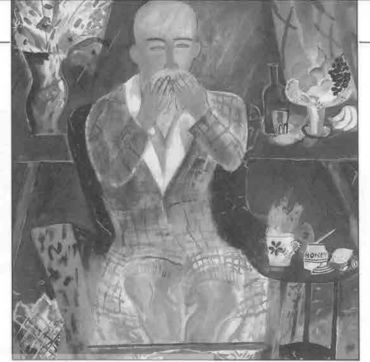
■ أنوف الأطفال تمثل مخازن هائلة للفيروس في فصول المرض !

■ الطُعم الواقي للمرض - للأسف - لا يمنحنا الحصانة إلا لبضعة شهور !

■ احذر الأعراض الجانبية نتيجة للجرعات الكبيرة من « الإنترفيرون »

■ مناديل ورقية جديدة من حامض الليمونيك والتفاح تقتل الفيروس !

ويبدو أن الانترفرون قد دخل في دائرة الضوء وصار الأمل معقوداً عليه للوقاية القصيرة الأمد في الأوساط العائلية وبالذات بعد الدراستين المنشورتين في أوائل هذا العام وفي نفس المجلة العلمية (Nemj) مع أنهما من بلدين مختلفين فواحدة نشرها Douglas et al استراليا والأخرى نشرها (Den F. Hy) من أمريكا ..فلقد استعمل الاثنان (الفا ٢ انترفرون) بمقدار خمسة بلايين وحدة دولية يرشها مرة في اليوم في أنوف أفراد عائلة المصابين بالزكام ولمدة أسبوع ، ولقد سجل الاثنان نجاحاً في منع انتشار الزكام في الوسط العائلي بنسبة معقولة وبالذات بالنسبة لجميع الأنواع من الفيروسات . المهم أن نعطي الانترفرون خلال ثلاثة أيام من التعرض وهي الفترة التقديرية لحدوث الأعراض أو العدوى بعد التلقيح .



الزكام كما رسمه أحد الفنانين العالميين

الطرق السلوكية

(٣) الطرق البيئية والسلوكية للوقاية من الزكام وتعقيداته :

ها نحن علمنا بما توفر لدينا من معلومات بأن علاجاً ناجحاً لا يوجد وقد يطول انتظارنا إليه وأن الطعم مصيره لا يقل ضبابية عن الدواء ، ولكننا نعرف الكثير والحديث أيضاً عن المرض والطرق والعوامل المساعدة على انتشاره ، فماذا لدينا لنقدمه من أجل الوقاية ؟

إن المعلومات الوبائية المتوفرة تبين أن أوائل الخريف وأواخر الربيع هما أنشط فترات فيروسات الزكام ، وقد يمتد بالنسبة لفيروسات الجهاز التنفسي الأخرى حتى الشتاء ، وهذا في حد ذاته يدعونا إلى الاستعداد للوقاية الفصلية .

ونحن نعلم ايضاً أن الجو العائلي هو أحسن مكان لانتشار الزكام في المجتمعات المعاصرة وأن الأطفال هم الذين يأتون به من المدرسة والشباب من مختلف معاهدهم وكلياتهم وحتى في معسكراتهم في فترات التجنيد ، ونحن نعلم أيضاً مكان الفيروس وأن أصابع اليد هي الناقل الأول لذلك فإن أولى الأولويات هي النظافة وبالذات نظافة اليدين وغسلهما جيداً في الفصول المذكورة وفي حالة الاتصال بالمرضى أو بمجرد وجودهم بيتنا مع الامتناع عن لمس عيوننا وأنوفنا قدر المستطاع ، ثم ننتقل إلى فروع النظافة الأخرى وهذا يسري على نظافة الأدوات الملموسة والمستعملة ، ويمكن القول ان وسائل النظافة العادية تكفي لهذا الغرض في الوقت الحاضر ، أما المطهرات التي تعلن بأسماء مختلفة فإن أفضلها هو اليود والليزول حيث تمت تجربتهما على الأصابع بالنسبة لليود المائي ٢٪ وعلى سطوح الأشياء بالنسبة لليزول ، أما بقية المطهرات فتأتي بعدهما في التأثير .

ونحن نعلم ايضاً أن الافرازات المخاطية ملأى بالفيروسات لذلك يجب أن نتصرف فيها كالتالي :

● اخراجها من الأنف : ويستعمل الناس طرقاً مختلفة من بينها نفخ فتحتي الأنف ، ورغم أن هذه الطريقة تخرج الافرازات إلا أنها قد تؤدي إلى انتقال الاصابة إلى الأذن الوسطى عن طريق قناة استاكيوس أو إلى أي جهة في البلعوم والجهاز التنفسي العلوي لأن انتقالها بسبب الضغط المتولد في هذه المنطقة .

وهناك طريقة أخرى هي استنشاق الافرازات ثم إما بلعها أو اخراجها عن طريق الفم وهذه لا تنظف الأنف كلية ، وقد تكون أحد العوامل التي تؤدي إلى الكحة الليلية نتيجة لرجوع الافرازات إلى الجهاز التنفسي ، أما الطريقة الثالثة ، وهي الطريقة المستحبة ولا توجد لها مشاكل الطريقتين فهي نفخ الأنف من فتحة واحدة وترك الأخرى مفتوحة ، إذ يؤدي ذلك إلى تفريغ الأنف بدون احداث ضغط داخلي يؤدي إلى اصابة الأذن الوسطى .

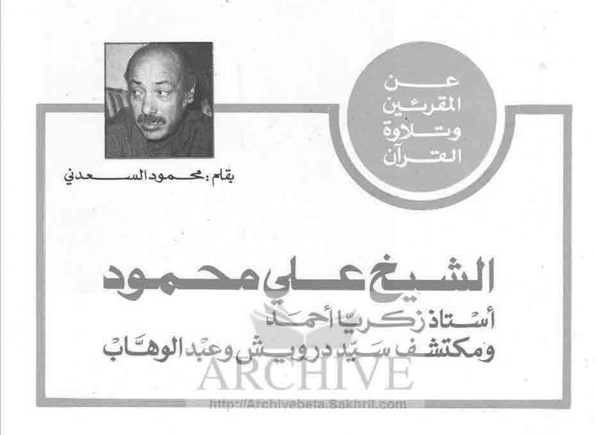
● التصرف في الافرازات :

إن المنديل المصنوع من القماش يصلح للديكور ولانتقال المرض ، واستعمال المناديل الورقية المنتشرة الآن والتخلص منها بطرق صحية من أحسن الوسائل الوقائية ، وعلى هذا الأساس قام (اليون دك) المذكور سابقاً بدراسة نوع من المناديل الورقية بعد معاملتها بخليط من أحماض الليمونيك والتفاح ، موجودة في الفواكه ، ونوع من الصوديوم(S.L.S) موجود في معجون الأسنان ، فوجد أن هذه التركيبة تقتل ٩٩٪ من فيروسات الأنف في أقل من خمس ثوان و٨٠٪ من فيروسات الزكام الأخرى في أقل من دقيقة ، وفي عام ١٩٧٩ استعمل اليود في المناديل الورقية وجربه على العاملين في محطة « ما مكموردو » بالقطب الجنوبي ، حيث أن العاملين هناك على الرغم من وجودهم في البرد القارس ، فإن الزكام ينتشر بينهم كلما وصل إليهم موظفون جدد ناقلين إليهم الفيروس ، إلا أنهم باستعمال تلك المناديل فقد هبط معدل إصابتهم وظل هابطاً طوال الفصل !

لقد جرب هذا النوع من المناديل الورقية على متطوعين آخرين أيضاً ، وثبت نجاحه ، وتقوم الآن بعض الشركات بتصنيعه لتسويقه نهائياً بعد أن طرحته في الأسواق عام ١٩٨٤ في بعض المدن للتجربة .

إن تغطية موضوع الزكام ، والذي بدأنا نخطو فيه الخطوات السليمة ، في هذا الحيز أمر صعب ، كصعوبة القضاء عليه ، لكن المعلومات الحديثة التي قدمتها في هذا المقال والتي أرى فيها تغييراً لمفاهيم وأحاديث كثيرة في هذا الموضوع ، ستشفع لي عدم التعرض لأمور روتينية أخرى كأعراض المرض وتعقيداته وغير ذلك من الأمور التي يعرفها الناس وسبق أن اتفقوا عليها ، وتبقى كلمة أخيرة وهي أن ارتفاع الحرارة والكحة المصاحبة للزكام تقنيات فسيولوجية محكمة ، يقصد منها الجسم حماية نفسه ، وأن التعرض لهما في أغلب الحالات لا داعي له البتة ، وأن استعمال الأدوية بدون معرفة الهدف من استعمالها قد يؤدي إلى أضرار أكثر بكثير من الزكام نفسه !

عبدالله الباكر



بقلم: محمود السعدني

الشيخ علي محمود

أستاذ زكريا أحمد ومكتشف سيد درويش وعبد الوهاب

لم يستطع أحد من الذين ظهروا في عصر الشيخ أحمد ندا ــ على كثرة من ظهروا معه ــ أن يشق طريقه إلى الشهرة والنجاح إلا رجل واحد.. أسمر اللون قصير القامه إسمه الشيخ على محمود، وكان الشيخ على محمود ــ على غير العادة ــ من أسرة ثرية، ولكن حادثاً غير سعيد جعل الأسرة الثرية تدفع بابنها إلى كتاب القرية ليحفظ القرآن الكريم.. فقد ولد الشيخ على محمود ضريراً، ووجد الشيخ على محمود بذكائه أنه لن يستطيع منافسة الشيخ أحمد ندا فى ميدانه.. ميدان التلاوة، فاتجه إلى انشاد القصائد والتواشيح وكان يلحن القصائد بنفسه، ولم تلبث ألحانه، أن انتشرت وذاعت بين الناس. وكأن القدر قد اختار لمصر فى هذه الفترة بالذات أعظم عباقرة النغم الذين عرفتهم مصر فى تاريخها وهما الشيخ على محمود والشيخ سيد درويش. وكانا صديقين حميمين، يبكي سيد درويش عند سماع قصيدة الشيخ على محمود (بدر تجلى فى الأفق). وظل الشيخ على محمود يبكى كلما سمع لحن الشيخ سيد درويش (أنا هويته وانتهيت)، وسئل الشيخ سيد درويش مرة قبل وفاته عن رأيه فى الشيخ على محمود فأجاب على الفور إنه عبقرى.. وسيد من أنشد ولحن القصائد والتواشيح.

وأنفق الشيخ على محمود حياته الطويلة ينشد ويتلو القرآن ويرفع الأذان دون أجر، وكان بيته ندوة للفنانين والأدباء ومشاهير عصره فى كل مجال، وكان يشجع صغار المقرئين ويقدمهم للناس وكانت له بطانة تصاحبه فى الإنشاد لمع منها اثنان وصارا من مشاهير العصر، الأول هو الشيخ طه الفشنى أعظم من أنشد القصائد والتواشيح بعد أستاذه على محمود، أما الآخر فقد صار بعد ذلك شيخاً وأستاذاً لجميع الملحنين الذين ظهروا فى هذا القرن وهو الشيخ زكريا أحمد، الرجل الذى اكتشف وقدم للعالم العربى سيد درويش وأم كلثوم!

وكان الشيخ زكريا أحمد يعمل مقرئاً فى بداية حياته، وعندما استمع إلى الشيخ على محمود إنضم إليه فرداً من أفراد بطانته، ينشد خلفه التواشيح والابتهالات والقصائد الدينية، ثم هجر هذا العمل بعد ذلك واتجه إلى التلحين، ولم تمض سنوات حتى أصبح شيخ الملحنين عن جدارة واستحقاق. والشيخ على محمود هو أستاذ زكريا أحمد، وهو أول من علمه أن الصوت شكل واللحن مضمون، فإذا كان المضمون جميلاً فالمستمع لن يهتم كثيراً بالشكل. ويستطيع الملحن الموهوب أن يخلق من الصوت القبيح صوتاً جميلاً تتهافت على سماعه كل الآذان. واللحن الجميل ــ فى رأى الشيخ على محمود ــ هو اللحن الصادق البسيط، وبقدر بساطته وصدقه يكون جماله وعمقه عند المستمعين.

ومن تلاميذ مدرسة الشيخ على محمود أيضاً المطرب الملحن محمد عبد الوهاب، وفى بداية حياته الفنية كان يعرض ألحانه على الشيخ على

محمود وكل ألحانه القديمة الجميلة ، إستمع إليها الشيخ قبل أن يستمع إليها الناس . وكان باب بيتهٌ مفتوحاً دائماً لكل المواهب الجديدة ، وكانت ندوته أشبه بصالون أدبى وفني يلتقى فيها العباقرة والعيدان الخضراء المرشحة للمجد والتى تجاهد فى سبيل البقاء .

سمع الشيخ مرة أن فتى معمماً يقرأ القرآن ويلحن القصائد والأغانى وبطريقة جديدة لم يسبقه إليها أحد وأن صيته قد تعدى حدود الحى الذى ولد فيه حي كوم الدكة ، ووصل إلى غيره من أحياء الأسكندرية وأن الفتى الجديد إسمه سيد درويش .

وعلى الفور أوفد الشيخ على محمود تلميذه وصديقه الشيخ زكريا أحمد إلى الأسكندرية ليعود منها ومعه الشيخ سيد درويش فقد أحب الشيخ على محمود أن يسمعه بنفسه ليعرف حقيقة هذا الفن الجديد . وذهب الشيخ زكريا أحمد الى الإسكندرية وقابل سيد درويش ، وعندما علم أنه قادم إليه من طرف الشيخ على محمود فرح الشيخ سيد فرحاً عظيماً ، واحتفل بالشيخ زكريا إحتفالاً لائقا ، وقضى الليل بطوله يغنى للشيخ زكريا وحده ، ولم ينتبه الشيخ زكريا أحمد إلا والشمس تتوسط السماء .

وعاد الشيخان معاً الى القاهرة وقصدا بيت الشيخ على محمود فى باب الخلق . وسهر سيد درويش ثلاث ليال يغنى للشيخ وأصحابه ، ويقول الشيخ على محمود (ولم يغمض لى جفن خلال هذه الليالى الثلاث ، فقد اكتشفت عند الشيخ الجديد فناً جديداً لم يخطر لأحد على بال) وامتدت الصداقة بين على محمود وسيد درويش حتى انتقل سيد درويش الى القاهرة وذاع صيته فى كل أرجاء مصر ، وصار بيت الشيخ على محمود هو محله المختار ، ومن بيت على محمود وضع الشيخ سيد درويش ألحان العشرة الطيبة وقضى اسبوعاً كاملاً يعمل بلا إنقطاع حتى انتهى من تلحينها وكان يطلع على ألحانها الشيخ على محمود أولاً بأول ، وعندما انتهى من تلحينها ارتمى فى شبه غيبوبة وذهب فى نوم عميق ، وعندما أفاق وجد الشيخ على محمود والشيخ زكريا أحمد والشيخ طه الفشني حوله ومعهم طبيب مشهور ، واضطرب الشيخ سيد درويش فظن أن مكروها حدث ولكنهم طمأنوه .

والحقيقة أن الشيخ على محمود ظن بعد أن أستغرق الشيخ سيد درويش فى نوم عميق أن الرجل قد ذهب فى اغماءة طويلة وإنه على وشك الموت ، فاستدعى الطبيب المشهور وذهل الطبيب عندما دخل الغرفة التى ينام فيها سيد درويش ، فقد اكتشف تناثر عدة (تذاكر) هيروبين فتصور أن الشيخ قد انتحر ! وعندما أفاق سيد درويش راح الطبيب ينصح الشيخ سيد بالكف عن شم الكوكايين والهيروبين حفاظاً على صحته ، ونظر الشيخ على محمود إلى الطبيب وقال فى صوت خفيض إن هذا الفتى ليس من دنيانا ، ولكنه سيترك خلفه ماسوف يبقى على طول الزمن . وقد صدق ظن الشيخ على محمود ولم يلبث الشيخ سيد درويش أن رحل عن دنيانا ولكنه ترك ثروة فنية ستبقى من بعده ومن بعدنا جميعاً وعلى طول الزمن !

وكان من عادة الشيخ على محمود أن يرفع أذان الفجر كل ليلة من مسجد الإمام الحسين رضوان الله عليه ، وكان ميدان الحسين فى حي الأزهر يضيق بالناس الذين وفدوا من كل مكان للاستماع إلى أذان الشيخ ، وكانت شلة محمد البابلى ومن بينهم حسين الترزى وإمام العبد والشيخ البشرى والمعلم دبشه الجزار ينهون سهرتهم قبل الفجر ويتجهون معاً إلى ميدان سيدنا الحسين ليمتعوا أنفسهم بالإستماع إلى صوت الشيخ وهو يرفع الأذان ، ومن حسن حظ المسلمين والبشرية كلها أن احتفظت الإذاعة المصرية بشريط تسجيل عليه صوت الشيخ وهو يرفع الأذان ، وتذيعه محطة القاهرة فى رمضان ويذاع أحياناً من إذاعة الكويت ، وبعد وفاة الشيخ أحمد ندا ، فكر الشيخ على محمود فى تلاوة القرآن ، ثم قرأ القرآن بالفعل تحت إلحاح الأصدقاء ، ولكنه عدل عن ذلك بعد فترة واكتفى بإنشاد القصائد والتواشيح ، ولم يكن الشيخ على محمود يخرج من بيته إلا للمسجد ، وكان منزله قريباً من مسجد الحسين ، ولكنه كان يسعى فى المواسم والأعياد إلى بيوت الفقراء الذين يعرفهم ويعطف عليهم ، وكان كريماً ينفق بسخاء ويتصدق بسخاء حتى بدد ثروته التى ورثها عن أبيه . عندما مات سعد زغلول قرأ في مأتمه مع غيره من كبار المقرئين ثم أقام سرادقاً فسيحاً على نفقته فى ميدان باب الخلق وراح ينشد القصائد والتواشيح لمدة أسبوع كامل على روح الزعيم الذى شيعته الأمة كلها إلى مثواه الأخير .

وكما كان الشيخ على محمود صديقاً لسيد درويش وزكريا أحمد كان أيضاً صديقاً لداوود حسنى والشيخ الصفتى وكلاهما من مشاهير الملحنين فى زمانه وكانا يحترمان رأى الشيخ على محمود ويتبعان إرشاداته فيما يضعانه من ألحان . لم يغادر الشيخ على محمود مصر إلا مرة واحدة واستقل القطار من محطة مصر إلى مدينة يافا بفلسطين وقضى فيها آسبوعاً أنشد خلاله قصائده وتواشيحه بدعوة من صديقه عميد أسرة « العميد » فى يافا العربية ، ورفض الشيخ دعوات كثيرة من بعض عائلات دمشق منها عائلة بوظو والحريرى لقضاء عدة أيام فى ضيافتهم بالشام ، فقد شعر الشيخ بانحراف فى صحته فآثر العودة إلى مصر. وعندما عاد إلى مصر مرض مرضاً قصيراً ولم يلبث إلا قليلاً ثم انتقل إلى رحمة الله ، ولكنه وقبل موته كان قد تعهد بالعناية والرعاية عشرات من الموهوبين وتنبأ لبعضهم بمجد لم يسبقه أحد ، وبدد ثروته كلها فى مَدِّ يَدِ المساعدة إلى المحتاجين والملهوفين والفقراء وصغار الفنانين والمقرئين والمنشدين .

حدث ذات مساء من عام ١٨٨٨ أن استمع الشيخ إلى شاب صغير يقرأ القرآن ، فارتعد بدنه كله وانتابته نوبة شديدة من البكاء ، وعندما أخبروه بأن الشيخ الصغير ضرير قال والعبرات تخنقه سيكون له شأن عظيم . وعاش الشيخ على محمود بعد ذلك حتى أصبح للشيخ الصغير شأن ، وكان أعظم مما تنبأ به الشيخ على محمود ، وارتفع نجم الشيخ الصغير حتى غطى على كل المقرئين الذين ظهروا فى زمانه وفى كل الأزمنة ، وفاق الكل وتفوق على الجميع حتى على الشيخ أحمد ندا والشيخ على محمود ، وكان الشيخ الصغير الذى بكى الشيخ على محمود لجمال صوته ذات مساء من عام ١٨٨٨ .. هو الشيخ محمد رفعت .

الفريد فرج

مسرحية الزمن أوبرا



أثارت مسرحية «الزمن» المعروضة بلندن أكثر من قضية.

فالمسرحية تستخدم أحدث آليات التكنولوجيا المسرحية.. وتستعرض آلات مستحدثة لم يسبق استخدامها على المسرح، وتعرض للجمهور أمثلة للمدى البعيد والمدهش الذى تستطيع أن تصل إليه «الآلية المسرحية» فى العصر الالكترونى..

فلأول مرة على المسرح تستخدم الحيل الخارقة والآليات المبرمجة على الكومبيوتر بهذا «الثراء الآلى» ان صح التعبير.. لتصنع خيالا سحريا مجسدا فوق منصة المسرح فى أول إطار من نوعه لمسرحية كهذه تجرى أحداثها فى الفضاء.

وقد نعود الى مناقشة مسألة الآلية المسرحية فيما بعد، ونفحص مدى مشروعيتها الفنية.. بعد أن نعرض للمسرحية الغنائية ذاتها.

فالمسرحية أشبه بأوبرا حديثة تدور على ايقاعات الروك اندرول، وبطولتها معقودة للمغنى الشهير: كليف ريتشارد والمغنية ديون واريك، ويشاركها البطولة الممثل الرفيع المستوى لورانس أوليفييه.

وموضوع المسرحية «محاكمة الأرض».

الاتهام

قرار الاتهام ضد كوكب الأرض يقول:

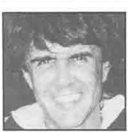
«هذا الكوكب ينتقل من حرب الى حرب
يصنع قنابل أكبر فأكبر
ويفتح أبواب الموت الواسعة
للانتحار والاقتتال والمجاعة والتلوث
والجريمة والشره والعجز
وكل خطيئة يتصورها العقل
والآن يتوجه الإنسان للفضاء
بلا اخلاق
لينقل العدوى والتلوث واللاأخلاق
الى غيره من الكواكب.
فالاتهام يطلب
أن تموت الأرض».

المحكمة

انعقدت المحكمة من ثلاثة قضاة: قاضى النظام، وقاضى العدل، وقاضى الحكمة. وأرسلت المحكمة كابتن ايبونى لاحضار ممثلين لشعوب الأرض من مبنى الأمم المتحدة ليتولوا الدفاع عن الأرض. ولكن الكابتن ايبونى أحضر بدلا منهم مجموعة من المغنين كانوا يغنون للشباب فى حفلة «كونسير» صاخبة، فاختطفهم من وسط الجمهور وحملهم بالمنصة المسرحية على الضوء عبر الفضاء، ليجدوا

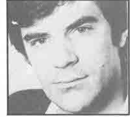
هذا الكوكب ينتقل من حرب الى حرب
يصنع قنابل أكبر فأكبر
ويفتح أبواب الموت الواسعة
للانتحار والمجاعة والتلوث
والجريمة والشره والعجز
وكل خطيئة يتصورها العقل
والآن يتوجه الانسان للفضاء
بلا أخلاق
لينقل العدوى والتلوث واللا أخلاق
الى غيره من الكواكب
فالاتهام يطلب :
أن تموت الأرض

أغنية الاتهام فى مسرحية «الزمن» المعروضة فى لندن الآن


ديف كلارك .. المؤلف


سير لورانس اوليفييه


لارى فولد .. المخرج


جون نابيير .. مصمم الديكور

كليف ريتشارد .. نجم البوب وبطل المسرحية

مسرحية

الزمن

أوبرا الروك تحاكم الأرض

أنفسهم فى لمح البصر بساحة المحكمة مكلفين بالدفاع عن الأرض والبشر الذين يتأرجح مصيرهم بين العفو أو الفناء بقرار من المحكمة !

كانوا يغنون

كانت فرقة الغناء قبل اختطافها تنشد :

« نحن أسرة انسانية واحدة
وخيوط فى نفس النسيج .
آمالنا تنطلق من ذات الكوكب ، وتشتاق للحرية ..
يقول بعض الناس :
ان مجاعة افريقيا بعيدة ،
ولانستطيع أن نفعل شيئا ، ولنا متاعبنا هنا . التى تشغلنا عن الآخرين .
ولكننا سرعان مانعرف
أن هناك وهنا دنيا واحدة .
فنحن أسرة انسانية واحدة ... »

وفجأة .. تقاطعت أضواء المنصة ، وطارت فى الفضاء بأعجوبة ، لتلقى بالمغنين بين يدى القضاة ، ويجدون أنفسهم مواجهين بالاتهام الخطير ، ومطالبين بالدفاع عن الانسانية .

والقضاة يوجهون لهم الخطاب :

« أنتم صناع سفن الفضاء .
أنتم محطمو القلوب .
أنتم المشاة على القمر .
عبر الفضاء لن نسمح لكم بالمرور .
عبر الفضاء لا لا لا .. مرور .
لن نسمح لكم بتحطيم الفضاء »

لست إلا مغنيا

حين يعرف المغنون أنهم مطالبون بالدفاع عن الأرض يأخذهم الروع ، وينشد كليف ريتشارد :

« لست إلا مغنيا بقلبى أغنية .
فكيف أستطيع أنا تصحيح الخطأ ؟ !
نعم نحن البشر لانصغى كفاية .
نحطم الحب .. هذا أسلوبنا .
لانواجه الحقيقة ..
والحب عندنا أغنية عابرة
هى الآن هنا .. وبعدها راحت »

ويستوضح القضاة من الكابتن ايبونى ، الذى يعترف بانه لم يحضر المغنين على سبيل الخطأ وإنما لأنهم يمثلون ضمير الناس . فهو قد زار الأمم المتحدة ولم يجد أن الساسة بها قادرون على الدفاع عن قضية البشر ، بينما يستطيع هؤلاء الشباب أن يطرحوا وجهة نظر الناس بشكل أفضل !

ولم يجد المغنون مفراً من القيام بالمهمة ، فيتغلبون على ترددهم ، ويحاولون ان يدفعوا الاتهام ، وأن يوضحوا للمحكمة أن الفوضى التى تعم العالم لاينبغى أن تعشي الأبصار عما فى الدنيا أيضا ...

« من الحب العريق . اللؤلؤة الفضية
الكامنة فى المحيط الساكن حولنا
.. هذا العالم
دائما حولنا وفى وجداننا
ذلك الحب الخاص
الذى يدفعنا للنضال
ويدفعنا للصعود الى موقع المسيطرة
على العالم المجنون لنوقف تدهوره
ومهما كنا نسكن الحارات البعيدة
فإننا نصغى لحديث الزمن »

وهنا يتدخل أكاش « ضابط الأوقات » (لورانس أوليفييه) ليتحدث عن المستقبل .

« حياتكم تعبير عن فكركم . لأن الانسان يملك حرية الارادة . وهذه الحرية قد تكون بركة ، وقد تكون لعنة ، حسب نوع تفكيركم . التفكير يصنع الأفعال . انظروا فيما تفكرون به من مطامع دنيئة ومن حسد ومن شره ومن خوف ، وكل مايصيبكم من جراء ذلك من آلام وقلق . فاذا كنتم تريدون أن تغيروا عالمكم فلابد من أن تغيروا أفكاركم وأن تستبدلوا الكراهية بالحب » .

وفى النهاية تحكم المحكمة بتأجيل النظر فى مصير الأرض الى حين ، حتى تنكشف أحوال الناس سلبا أو ايجابيا .

للجمهور

وحينئذ تتوجه مجموعة المغنين لجمهور المشاهدين منشدة :

« على كل واحد منا
أن يكون حكيما
أن يجد قلبه
أن يفتح عينيه
« اننا نعرف كل شىء
دون أن ندرى لماذا
يحدث الذى يحدث !
يحدث مايحدث ...
لأن كل واحد فينا مسئول
وعليه أن يختار » .

* * *

البناء الدرامى للمسرحية بسيط ، فهو لايعدو أن يكون محاكمة يتبادل فيها الدفاع والاتهام قضية البشر ..

ولكن المسرحية لاتخلو من العنف الدرامى ، والمفاجأة الدرامية ، والموقف الأخاذ ..

الا أن ذلك كله تقوم به الآلات !

فى مسرح دوار يرتفع فيه القرص الدوار بروافع قوية ، وينقلب ذلك القرص بليونة فى كل الاتجاهات ، وتستخدم دائرة تلفزيونية مغلقة لتكرار المشهد الواحد بأحجام مختلفة ، بينما تقوم شبكة الاضاءة المعقدة بإخفاء أدوات الحيل المسرحية الكثيرة عن الأعين .

وتقوم أيضا بالمهمة الدرامية مجموعة الغناء التى تهز المشاهد بأدائها الصاخب وحضورها القوى ، وقضيتها الواضحة .

الغناء الحديث

يلفت نظرى فى هذا العالم الغربى طبيعة ربما ، ويقف على القمة منه نجوم من الشباب ريعاً ، ويقف على القمة منه نجوم من الشباب يتمتعون بأوسع النجاح الجماهيرى بين سائر الفنانين .

والذى يلفت نظرى فى دنياهم الصاخبة الجياشة ، تلك الهمة التى لاتفتر فى الاشتغال بالقضايا العامة .

ان « بوب جيلدوف » مغنى البوب الانجليزى تحول اليوم الى أسطورة بفضل استغراقه الجدى الكامل فى مقاومة المجاعة فى افريقيا (اثيوبيا والسودان) .

وقد ألف وأنشد من الأغانى عن الجوع ، وعقد من حفلات الكونسير الصاخبة وباع من الأسطوانات لصالح القضية بما يربو على عشرات الملايين من الجنيهات .

كما أنه نظم البرنامج الرياضى لمعونة افريقيا هذا الشهر ، والذى اشترك بالجرى فى



المنصة المسرحية ترتفع فى وضع رأسي

سباقاته الأهلية مليونان من الانجليز فى مختلف المدن البريطانية ، غير مساهمة ستين دولة بالمشاركة فى هذا المهرجان الرياضى الشعبى الكبير لصالح جمع التبرعات لضحايا المجاعة الافريقية .

ويعتبر ريتشارد كليف أيضا من فرسان القضايا العامة ، كما أن اقتران الغناء برسالة الانسانية أكثر شيوعا من أن يحصى أو أن يشار اليه .

وليس هذا الاهتمام الانساني الكبير مقصورا على نجوم الغناء .. ولعل نجوم الغناء قد انغمسوا فى تياره لأن جمهورهم الواسع من الشباب قد توزعوا بين مجالات النشاط الانسانى المختلفة .

فإنك لتعجب من تجمع مئات آلاف الشباب اذا تداعوا للتظاهر ضد التسلح النووى أو ضد تلويث البيئة أو لحماية الحيوانات من الانقراض بسبب الصيد وتجارة الجلود .

وشباب أوروبا الغربية يموج بالنشاط فى مجال هذه القضايا . وقد اجتذبته مؤخرا قضية مكافحة المجاعة الافريقية واضافها الى أهدافه الثابتة .

الفنانون

وقد احتشد الجمهور لهذه المسرحية ، التى حلم بها وكتبها « ديفكلارن » ، وصمم ديكورها الآلى المعقد ، الفنان « جون نابيير » وهو من مصممى فرقة شكسبير الملكية ، واخراجها الفنان لارى فولر مخرج المسرحية المشهورة « ايفيتا » .

وتقاسم بطولتها مع المغنى كليف ريتشارد الفنان « لورانس أوليفييه » والفنانة المغنية « ديون واريك » .

مسرحية

الزمن

أوبرا الروك تحاكم الأرض



المجموعة الغنائية مع الكابتن ايبوني

الأعجوبة الآلية

المنصة في هذه المسرحية أعجوبة آلية . فالقرص الدائرى يتحرك حركة حرة في الفراغ المسرحى .. فيدور ، ويرتفع بواسطة رافعتين خافيتين ، ويميل في كل الاتجاهات حتى لينقلب رأسا على عقب في بعض المشاهد ، وقد ثبتت فيه الأضواء من جانبيه ، غير الأضواء المثبتة في سائر أجزاء المنصة .

كما أن القضاة يتعلقون على كراسيهم في الفراغ المسرحى على روافع أخرى قوية متحركة بحركة حرة .

ولورانس اوليفييه يظهر على المسرح كوجه داخل كرة بصورة تلفزيونية منعكسة أكبر من الحجم الطبيعى ، ويتحرك مع الكرة في الفراغ المسرحى ليواجه الممثلين بنظام دقيق .

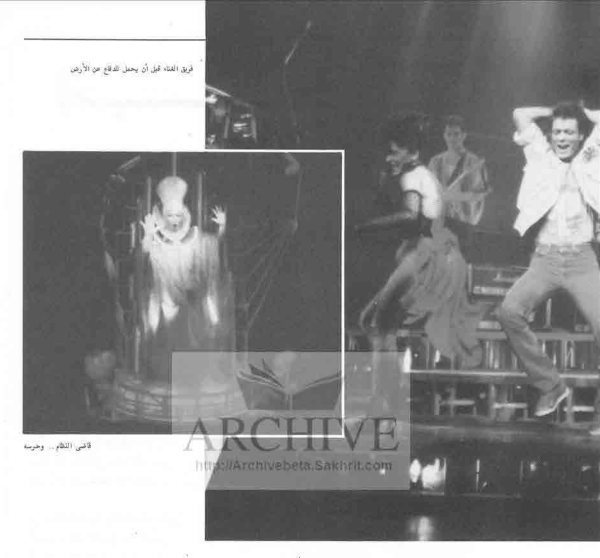
وقد استغرق بناء التصميم المسرحى وآلياته المختلفة ثلاثة شهور ، منها خمسة أسابيع استغرقها تركيب الأجزاء على المنصة .

والمنظر كله مصنوع من الصلب ، وقد بنى كأجزاء متفرقة جمعت في الموقع على المنصة في عملية أحالت المنصة الى شيء أشبه بورشة للسباكة طوال الأسابيع الخمسة التى استغرقها تركيب المنظر .

وكانت المنصة قد هدمت تماما وأعيد بناؤها لتنتظم فيها شبكات القوة الكهربائية للمحركات وللاضاءة ، ووصل ذلك كله بكومبيوتر صمم وصنع خصيصا لتنظيم حركة المسرح ، وليتحكم في ٤٨ حركة هيدروليكية للروافع ، موقوتة بأجزاء الثانية حتى لا يقع أى حادث للممثلين فوق المنصة ، كما أن الكومبيوتر يدير كافة التقنيات المتفوقة التى تتحكم في الاضاءة والحيل المسرحية الأخرى التى تصنع الايهام المسرحى لموقع الأحداث وهو الفضاء الكونى .

الفن والآلة

وتطرح المسرحية علنيا أيضا مسألة العلاقة بين الفن والآلة . فالفنانون بالاجمال لا يحبون الآلة ، والمسرح بالذات يكره أن تسيطر الآلة على الفن . ومع ذلك فان المساحة التى تحتلها الآلة في مجال الفنون تتزايد يوما بعد يوم .



فريق الغناء قبل أن يحمل للدفاع عن الأرض

قاضي النظام .. وحرسه

والسيتما والتلفزيون يعتمدان فى تطورهما السريع على زحف الآليات واتساع المجال الذى تحتله الالكترونيات وآليات التصوير والتحميض والمونتاج فى علبة الفن السحرية ..

وهاهى مسرحية «الزمن» ، تعرض علينا ضمن ماتعرضه ، إمكانات سحرية آلية يمكن أن تضيف الى منصة المسرح إمكانات للمستقبل . نرفضها ؟ هل نستسلم لألعابها السحرية ؟

إننا لاننسى أبداً أن جوهر المسرح هو الكلمة والممثل ، وكل منهما إبداع انسانى بحت ، لا دخل فيه للآلية من أى سبيل . ولاننسى أن جوهر الموسيقى هو الصوت البشرى فى محاكاته للطبيعة ، وهو ابداع انسانى بحت ، لادخل فيه للآلية من أى سبيل ، وأن إبداع الفنان التشكيلى ، أو الراقص أو الكاتب ابداع انسانى فى جوهره .. ولكننا لانستطيع أن نغمض العيون عن زحف الآلية الى الفنون ، أو أن نوصد الأبواب متظاهرين بأننا لانرى أو لانسمع مايجرى حولنا فى عصر الالكترونيات والاعلام الميكانيكى ..

إننا فى الواقع ننظر حائرين ، وننتظر .. ولا بأس من الانتظار والتأمل .

ان جيلنا من الفنانين فى الغرب والشرق على السواء مايزال يعانى من المفاجأة التكنولوجية ، ويرقب باحتراس ذلك التطور السريع والمدهش للتكنولوجيا فى معظم مجالات الحياة .

ان جيلنا يشعر بالاغتراب فى دنيا التكنولوجيا ، ولايملك أن يحكم وحده على ظاهرة تسرب الآلية الى الفنون .. أو لعله لايملك الحكم الفوري على تلك الظاهرة .

اننا نتطلع الى مستقبل المسرح بكثير من الأسئلة ، وقليل من الاجابات . هذا موقفنا بالضبط .

نحن لانصادر على مادرجنا على اعتناقه من مبدأ أن جوهر الفنون هو ابداع الانسان . ولانملك أن نصادر على اقتراحات رجال التكنولوجيا وما يعرضونه على فن المسرح من إمكانيات وانما ننتظر ونرقب مايجرى ونرجىء الحكم فى قضية فنية للمستقبل .

الفريد فرج

إبـــــاء

شعر: محمد التهامي



أَلأَنَّيَ الانسانُ ثَارتْ عِزَّةُ الانسانِ فِيْ
أَلأَنَّيَ الانسانُ قَدْ أَدْرَكْتُ أني اليومَ حَيّ
أَلأَنَّيَ الانسانُ قد أَطلَقتُ فِي حَقّي يَدَيْ
يتحرّكُ الوَحْشُ الكبيرُ بِكُلِّ قُوَّتِهِ إليْ
ويروحُ يُرْعِدُ بالسِّلاحِ وبالنُّباحِ وبالدَّوِيْ
ويَظن أنْ جُيوشَه ستمد باطله بِشَيْ..؟
لا أيها الوَحشُ الكبير.. أَنَا الكبير.. أنا القَوِيْ

* * *

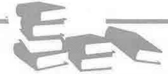
لاتحسَبَنَّ صُراخَكَ المحْمومَ يَغْدو مسْمَعَيْ
أو تَحْسَبَنَّ مَهازِلَ الأَذْنَابِ قَدْ جازَتْ عَلَيّ
أَوْ تَحْسَبَنَّ ضخامةَ الأَصْنَامِ تَخْدَعُ مُقْلَتَي
أَوْ تَحْسَبَنَّ النّابَ والأَظْفَارَ تَثْني قَبْضَتِي
فلقد لَوَيْتُ ذراعكَ الجَبّارَ – يا جَبّارُ – لِيْ
وملأْتُ مِنْ دَمِكَ الأَثيمِ وقَد تَدَفَّقَ رَاحتيْ
سأَعُبُّهُ عَبًّا ولَنْ أَلْقى مَدى الأَيّامِ رِيِّي
حَتّى أراكَ وقد مَضَيْتَ ولا رَجَعْتَ مِنَ المُضِيْ

* * *

إني تَعَشَّقْتُ الجهادَ وَذُقْتُ مَعْناه الشَّهِيْ
وتَمَرّدت فِي كُلِ أَعْضَائي دماءُ اليَعْرُبِيْ..
فأنا الأَبي وقد تَلَقَّيتُ الحَياةَ عَنِ الأَبِيْ
أَرْضي بِهَا ظِلُّ السَّماء ومَهْبطُ النُّورِ السَّنِيْ
كَمْ أَنْبَتَتْ مِنْ مُهْتَدِينَ وَكَمْ حبَا فِيها نَبِيْ

* * *

إنْ كَانَ قَد أَخْنَى عَلَيَّ وَساقَكَ الزَّمَنُ الرَدِيْ
وسرقْتَ مِنْ فَمِي الحياةَ ولُقْمَةَ العَيْشِ الهَنِيْ
وتَركْتَني نَهْبَ الضَّياعِ أَغطُّ فِي نَوْمٍ شَقِيْ
فَلَقَدْ صَحَوْتُ من السُّباتِ وهَزَّنِي الفجْرُ النَدِيْ
ولَمسْتُ ايماني الكبير وقد طَوى الظلماتِ طَيْ
وصَرخْتُ فِي أَهْلي الكثارِ الشاردين بكلِّ حَيْ:
قُمْ يا أَخِي.. فأَنَا وأَنْتَ نَرُدُّ طُغْيانَ البَغِيْ
إني عَرَفْتُ لَهُ الطريق.. عَرفْتُ أَنِي وَحْدَوِيْ..



بقلم : الدكتور محمد البهي

العفو .. والصفح

العفو ـ كصفة ممدوحة ـ ليس هو التنازل للآخر عن خوف أو جبن ، وإنما هو التنازل عن قدرة على البقاء على عدم الصفح في مواجهة من يعفى عنه . يقول الله تعالى ـ متحدثاً عن نفسه جل شأنه ـ في كتابه الكريم : « إن تبدوا خيراً أو تخفوه ، أو تعفوا عن سوء ، فإن الله كان عفواً قديراً » (النساء ١٤٩) فإنه يصف نفسه بالعفو ، مقترناً بوصفها بالقدرة في اللحظة ذاتها ، « فإن الله كان عفواً قديراً » .. ليشير إلى أن صفة العفو في الإنسان ـ وقد طلبه هنا : « أو تعفوا عن سوء » ـ لا تعد فضيلة له أو محل اعتبار وتقدير ، إلا إذا جاء العفو نفسه عن استطاعة في البقاء على عدمه ، مع تحمل مسئولية التشدد في الموقف .

وإذا كان العفو هو التنازل عن قدرة فلا يكون الدافع إليه : هوى النفس . بل ـ يجب أن تدفع إليه اعتبارات تتصل بالمجتمع ، أو بظروف من يقع منه العفو .

فمن الاعتبارات التي تتصل بالمجتمع ، حاجة من وقعت منهم الإساءة إلى معاونة من وجهت إليهم هذه الاساءة . يقول الله تعالى .

« ولا يأتل (أي يحلف) اولوا الفضل منكم والسعة : أن يؤتوا أولي القربى ، والمساكين ، والمهاجرين في سبيل الله ، وليعفوا ، وليصفحوا ، « ألا تحبون أن يغفر الله لكم ، والله غفور رحيم » (النور ـ ٢٢) .. فقد نسب القرآن إلى بعض أصحاب الحاجة من الأقرباء ، والمهاجرين في سبيل الله ، ومن عداهم : أنهم شاركوا في إساءة تتصل بأصحاب الفضل واليسار في الأمة ـ وفي مقدمتهم أبو بكر رضي الله عنه ـ فبيت هؤلاء العزم وعقدوا اليمين على عدم مشاركة أولئكم في أموالهم ، وسد حاجاتهم منها . فجاءت الآية تتطلب العفو والصفح عن الاساءة التي وقعت ، وتطلب بالتالي : العودة إلى العلاقة التي كانت قائمة قبل ، وهي علاقة المعاونة والمساعدة لاعتبار انساني ، هو الرحمة بأصحاب الحاجة في المجتمع ، وفي ذلك مصلحة الأمة كلها .

ومن الاعتبارات التي تتصل بالمجتمع أيضاً : في شأن العفو : الابقاء على التماسك فيه ، والمحافظة على قوته في البناء . يخاطب القرآن رسول الله ﷺ بقوله : « فبما رحمة من الله لنت لهم ، ولو كنت فظاً غليظ القلب لانفضوا من حولك ، فاعف عنهم واستغفر لهم ، وشاورهم في الأمر ، فإذا عزمت فتوكل على الله ، إن الله يحب المتوكلين » (آل عمران آية ١٥٩) . ويطلب إليه العفو عمن تولى وهرب من المسلمين في « أحد » يوم التقى الجمعان ، حفاظاً على وحدة الأمة وقوتها في مواجهة أعدائها ، رغم أن هذا البعض الذي دفعه إلى التولي التعجل بالغنائم من الاعداء . ولم يطلب القرآن إلى رسول الله العفو فقط ، بل طلب مع ذلك منه استغفار الله لهم ، وإشراكهم في الرأي فيما يتصل بشئون الأمة ، إشعاراً لهم باعتبارهم وقيمهم فيها ، وتطميناً لنفوسهم . وقد سبق لله تعالى أن عفا عنهم فيما تحكيه آية أخرى : « إن الذين تولوا منكم يوم التقى الجمعان ، انما استزلهم الشيطان ببعض ما كسبوا ، ولقد عفا الله عنهم ، إن الله غفور حليم » (آل عمران آية ١٥٥)

وتعقب الآية بوصف الله : بأنه حليم ، بعد وصفه بأنه غفور ، لتفيد أن هؤلاء الذين أخطأوا يوم « أحد » بالانصراف إلى الغنائم وعدم الثبات في أماكن القتال التي حددت لهم قبل انتهاء الموقعة .. يجب أن تعطى لهم فرصة أخرى لاختبار قوة ايمانهم ، ولا يؤخذون بقبولهم لإغراء الغنائم بعد الجولة الأولى في الميدان . وللمصلحة العامة إذن أن يعفى عنهم .

ومن هذه الاعتبارات كذلك عدم التفريط في حق عام . فقد وجه القرآن لرسوله ﷺ فيما تذكره الآية : « عفا الله عنك ، لم أذنت لهم ، حتى يتبين لك الذين صدقوا ، وتعلم الكاذبين » (التوبة ٤٣) .. أن الله قد عفا عنه ، وأنه ما كان ينبغي له أن يجيب بعض المؤمنين ـ وهم في حقيقة أمرهم من المنافقين ـ إلى ما طلبوا من القعود عن القتال . فالعتاب الذي يوجهه القرآن إلى الرسول ـ ﷺ ـ خاص بسياسة الأمة ومصلحتها في وقت الحرب والقتال . والسياسة الحكيمة في هذا الوقت : هي التعرف على العناصر الانتهازية في الداخل التي تضمر العداء للايمان بالله في الواقع ، وتتستر وراء اعلان الايمان ، ولا تتردد في هذا الوقت أن تتآمر ضد الأمة وسلامة أمنها . والتعرف على هذه العناصر من حق الأمة والمصلحة العامة ، قبل حق القائد فيها . ولذا لا ينبغي السماح بما يعوق هذه المصلحة . فعفو الله إذن عن الرسول كان تطميناً لخاطره فقط . ولكنه أكد حق المصلحة العامة بعتابه ، وبتوضيح خطورة الأمر ، فيما لو عدل عن السياسة الواجبة الاتباع في هذا الوقت . وقد كشف أمرهم في قوله : « لو كان عرضاً قريباً وسفراً قاصداً لاتبعوك ، ولكن بعدت عليهم الشقة وسيحلفون بالله لو استطعنا لخرجنا معكم ، يهلكون أنفسهم ، والله يعلم : إنهم لكاذبون » (التوبة ٤٢) .

وإذن : ليس العفو تنازلاً عن عجز وليس تفريطاً في مصلحة عامة . وليس العفو لشهوة النفس وهواها . العفو عمل إنساني لمصلحة الفرد ، ولمصلحة الأمة ممن يستطيع أن يقدمه .

آخر ماكتبه العالم الكبير

الدكتور عبد المحسن صالح

للدوحة قبل رحيله بأيّام

خسرت الحياة الثقافية فى الوطن العربى العالم والكاتب الكبير الدكتور عبد المحسن صالح ، وكانت وفاته بمنزله بالاسكندرية ، فى أول يوم من أيام رمضان الموافق ٩ مايو ١٩٨٦ ، وكان الكاتب الكبير الراحل قد ارتبط بمجلة الدوحة منذ عام ١٩٨١ ، ولم ينقطع عنها منذ ذلك التاريخ حتى قبل وفاته بأيام ، حيث أرسل لنا هذا المقال الرائع الذى كان آخر ماكتبه الفقيد العظيم ... رحم الله كاتبنا الراحل رحمة واسعة وعوض الثقافة العربية عن الخسارة الفادحة بفقدان هذا الكاتب الفذ الرائد فى علمه وأدبه الرفيع .

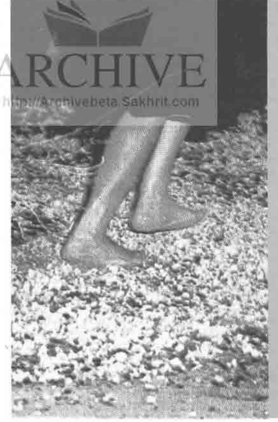
إنهم يمشون على النار حُفَاة..





د. عبدالمحسن صالح

لكل انسان قدرةمحدودة على تحمل العذاب والآلام ، وطبيعى ان يختلف ذلك بين انسان وآخر ، فقد يفزع هذا أو يصرخ من وخز ابرة ، فى حين أن غيره قد يتحمل الكى بالنار ، كما يحدث عنوة فى حالات التعذيب البشرى ، أو بمحض الاختيار ، ظنا منه أن الكي يخلصه من الآلام ، وفى مثل هذه الأمور وغيرها يتم ذلك لهدف محدد ، لكن أن يختار بعض الناس وسيلة غريبة ، مثل المشي على الجمر أو الفحم المشتعل وهم حفاة الأقدام ، ثم يقولون انهم لايشعرون إلا بأشياء تدغدغ جلودهم ، فذلك ـ بلاشك ـ مغاير لكل المعايير البشرية ، ومن ثم فقد أثارت هذه الظاهرة المحيرة تساؤلات كثيرة ، ليس فقط على مستوى الناس ، بل أيضا فى بعض الدوائر العلمية .. فهل يمكن حقا المشى على النار دون أن تحترق الأقدام ؟ .. هذا ماسنحاول مناقشته والاجابة عليه من خلال هذا المقال .



شكل (١) لقد تجمع بعض أهالى جزر فيجى ليؤدوا طقوس المشى على الأحجار المحماة بالخشب المشتعل ، وكأنما هم يحيون أسطورة زعيمهم الراحل الذى كان أول من سار على اللهيب

شكل (٢) فى عيد المشى على النار ـ يوم ٢١ مايو من كل عام ـ يقوم أهالى قرية يونانية باشعال الفحم حتى يصبح جمراً ، وعليه يخطو الرجال والسيدات اعتقاداً منهم أن هناك قديساً يحميهم من الاحتراق

موضوعنا هذا محير وشائك وطريف . فلطالما سمعنا عنه منذ سنين طويلة ، أو قرأنا منه بعض مقتطفات هنا وهناك . لكننا ـ لغرابته ـ لم نأخذ ما سرد عنه مأخذاً جاداً ، فطبيعة البشر واحدة ، فما يحرقنى لابد أن يحرق غيرى . ولهذا فلا أحد يتصور أن يكون هذا بمعصوم من النار ، وذاك يكتوى بلهيبها ، ومع ذلك تجد من يؤكد لك أنه رأى بعينيه نساء أو رجالاً حفاة الأقدام ، وهم يمشون على الفحم المشتعل ، ولعدة أمتار ، ثم ترى على وجوههم علامات الطمأنينة والهدوء ، وكأنما الذى يسيرون عليه بساط من حشائش ندية طرية ، لا من لظى وسعير !

ولقد ظل كل ذلك عالقا بالذهن ، فلا أستطيع ان أرفضه ، ولا كذلك ان أتقبله ، اللهم الا اذا فسر تفسيرا يرتاح اليه العقل ، ويتمشى مع المبادىء الطبيعية التى تسيطر على الحياة وعلى الجماد .. الى أن كان العام قبل الماضى ، حيث ذهبت فى رحلة سياحية الى بعض دول الشرق الأقصى التى تفوح منها رائحة الأساطير والعجائب ، وفى هونج كونج جاء من يخبرنى : هل تود مشاهدة من يمشون على النار حفاة ؟ .. وطبيعى أن أتحمس بشدة لرؤية هذه الظاهرة المحيرة رؤية العين ، علنى أستطيع ان أضع حدا للظنون التى تسيطر على العقل منذ سنوات مضت .. وباختصار شديد ذهبت وشاهدت وتأكدت وصورت بعض المشاهد ، لكن للأسف الشديد تعرض الفيلم للأشعة عندما مر فى حقيبة اليد الخاصة بى

إنهم يمشون على النار حُفاة.. خدعة أم حقيقة؟

■ المذيع البريطاني الذي قال: مشيت على فحم مشتعل وبقدمين عاريتين ولم أصب بأذى!

داخل الجهاز الكاشف بالمطار عن إمكان وجود أسلحة قبل الصعود الى الطائرة، وبارت الصور، لكن تكفينا بعض الصور الموجودة ضمن هذا المقال، ففيها توضيح كاف.

في هذا العرض المثير توقد أكوام من الفحم حتى تتحول الى قطع من الجمر، ثم تفرش على هيئة حصيرة ذات وهج واضح، ولكي تتأكد أنك أمام جمر حقيقي، فما عليك الا أن تلقي بأعشاب أو وريقات جافة، أو حتى أجزاء من ورق الصحف، وعندئذ سرعان ماتتفحم أو تشتعل.. ويبدأ المشهد التالي بظهور بعض أفراد صينيين ـ رجالا ونساء ـ يعدون على أصابع اليدين، وبثقة وجرأة بالغتين يخطون على الجمر حفاة الأقدام، وهم يصيحون ويهللون ويرقصون ويهتزون وكأننا نحن في احدى حفلات الزار، لكنها حفلة راقصة على النار، ويظل هؤلاء القوم كذلك بضع دقائق وهم يروحون ويجيئون برشاقة وبسرعة، وبحيث تستطيع أن تلمح الشرر وهو يتطاير من تحت أقدامهم، ثم ينطلقون خارج حلبة الفحم الذي يكاد يخبو من وطأ الأقدام، وكأنما كانوا يخطون على أرض عادية.. فلا ألم ولا حروق، بل كانت تعلو وجوههم علامات الانتصار والطمأنينة والحبور، والناس من حولهم مبهورون، وكأنما هم لايكادون يصدقون ما يشاهدون!

وانصرفنا ونحن مشغولو الذهن بهذه الظاهرة المحيرة، ولقد عللها اكثرنا بأنها لاشك معجزة، وهو تعليل لايرتاح اليه المشتغلون بالعلم كثيرا ومع ذلك فقد سألت المرشدة السياحية الصينية التي كانت ترافقنا عن مغزى هذه الظاهرة في حياة هؤلاء الناس، فأجابت بدورها اجابة لم تلق في عقلي استجابة أو قبولا، اذ أن مايقوم به هؤلاء الناس هو برهان لسيطرة النفس على الجسد، أو الروح على المادة، لدرجة أنهم لايشعرون بالآلام ـ على حد قولها.. أي كأنما هي تريد ان توحي اليّ بطريقة ماكرة أن قومها روحانيون ذوو شفافية، لدرجة ان هذه الروحانية تفعل المعجزات، وهم بالقطع ليسوا كذلك لأنهم يتقاضون أجرهم من الناس الذين يحضرون عروضهم (٢٠ دولارا للفرد).

والحق أن هذه الظاهرة الغريبة قد أثارت في الذهن حيرة شديدة.. اذ كيف نفسر عدم احتراق القدم العارية وهي تخطو على الجمر لبضع دقائق؟.. وهل هناك عازل غير مرئي؟.. أم أن السر يكمن في طريقة الخطو على الجمر؟.. الواقع أن الأقدام كانت عارية، وطريقة السير على الفحم المشتعل ليس بالتفسير المقنع، لهذا لم نجد أمامنا الا ان نعيد ذلك الى نوع من التنويم الذاتي Self hypnosis أي الايحاء المستمر للنفس بأن النار لن تؤذيهم أو تؤلمهم، وحتى لو صح ذلك فأنه لن يمنع ظهور الحروق على بشرة أقدامهم.. اذن: ماهو التفسير المعقول؟.. دعنا نؤجل ذلك حتى نهاية الموضوع.

ظاهرة أسطورية قديمة

ولقد عدت لأبحث بين مراجعي عن حقيقة المشي على النار بين الحقيقة والخيال، فقادني بعض ما جاء في هذه المراجع ان فكرة المشي على النار قد ظهرت في جزيرة صغيرة اسمها «بكا» ـ احدى جزر فيجي بالمحيط الباسيفيكي.. لكن الفكرة جاءت من أسطورة تحكي لنا أن أميرا يدعى توى ـ نا ـ ايفيكالاتي قد عاش بين قومه في بكا منذ مئات السنين، وكان شجاعا في القتال، ماهرا في القنص والصيد، وذات يوم اصطاد ثعبان سمك، لكنه سرعان ماتحول بين يديه الى أحد الآلهة الأسطورية التي يعتقد فيها أهل تلك الجزر، والذي يطلقون عليه اسم تويمولاوي.

■ في روما القديمة أعفت الحكومة بعض العائلات من دفع المكوس لبراعتهم في المشي فوق الفحم المشتعل!

■ على نغمات قيثارة بدائية يرقصون في إحدى قرى اليونان فوق جمرات النار!

ولقد جرت بين الأمير وبين معبوده محاورة طريفة، اذ عرض تويمولاوى على الأمير أن يطلق سراحه مقابل أن يجعله سيد صيادي البحار وسيد المقاتلين أجمعين، لكن الأمير أخبره أنه يمتلك هاتين المكرمتين، وعندئذ عرض عليه أن يمنحه مناعة من النار، فلا تمسه بسوء، ووافق الأمير على ذلك، وعقدا بينهما ميثاقا.

وجاء قوم الأمير، وحفروا حفرة واسعة، وألقوا فيها أحجارا، ثم أشعلوا نيرانا، وظلت متقدة أربعة أيام بلياليها، وبعد أن أصبح كل شيء على ماينبغي، دعا تويمولاوى الأمير، لكي يلقي بنفسه في أتون النار، وينام على الأحجار، لكن الأمير تخوف من الأمر، إذ ربما كان تويمولاوى يضمر له شرا، ولهذا فقد فضل ان يمشي حافي القدمين على الجمر المتخلف من النيران، فأقره معبوده على ذلك، حتى يطمئن قلبه، وبالفعل خلع الأمير نعليه، وخطا على النار جيئة وذهابا، وهو لايكاد يصدق أنه قد اكتسب مناعة من الاحتراق، بل أحس كأنما الجمر تحت قدميه العاريتين بمثابة بساط وثير بارد!

هذه الأسطورة الغريبة لازالت تعشش في عقول أهالي جزيرة بكا حتى اليوم، ولهذا اذا ذهبت الى هناك، فلاشك انك سترى القوم وقد أوقدوا جمرا، وعليه يسيرون حفاة الأقدام (شكل ١).. والغريب أن لهم في ذلك مرشدا أو موجها يوجههم، ويدعى «مبيتي» ـ أي الكاهن المسيطر على النار، فهو أول من يخطو عليها، ثم يتبعه مريدوه، ويظلون يرقصون حتى يخمد الجمر.





شكل (٣) فى تاهيتى أيضا يلبس مريد السير على النار ملابس خاصة . ويمسك بيده شعلة ، ويعرض على المشاهدين تحمله للمشى على الأحجار الساخنة ، ودليل لظاها ان تلقى عليها ورقة ، فتشتعل فى الحال

عيد المشى على النار

ورغم أن القبائل البدائية فى جزر فيجى وفى سيرى لانكا وتاهيتي .. الخ ، قد ورثت شجاعة المشي على الجمر نتيجة لأساطير قديمة ، الا أن ذلك لم يمنع ظهورها فى أماكن متفرقة من العالم ، لكن الغريب أن بعض المجتمعات المتحضرة فى الولايات المتحدة وأوربا قد بدأت بدورها تعقد لذلك حلقات ، تسبقها ندوات ، لتلقى فيها على الناس مواعظ وارشادات ، ثم يوجهون ـ بعد ذلك ـ للمشى على النار.

خذ على سبيل المثال مايحدث فى قرية آيا ايلينى اليونانية ، وبالتحديد فى يوم ٢١ مايو من كل عام ، ففيه توقد أكوام كبيرة من الفحم وقطع الأخشاب ، وتفرش على مساحة واسعة من الأرض ، ثم ينطلق فوقها مابين ١٠ ـ ١٥ فردا ، من رجال وسيدات ، ليرقصوا بنشوة غامرة على نغمات قيثارة بدائية وحولهم يتجمع الآلاف من القرى المجاورة ، أو من الغرباء أو السياح الذين يتوقون الى رؤية بشر لاتحرقهم النيران ، ويقال ان الرقص على الجمر يستمر لبضع ساعات ، وفيه تنطلق الأناشيد والصيحات ويظل الحال على ذلك حتى تخمد النيران (شكل ٢) .

لكن .. ماهدف هؤلاء الناس ؟ .. وما معنى هذا العيد ـ عيد المشى على النار؟

الواقع أنهم جماعة ممن ينتمون الى مايسمى بالهوس العقائدى ، فأهل تلك القرية اليونانية يعرفون باسم « الاناستيناريد » ، وهم يريدون أن يوحوا للناس بأن عملهم هذا هو إحدى المعجزات ، وأن الذى يحول بينهم وبين الاحتراق هو القوة الخارقة التى يمنحها لهم القديس قسطنطين والقديسة هيلين .

وطبيعى أن هذا الاعتقاد ، هو اعتقاد يخص هؤلاء الناس وحدهم ، ومعهم أيضا بعض المعتقدين فى المعجزات ، لكن ظاهرة المشى على النار قديمة ، اذ يذكر لنا جيم دوهورتى فى مقال له بعنوان « المشاة على النار فى العالم » ، ان المؤرخ بيلينى قد أشار الى وجود بعض عائلات فى روما القديمة كان أفرادها يمشون على الفحم المشتعل ، وكان من نتيجة ذلك أن الدولة قد أعفتهم من دفع المكوس . ويذكر أيضا أن راهبا من رهبان العصور الوسطى فى مدينة فلورنسا ، كان يظهر « معجزاته » بالمشى على النار ، فاستحق أن يكون خليفة للقديس بطرس .. لكن المشى على النار أصبح الآن يمارس فى تاهيتى والصين والهند وبلغاريا واسبانيا وأمريكا وانجلترا .. الخ .. (شكل ٣) .

ويشير دوهورتى الى وجود وسائل أخرى للعب بالنار ، فبعض الناس فى سومطرة يستطيعون وضع جمرات مشتعلة فى أفواههم ، ومنهم من يستطيع تحمل سيخ من الحديد المحمى عندما يكوى به الأجساد ، ودون أن تظهر عليهم علامات الخوف أو الألم .

دعوة للمشى على النار

والواقع أن هناك حكايات كثيرة يرددها الذين استطاعوا تحمل المشى على الجمر المتقد ، لكننا سوف نختار منها حكايتين كان بطلاها اثنين من المشتغلين بالعلم ، ولهذا فهم أقدر من غيرهم على توضيح الخدعة من الحقيقة .

يذكر لنا دكتور جيرمى تشيرفاس ـ عالم الفيزياء البريطانى وواحد من المستشارين العلميين لمجلة « رجل العلم العصرى » البريطانية ، وهو أيضا من المهتمين بدراسة أمثال هذه الظواهر ـ يذكر فى عدد يونيو ١٩٨٥ من تلك المجلة أنه تقابل مع أحد مقدمى برامج الاذاعة البريطانية ، وقال له بشىء من الزهو والتحدى « لقد مشيت بنفسى على فحم مشتعل ، وبقدمين عاريتين ، ولمسافة أربعة أمتار ، ودون أن أصاب بأذى .. والآن : ألا ترى أن ذلك ضد كل قوانين الفيزياء التى تعرفها ؟ »

عندئذ يجيبه تشيرفاس « بالعكس .. إنها بالضبط قوانين الفيزياء التى جعلتك تمشى على الفحم المتقد ، وليس ماقد يداعب خيالك مما

إنهم يمشون على النار حُفاة.. خدعة أم حقيقة؟

■ طبقة رقيقة من بخار الماء هي التي تحمي هواة المشي على النار من احتراق القدمين!

يردده عامة الناس ، (أى مسائل المعجزات وما شابه ذلك) .

ويذكر تشيرفاس تلك الدعوة التى وجهت اليه لحضور ندوة مقامة فى أحد النوادى الأنيقة بضاحية شيزويك بلندن ، ويديرها شخص يدعى هيو برومبلى ، وتشاركه فيها زوجته « خارا » ، وعلى الذى يريد ان يتلقى تدريب المشى على النار أن يدفع خمسين جنيها استرلينيا للجلسة الواحدة (ويذكر أنه لم يدفع ، لأنه مدعو) .. وتبدأ الندوة بسرد قصص وحكايات عن كرامات أمكن تحقيقها ، وذلك بقصد تهيئة نفوس الحاضرين الى جو تسيطر عليه الطمأنينة والروحانية .

ويصحب برومبلى وزوجته الحاضرين الى الخارج ، حيث توجد حصيرة واسعة من الفحم المشتعل ، وتحيط بها حشائش مندّاة بالماء ، وعليها يقف المريدون حفاة الأقدام ، ثم يأمرهم بترديد عبارة « سنخطو على حشائش ندية باردة » مرات كثيرة ، مع التركيز والاعتقاد فى صحة ذلك (وهو نوع من الايحاء الذاتى) .

وجدير بالذكر أن هذه الندوات تنطوى على حيل ذكية ، وتوجيهات خادعة ، وطقوس غريبة ، كأن تقول « خارا » مثلا للحاضرين بصوت عذب رخيم ، ينطوى على اقناع لئيم : « كل من يحتكم الى العقل القويم ، فعليه ألا يقرب الجمر ، لكن باطلاق العنان لخيالكم ، فان كل شىء يمكن انجازه » (ومنها المشى على النار) .. أى كأنما هى تريد من الناس أن يلغوا عقولهم .. وطبيعى أن كل ذلك لن يقدم ولن يؤخر — كما سنرى بعد قليل .

وفى مجلة العلم — ٨٥ الأمريكية يكتب ريك ماكورت عن الموضوع نفسه ، فيذكر : وقفنا حفاة الأقدام فى دائرة ونحن نرتل بخشوع فى جو تغلب عليه البرودة ، وأمامنا تمتد حصيرة طولها عشرة أقدام من الفحم المتقد الذى يبدو فى ظلام الليل بلون أحمر برتقالى ، ووقف رجل على الحشائش المبتلة وهو يرنو ببصره صوب حصيرة الجمر ، ثم بدأ يخطو بهدوء فوق الجمر بخطوات واسعة ورشيقة وسريعة .. ثم تبعه الذين وقفوا فى الدائرة ، وبدأوا يقلدونه ، (شكل ٤) .

ويعلق ماكورت على ذلك فيقول : لم نكن طبعا فى بلاد اليابان أو سنغافورة أو بعض جزر جنوب الباسيفيكى (وهى التى اشتهر أهلها منذ زمن طويل بالمشى على النار) ، بل كنا فى منطقة خلوية بأريزونا .. ففى هذا المكان يجتمع كل يوم حوالى « دستة » من الناس الذين يهوون المشى على الجمر ، وتحت اشراف المدعو توم بل من نفس الولاية . وهو واحد من ٣٥ مدربا تلقوا أصول الصنعة من تولى بيركان القاطن بكاليفورنيا ، وهذا بدوره قد درب ٣٠ ألفا من الأمريكيين للمشى على جمر الفحم حفاة الأقدام وكان يتقاضى مابين ٥٠ — ٦٠ دولارا لكل فرد ... الى آخر هذا التعليق الذى يوضح لنا أن المشى على النار اصبح صنعة تدر على القائمين بها مئات الألوف ، ان لم يكن ملايين الدولارات .

هل من تفسير علمى مقبول ؟

واذا كان عامة الناس يرجعون مثل هذه الظاهرة الى قوى غيبية تحميهم من لسع النار ، أو أن ذلك يرجع الى سيطرة الروح على المادة ، أو الى كرامات الى آخر هذه التفسيرات التى لاتتمشى مع منطق قويم ، أو فكر سليم .. فاذا لم يكن ذلك كذلك ، فكيف نعلل عدم احتراق هؤلاء الناس ، خاصة وأن درجة حرارة الفحم المتوهج تتراوح مابين ٥٠٠ — ٦٠٠ درجة مئوية ، وهى حرارة كفيلة بتفحم أية مادة عضوية — بما فى ذلك لحم القدم؟!

الواقع أن هناك عدة مبادىء علمية قد لايتنبه لها معظم الناس .. أولها ان هناك فرقا جوهريا بين درجة الحرارة ، وكمية الحرارة ، كما ان هناك فرقا بين مادة جيدة التوصيل للحرارة ، وأخرى رديئة التوصيل ، لكن قبل ان نوضح ذلك ، دعنا نقدم تجربة معروفة نتائجها مقدما ، وبدون لف أو فلسفة .. ولنفرض هنا أننا أتينا بلوح طويل وعريض من الصفيح او الحديد أو النحاس ، ووضعناه على الفحم المتوهج ، عندئذ سيكتسب اللوح درجة حرارة الفحم (او حوالى ٥٥٠ درجة مئوية) .. ولنفرض اننا طلبنا من بعض رواد المشى على الفحم أن يمشوا على لوح الحديد المحمى ، فهل يستطيعون ذلك ؟

لو أنهم فعلوا .. فلن يعودوا لمثلها أبدا ، إذ ستحترق أقدامهم وتتفحم بعد لحظات قصار — هذا رغم ان درجة حرارة اللوح هى نفس درجة حرارة الفحم الذى طالما ساروا عليه وهم سعداء !

هناك أيضا ملاحظة عابرة قد لايعطيها الناس أهمية .. فلو أنك نثرت حجما معينا من الماء (على هيئة قطرات) على فحم مشتعل ، فان لظاه يخبو ، أو قد تنطفىء منه الطبقات السطحية المتوهجة ، لكن الأمر يختلف تماما مع معدن له نفس درجة حرارة الفحم ، ففى هذه الحالة يتبخر الماء سريعا ، وتنخفض درجة حرارة المعدن قليلا ، أى انه لايزال يحتفظ بكمية كبيرة من الحرارة .

من هاتين التجربتين البدائيتين أو البسيطتين ، تستطيع ان تعلل مشى الناس على الفحم دون احتراق .. فالفحم هنا ردىء التوصيل للحرارة ، ولهذا فان جوفه لايسخن بنفس الدرجة التى تسخن بها الطبقة السطحية ، لكن المعدن جيد التوصيل للحرارة ، ويسخن جميعه ، ويحتفظ بكمية كبيرة من الحرارة ، وهى — على أية حال — أكبر بكثير من كمية الحرارة التى يحتفظ بها الفحم .

وتأسيسا على ذلك يفسر العلماء مشى الناس على الفحم المتقد .. فرغم أن درجة حرارته عالية ، الا أن كمية الحرارة التى يفرغها فى القدم العارية يمكن تحملها ، مع أخذنا فى الاعتبار أيضا أن هواة المشى على النار يقفون على حشائش مندّاة بالماء ، فتبتل بها أقدامهم قبل أن يخطوا على الفحم ، وعندما يسيرون عليه ، تتكون عندهم طبقة رقيقة عازلة من بخار الماء ، تحميهم جزئيا عند بداية الخطو على الجمر من حدوث حروق لاتحتمل .

ان هذا الرأى للبروفيسور جون تيلور أستاذ العلوم الرياضية بجامعة لندن ، وكذا عالم الفيزياء دكتور تشير فاس الذى حقق هذه الظاهرة بنفسه ، وكذا الفيزيائى بيرنارد لايكند



شكل (٤) انتقلت « تقليعة » المشي على النار من المجتمعات البدائية الى المجتمعات المتحضرة . والصورة لحلقة النار التى تقام بأريزونا بالولايات المتحدة .

الذى يعمل فى مجال الطبيعة النووية بجامعة كاليفورنيا ــ وهو ايضا قد دخل التجربة ، ومشى على الفحم المشتعل .. وغيرهم بالطبع كثيرون . وهم يرجعون حماية القدم من النار الى ظاهرةعلمية معروفة باسم ظاهرة « ليد نفروست » ــ نسبة الى عالم فيزيائى عاش فى القرن الثامن عشر . وهوالذى فسر لنا كيف ان قطرة من الماء اذا سقطت على سطح اناء شديدة السخونة . فان جزءا منها يتبخر فى التو واللحظة . لكن الجزء الآخر يتخذ شكلا كرويا صغيرا ، ويظل يدور على هيئة قطرة صغيرة . وكأنما هناك شيء يحميها ويحول بينها وبين سطح الاناء الشديد السخونة ، ولكنها بعد لحظات قد تطول . تفقد مقاومتها وتختنق .

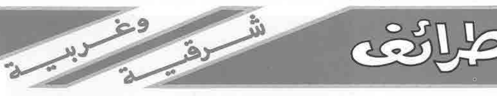
ان الذى يحول بين قطرة الماء وبين سطح الوعاء الشديد السخونة . هو تكوين طبقة رقيقة من بخار الماء . فتجعلها بمعزل مؤقت عن درجة الحرارة العالية . وهو تعليل صحيح يفسر لنا بقاء قطرة الماء لفترة غير قصيرة .

والواقع ان الحواة يستخدمون نفس هذا المبدأ لعزل أصابعهم عن الاحتراق عند غمسها فى رصاص سائل ثم اخراجها بسرعة دون ان تحترق او تتفحم . فقبل غمسها تكون مبللة بالماء الذى يتبخر حول الاصبع . ويتحول الى غشاء رقيق من بخار الماء الساخن . فيحول بين الاصبع وبين الاحتراق .

والآن يمكن جمع هذه العوامل لتفسر لنا قدرة بعض الناس على السير فوق حصيرة من الفحم المشتعل ، دون ان تصاب أقدامهم بأذى كبير .. فالماء الذى يندى أرجلهم ، يعزلها عن لظى الفحم بغشاء واق من بخار الماء ، وبعد قليل تكتسب أرجلهم طبقة رقيقة من رماد الفحم التى تصبح بدورها عازلا جزئيا ، هذا بالاضافة الى ان كمية الحرارة التى تنساب من الفحم المتقد الى أرجلهم كمية قليلة ، فلا تؤدى الى حروق كبيرة (لأن الفحم ردىء التوصيل للحرارة ، وهو هنا عكس التوصيل فى المعدن الذى يفرغ فى القدم شحنة من الحرارة تكفى لحرقها) .

ولهذا ــ فان المشى فوق الجمر ليس بمعجزة ، لكنه يحتاج الى تدريب على خطوات محسوبة وسريعة . ويتطلب ارادة قوية ، وأن يطرد الناس الخوف من مخيلتهم . ذلك ان العامل النفسى هنا أيضا ذوأهمية كبرى .. وهو مايفسر لنا صمود بعض الناس على النار ، وهرب البعض الآخر فى الخطوات الأولى من هذه التجربة القاسية .. لكن يبقى السؤال المحير : لماذا يفعل الناس ذلك حقا ؟ .. ربما لاظهار أنفسهم امام الناس وكأنما هم فوق مستواهم . أو ربما دخلت فى بند الأفعال الغريبة التى يمارسها بعض البشر دون ان يؤدى ذلك الى فائدة تعود على البشرية . ومع ذلك . فالناس فيما يعشقون مذاهب . حتى ولو كان ذلك فى السعى على الجمار ، أو اللسع بالنار .

عبدالمحسن صالح



مقلب

قال مدير الشركة لصديقه :

ــأمس شربت أكبر « مقلب » في حياتي ! ..

ــوكيف ذلك ؟ ..

ــطلب السكرتير اجازة بدعوى أن والدته توفيت ، فأذنت له بالاجازة ، ثم أردت أن « أفقشه » حتى لا يعود الى الكذب ، فذهبت الى منزله ..

ــوماذا حدث ؟..

ــتبين أن والدته توفيت فعلاً ، فاضطررت الى الاشتراك في تشييع جنازتها !

زجاجة العطر والحسناء

أرسل المرحوم مصطفى صادق الرافعي زجاجة عطر الى حسناء وكتب عليها : يا زجاجة العطر اذهبي إليها ، وتعطري بمس يديها ، وكوني رسالة قلبي إليها .

ماذا يحب ؟

ــمر « أبو الصنابير » على دار عدو له . فسأل عنه . فقيل له : إنه على ما تحب ..

فقال : لماذا إذن لا أسمع عويلاً ؟

الجبن له فوائد !

قال مارك توين الكاتب الأمريكي الساخر المشهور :

ــهناك وسائل كثيرة لمقاومة الاغراء .. ولكن أقواها جميعاً هو .. الجبن !

سياستان

ــقال عمرو بن العاص : « ما دخلت في شيء قط إلا وخرجت منه » .

ــوقال معاوية بن أبي سفيان : « ما دخلت في شيء قط وأريد الخروج منه » .

السيف القصير

ناولت امرأة ولدها سيفاً فرآه قصيراً فقال :

ــإنه سيف قصير .

فقالت : تقدم خطوة ، فيطول !

انتظر أياماً

جاء رجل الى رجل من الأثرياء فقال :

ــأنا جارك وقد مات أخي فلان فمر لي بكفن له .

فقال الثري :

ــلا والله ما عندي اليوم شيء ، ولكن عد اليّ بعد أيام فسيكون الذي تحب .

قال الرجل :

ــأصلحك الله هل نملحه الى أن يتيسر عندك شيء ؟!

ذو القرنين

دخل راهب على هشام بن عبدالملك فقال للراهب :

ــأرأيت ذا القرنين ؟ .. أكان نبياً ؟

فقال الراهب :

ــلا .. ولكنه إنما أعطي ما أعطي بأربع خصال كن فيه : كان إذا قدر عفا ، وإذا وعد أوفى ، وإذا حدث صدق ، ولا يجمع شغل اليوم الى غد .

دعاية شعرية

قدم إلى المدينة تاجر من أهل الكوفة ومعه خُمر ، والخمار ما تغطي به المرأة رأسها ، فباعها كلها وبقيت السود منها فلم تبع ، وكان صديقاً للدارمي ، فشكا ذلك إليه ، وكان الدارمي قد نسك وترك الغناء وقول الشعر فقال له :

ــلا تهتم بذلك فإني سأنفقها لك حتى تبيعها أجمع ، ثم وضع شعراً للغناء :

قل للمليحة في الخمار الأسود
ماذا صنعت براهب متعبد
قد كان شمر للصلاة ثيابه
حتى وقفت له بباب المسجد

فشاع غناؤه بين الناس ولم تبق في المدينة ظريفة الا ابتاعت خماراً أسود .. حتى نفد ماكان مع العراقي منها .

السعادة الخفية

حدث ذات يوم وأنا في الحادية عشرة من عمري أن عدت الى البيت أبكي لأنهم أعطوني دوراً صغيراً في برنامج للأطفال يؤدى في الحفلة ، على حين أعطوا زميلاً لي الدور الرئيسي . فأخرجت أمي ساعتها في هدوء ووضعتها في كفي ثم سألتني : « ماذا ترى ؟ » .

فقلت : « غلافاً من الذهب ، وجهاً ، وعقارب » .

ففتحت ظهر الغلاف وكررت سؤالها ، فرأيت عجلات دقيقة جداً وتروساً ، فقالت أمي : « إن هذه الساعة لا خير فيها بغير هذه الأجزاء جميعاً ــ حتى التي لا تستطيع رؤيتها » .

وقد جعلني درسها الصغير هذا ، أسعد طول حياتي لأني أدركت أن الواجبات الصغيرة التي يجب أن يؤديها كل امرىء ، جوهرية ولو لم تظفر بتصفيق الناس .

سخرية

كان غلام يستمع للفرزدق وهو ينشد قصيدة على جمع كبير، فكان هذا الغلام يصفق طرباً. فلما انتهى الشاعر الكبير من انشاده استدناه وقال له:

ــ أأعجبك شعري؟

قال الغلام:

ــ لم أسمع مثله في الجودة والرصانة والمعنى.

فداخل الفرزدق الزهو وقال للغلام:

ــ أيسرك أن أكون أباك؟

فقال الغلام:

ــ أما أبي فلا أبتغي به بديلاً، ولكن يسرني أن تكون أمي!

في لحظة الاحتضار

ــ اسدلوا الستار فالمأساة انتهت! (رابليه)

ــ إنني انتقل من تاج قابل للفساد إلى تاج لا يفسد. (شارل الأول).

فكرة شيطانية

رأى سائح فلاحاً يحرث حقله بمحراث يجره ثور واحد، وكان الفلاح يحث الثور على السير قائلاً: «سر يا نيل ... سريا نلسون .. سريا سام». فسأل السائح الفلاح: «كم اسماً لثورك؟!». فأجاب الفلاح: اسم واحد.. ولكنني اعتدت أن أضع على عينيه أثناء العمل غطاء حتى لا يرى، ثم أصيح وراءه بعدة اسماء فيتوهم أن معه عدداً من الثيران تعاونه في الجر أو تنافسه العمل، وبهذه الطريقة فإنه يا سيدي يؤدي ضعف العمل الذي يؤديه لو شعر أنه يعمل لوحده.

رأس الأصلع

افترى رجل أصلع على ديوجينيس فأفرط في افترائه فقال ديوجينيس:

ــ إني لأغبط شعر رأسك إذ هرب من جمجمتك هذه الرديئة!

حسن السير والسلوك

صاحب العمل: هل عندك شهادات بحسن السير والسلوك؟

طالب العمل: هذه شهادة السجن بحسن السير والسلوك!

هل تعلم؟

• هل تعلم أن فريقاً من المهندسين الايطاليين قد اخترع جهازاً يمتد على ستة أرجل بحيث يمكن أن يساعد المقعدين المشلولين على الانتصاب والسير.

• هل تعلم أن العلماء دهشوا عندما علموا أن الفراشات تسمع.

• هل تعلم أن عدد البحيرات في منطقة أونتاريو في كندا يقرب من ٤٠٠ بحيرة.

• هل تعلم أن الذئاب تتمتع بحاسة سمع مرهفة بحيث أنها تستطيع سماع وقع أقدام الإنسان على مسافة ربع ميل، ويدعي الاسكيمو أن الذئب يستطيع سماع صوت السحابة التي تمر من فوقه.

الإحسان والإساءة

وقع بين أبو مسلم وبين قائد له كلام، فأربى عليه القائد إلى أن قال له: يا لقيط! فأطرق أبو مسلم فلما سكنت عنه فورة الغضب ندم وعلم أنه قد أخطأ واعتذر وقال:

ــ أيها الأمير، والله ما انبسطت حتى بسطتني ولا نطقت حتى أنطقتني فاغفرلي..

قال: قد فعلت..

قال: إني أحب أن استوثق لنفسي..

فقال أبو مسلم: سبحان الله! كنت تسيء وأحسن، فلما أحسنت أسيء!!

دعاء

ــ يا رب أعطني الأمل، وخذ مني اليأس، ولا تعطيه لغيري.

ــ يا رب، ازرع نضارة الحب في قلبي، وانزع تجاعيد الحقد من نفسي.

ــ ساعدني على أن أحول أصدقائي إلى أحباء، ومعارفي إلى أصدقاء، وخصومي إلى معارف.

ــ امنحني القوة لأتغلب على شهواتي، واعطني العقل لأنتصر على غروري.

ــ يا رب، قوّ بصري لأرى عيوب نفسي، وضع عصابة سوداء على عيني حتى لا أبالغ في عيوب غيري.

دنيا الأفكار

ــ ما انفقه على نفسي ضاع مني، وما أعطيته للناس باق أبد الدهر.

ــ يهب الله كل طائر رزقه، ولكنه لا يلقيه له في العش.

ــ لا ينجح عمل ما لم تكن يد الله فيه.

ــ أنانية الفرد طعنة في جسم المجموع.

ــ الوقت آلة الرزق إذا استعمل.

ــ قد يعطي الانسان بدون محبة ولكنه لا يقدر أن يحب دون أن يعطي.

اللبن لا يباع

كان العرب يعتبرون اللبن كالماء لا يباع. وقد حدث أن مرّ رجل من قريش بامرأة من العرب في بادية، فقال:

ــ هل من لبن يباع؟

فقالت: إنك لئيم أو قريب عهد بقوم لئام.

شاعر.. تطارده الأقدار!

بقلم: عبد الوهاب الأسواني



في اللحظة التي دخلت فيها بغداد، كان موكب الخليفة العباسي «الواثق» يشق المدينة ــ في مروره التقليدي الشهري..

الخليفة شاب في مقتبل العمر، ينسدل عليه قباء من الديباج الأسود مشقوق من الأمام، وعلى رأسه قَلَنْسُوة مخروطية الشكل، تلمع في مقدّمتها ماسة كبيرة يُقال إنها كانت في تاج كسرى..

كبار رجال الدولة يحيطون بالخليفة على جيادهم المطهمة، يرتدون ثياباً سوداء عليها خطوط عريضة من الحرير الأبيض، وفي المقدمة صفٌ من الفرسان يحملون رماحاً لها أسنّة من الفضة، حولهم رايات تحمل اللون العباسي ــ الأسود ــ كُتب عليها بالخط الكوفيّ الأبيض لا إله إلا الله محمد رسول الله..

وقفتُ مع الجماهير التي احتشدت على جانبي الطريق تُحيّي الخليفة بهمهمات مثل «حيّا الله الخليفة، نصر الله أمير المؤمنين».

وبعد مرور الموكب سألت الرجل الذي يقف بجواري:

ــ من فضلك.. أين بيت الشاعر دِعْبِل الخُزاعي؟

اتسعت عينا الرجل وهو يحدّق في وجهي، ثم تراجع بظهره، وعندما ابتعد قليلاً، استدار وأسرع في سيره. سألت الرجل الذي يليه فقال لي: لم أسمع عنه.

ــ لكنه مشهور..

انسحب هذا أيضاً دون أن يجيب، ثم توقّف على مبعدة وهو يوجّه لي نظرات خائفة..

تكرر هذا مع كل من سألتهم، وأخيراً اعترضت طريق رجل يرتدي أسمالاً بالية يبدو من هيئته أنه من طائفة الصعاليك والشُطّار، فقال لي باسماً:

ــ الصديق العزيز دِعْبِل؟! ثم تلفّت حوله قبل أن يهمس لي في حذر:

ــ هرب إلى دمشق..

ــ هرب؟

ــ هجا الخليفة «الواثق» بقصيدة طويلة، وهو الآن يتخفّى عند أصدقائه هناك..

ــ هل تعرف أصدقاءه في دمشق؟

ــ إسأل عن رجل يسكن في ضاحية «الفراديس» اسمه «أبو العزائم»، وسوف يدلك عليه.

في دمشق قال لي أبو العزائم ــ وهو كبير الصعاليك في حيّ الفراديس ــ إن الخليفة اكتشف مخبأ «دِعْبِل» فاضطر إلى الفرار إلى صنعاء..

في صنعاء قالوا لي إنه سافر إلى القاهرة، وظللت أتنقّل وراءه من مدينة الى مدينة، القاهرة، الاسكندرية، طرابلس، أخيرا عثرت عليه في بيت متواضع في أحد الأزقّة المجهولة من مدينة القيروان..

* * *

كان في الخامسة والستين، متوسط الطول، نحيل الجسد، خفيف اللحية، بوجهه البرونزي شحوب الفنّان، على رأسه عمامة زرقاء كبيرة، يلتفّ بعباءة من الصوف الرخيص، وكان راضياً عن نفسه رغم نبرة الأسى التي تشيع في صوته..

قلت له ونحن نشرب القهوة: ما معنى اسم «دِعْبِل»؟

ــ البعير المُسِنّ..


سلمان

شاعر..
تطارده الأقدار!

ـ ما رأيك ، أيها البعير العجوز ، في انني لا أفهمك .. فأنت تهجو من أحسن إليك بنفس الحماسة التي تهجو بها من أساء إليك .. وقد تعجبت حينما عرفت بأن الوالي « مالك بن طوق » استضافك في قصره لبضعة أيام ، بذل فيها كل ما في وسعه لاكرامك ، فلما خرجت من عنده ، هجوته بقصيدة جعلت عاصمة الولاية كلها تضحك منه .. فما معنى هذا ؟

عدل من وضع مسند صغير وراء ظهره وقال باسماً :

ـ قَدَر !

ـ هل أفهم من هذا أنك لاتجيد من الشعر غير الهجاء ؟

ـ ربما ..

ـ أريد إجابة محدّدة ..

تنهّد بصوت مسموع وسألني : ما الذي سمعته أنت ؟

ـ سمعت بأنك تعيش شريداً طريداً لأنك هجوت جميع معاصريك من الخلفاء .. الرشيد والأمين والمأمون والمعتصم وأخيراً الواثق .. كذلك هجوت جميع الوزراء وحُكّام الولايات وقواد الجيش وكبار رجال الدولة .. فلماذا هذا كله ؟

ـ قَدَر ..

أحسست بأنه غير راغب في الحديث فقلت استدرجه :

ـ من كان أشدّ الخلفاء عليك ؟ ـ فتدفق في إجابته :

ـ المعتصم .. كان رجلاً حادّ المزاج ، ورث الكثير من طباع أجداده لأمّه ـ الأتراك ـ ولم يرث شيئاً من دماثة أبيه ، الرشيد .. وكنت قد هجوته من قبل ، وتوقعت أن ينتقم مني فغادرت العاصمة في نفس اليوم الذي تولّى فيه الخلافة ..

ـ ولماذا توقّعت انتقامه ؟ .. أليس من الجائز أن يعفو؟

ـ عزمت على أن أهنئه بقصيدة لكي أزيل ما في نفسه ، لكن القصيدة انقلبت في يدي إلى هجاء !

ـ ولماذا لم تُخفها عنه ؟

ـ من الصعب إخفاء شعري .. فما ان أعرض القصيدة على صديق لكي أعرف رأيه في مستواها الفنّي ، حتى أفاجأ بالناس يردّدونها في البيوت والأسواق ، وبصبيان المكاتب يترنمون بها في الطرقات ، وبالطلبة يناقشونها في حلقات دراستهم ، وبالبنات يتغنين بها خلف النوافذ ..

ـ لكن لا تؤاخذني إذا قلت لك إن القصيدة الأخيرة التي هجوت فيها المعتصم ، أحزنتني ..

ـ لماذا ؟

ـ ربما لأسباب عاطفية .. فقد إرتبط اسم المعتصم في وجداننا ـ نحن العرب المعاصرين ـ بدفاعه عن أرضنا .. حتى أننا لا نجد ما نردّده ـ في هزائمنا المتوالية ـ غير « وا معتصماه » .

ـ وأنا أيضاً أحترم هذا الجانب في المعتصم ، ولا أنسى موقفه مع « ياتوس » ..

ـ ياتوس مَنْ ؟

ـ قائد بيزنطي متعجرف أطمعه فينا أن قومه كانوا قد حققوا علينا نصراً بسيطاً في ايام الرشيد .. فأغار على القرى والمدن في شمال الشام وخرّبها ، ثم مثّل بمن وقع في يده من الأسرى فَسَمَلَ الأعين وقطع الأيدي والأرجل والآذان ـ على غير ما كان يحدث عادة ـ ثم كانت الطامّة حينما أسر أكثر من ألف فتاة من أجمل بنات العرب .

ـ ألف فتاة؟

ـ كان من الصعب على أي قائد عربي أن يجتاز ممرات جبال طوروس ذات الطبيعة الوعرة ، بجيش ضخم .. لكن المعتصم ـ وهو عسكريّ النشأة والمزاج ـ اجتازها .. استولى على مدينة للبيزنطيين أسماها « أنقرة » ثم زحف على « عموريّة » .

ـ وهل كانت لعموريّة أهمية كبيرة؟

ـ كانت عاصمة القوم الثانية ، بعد القسطنطينية ، ولها أسوار شاهقة وأبراج منيعة ، لكن المعتصم لم يزحف عليها الاّ بعد أن جهّز لها آلات حصار جديدة لم يسمع بها أحد من قبل ..

ـ أي آلات ؟

ـ استحدث نوعاً من المنجنيقات الضخمة ـ التي تقذف النار والحجارة ـ جعل لها كراسي تحتها عَجَلات تتحرك بها حول الأسوار بسهوله ، وكل منجنيق يديره أربعة رجال .. ولما رأى القائد المتعجرف « ياتوس » هذا ، صعد إلى البرج الأكبر ، وأظهر نفسه للمعتصم وهو يخلع سيفه ويضعه تحت قدميه ، فأوقف المعتصم القتال ..

ـ ما دمت تقدّر هذا الجانب في المعتصم ـ كما تقول ـ فلماذا هجوته بهذه القصيدة الموجعة ؟

ـ ألم أقل لك إنني حاولت تهنئته بالخلافة فانقلبت القصيدة في يدي إلى هجاء ؟!

ـ ماذا كان ردّ فعله بالضبط حينما بلغه الهجاء ؟

ـ طلبني حياً أو ميتاً فطرتُ من وجهه .. وعندما سمعت بأنه استعاد الفتيات العربيات الألف ، سعدت وأكبرته ، فهنأته بقصيدة طويلة ، لكن آخرها انقلب في يدي إلى هجاء ، فتركتها كما هي !

ـ أليس هذا شيئاً غريباً ؟

ـ المعتصم كان رجلاً عظيماً ، لكنه لم يكن يستشير أحداً في شئون الأمّة ، وهذا الجانب لا يعجبني فيه .

ـ ومتى عُدت إلى العاصمة ؟

ـ بعد وفاته مباشرة .. لكنني اضطررت إلى الهرب في نفس اليوم الذي دخلتها فيه ..

ـ لماذا ؟

ـ وجدت الشعراء محتشدين يرثونه بقصائدهم ، فحاولت أن أرثيه ، لكن نفسي لم تطاوعني ، فاكتفيت بهجاء الخليفة الجديد !

ـ هجوت « الواثق » حُباً في الهجاء ؟!

ـ ألم أقل لك قَدَر؟!

* * *

مرت لحظة صمت دار أثناءها سؤال بخلدي ترددت طويلا قبل أن أوجهه إليه :

ـ يُقال إنك ، حينما كنت في السابعة عشرة ، كنت ضمن طائفة الشُطّار والعَيّارين والصعاليك ، فهل هذا صحيح ؟

ـ صحيح ..

ـ الشطّار والصعاليك ليسوا على مستوى واحد .. ففيهم الكثير من الشعراء والمثقفين ..

ـ وكيف انتقلت ، هذه النقلة الكبيرة ، من طائفة الشُّطّار والصعاليك ، إلى مخالطة الخلفاء والوزراء ؟

ـ الفضل في هذا يعود إلى هارون الرشيد ..

ـ مَن ؟

ـ هو الذي اكتشفني كشاعر ..

ـ هذه مفاجأة لي ..

ـ أحد الملحنين أعجبته قصيدة لي فلحن بعضها .. وكان فيها بيت يقول :

« لا تعجبي يا سَلم من رجل .. ضحك المشيبُ برأسه فبكى »

ولما سمعها الرشيد سأل عن قائلها فقيل له هي لفتىً غير معروف وأخبروه عن اسمي .. فأعطى أحد رجال الحاشية عشرة آلاف درهم وبعض الثياب المناسبة وقال له : إذهب إلى ديار بني خُزاعة واسأل عن واحد اسمه « دعْبل » ، أعطها إياه وقل له يحضر عندي إن شاء الله ، فإذا رفض المجيء ، فدعه وشأنه .

ـ يبدو أن الرشيد هذا كان فناناً .

ـ صدقت .. كان إذا اكتشف فقيهاً ضليعاً ، أو شاعراً موهوباً ، أو موسيقياً نابغة ، يظل لأيام طويلة سعيداً لا حديث له إلاّ عن اكتشافه لهذه الموهبة .. وحينما جاءني رسوله كنت في أسفل درجات الفقر .. لا أملك غير ثوبين وأعيش في حجرة بائسة مع ثلاثة من الصعاليك .. لبست من الثياب التي أرسلها لي وذهبت إليه .. استقبلني بوجه طَلْق وأجلسني مع كبار رجال الدولة ، ولما سمع شعري طرب طرباً شديداً وقال لي : منذ هذه اللحظة أنت واحد منا .. ثم أجرى لي راتباً كبيراً ، وأصبحت مشهوراً ومحترماً وغنياً بين يوم وليلة ، وذاع شعري في الآفاق .

ـ ما شاء الله ..

ـ بعد فترة وجيزة ضقت بهذه الحياة فهجوت الرشيد وهربت من البلد !

ـ لا قوّة إلاّ بالله ..

ـ وجدت نفسي مطالباً بكتابة شعر أصف فيه مجالس الخليفة وعيون الظباء وأنواع الزهور ، كأنما الدنيا خلت من المشاكل ولم تبق غير هذه .

ـ على كل حال لا تحزن .. الإنسان يستطيع أن يكذب في كل شيء إلاّ في الفن .. فما لم يكن الفنّان منفعلاً وهو يُبدع ، فان المتلقي لن ينفعل معه قط ، ويكفي أنك كنت صادقاً مع نفسك ..

ـ هذا هو العزاء الوحيد ..

* * *

ـ سمعت بأنك توليت إحدى الولايات .. متى كان هذا ؟

ـ ليست ولاية بالضبط .. كل ما هنالك أنني زرت صديقي (المطلّب) والي مصر ، فولاّني مدينة (أسوان) في جنوب مصر ، لكنه عرّضني لإهانة قاسية ..

ـ أي إهانة ؟

ـ أرسل لي أحد رجاله بكتاب العَزْل .. وقال له دع « دعْبل » يصعد إلى المنبر ليخطب في الناس يوم الجمعة ، ثم أعطه كتاب العَزْل وامنعه من إلقاء الخطبة ، وأصعد أنت مكانه ..

ـ إلى هذا الحدّ ؟

ـ قلت للرجل : دعني أخطب وبعد ذلك أغادر المدينة في هدوء ، فرفض .. وكان منظري مؤلماً وأنا أنزل أمام الناس من فوق المنبر ..

ـ واضح أنك هجوت والي مصر (جزاء) له على إكرامه لك .. كالعادة ؟ !

ـ كلا .. لكن أحدهم وشى بي عنده بأنني هجوته .

ـ يعني أنت لم تهجه أصلاً ؟

ـ بل هجوته .. لكن ذلك كان منذ سنوات طويلة !

ـ ولماذا ذهبت إلى زيارته ما دمت قد هجوته من قبل ؟

ـ بصراحة أنا نسيت هذه القصيدة ! .. فلكثرة ما هجوت من كبار رجال الدولة ، لم أعد أذكر من الذي هجوته ومن الذي لم أهجه بعد ؟ !

ـ وهل التقيت به بعد ذلك ؟

ـ قال لي : كنت أحبّ الناس إلى قلبي يا دعْبل ، لكنك الآن أبغضهم إلى نفسي بعد أن وصفتني في القصيدة بأنني لا نفع مني ولا ضرر ، أنا في الحرب آخرٌ ، وفي الفرار أوّلُ !

ـ أعتقد أن « الحسن بن سهل » قال لك كلاماً مشابهاً لهذا ..

ـ الحسن بن سهل ؟ .. أغاظني منه ـ عندما كان وزيراً ـ تلك الأموال الطائلة التي أهدرها في عُرس ابنته .. فهجوته بقصيدة اقترحت فيها على الأمّة أن تبيعه هو شخصياً ، فاذا دفعوا لنا فيه درهماً واحداً ، فنحن الفائزون !

ـ شعر مؤلم يا دعْبل ..

ـ قَدَر !

ـ يقال إنك تطوف البلاد ـ في هروبك الدائم ـ لكن الشطّار والصعاليك يلتفّون حولك في الجبال ويرحبون بك فتقضي بينهم أياماً طويلة تؤاكلهم وتُشاربهم ، ثم يسيرون معك يحرسونك حتى تصل إلى البلد الذي تريده .. فهل هذا صحيح ؟

ـ نعم ..

ـ كيف ترضى لنفسك بمصادقة الشُّطّار والصعاليك بعد أن ارتقيت إلى درجة الحُكّام ؟

ـ أنا أعتبرهم أفضل ـ جوهراً ـ من كثيرين من الأدعياء ..

ـ وما دمت تتعاطف معهم هكذا ، فلماذا هجوت ابن العَثْعَث ؟

ـ أنا نادم على هجاء هذا الرجل المسكين ، فأنا لا أهجو الضعفاء أبداً .. وما حدث أنني هجوت تلميذي السابق « الفضل بن الأشعَث » ـ وكان حاكماً لاحدى الولايات ـ وبعد بضعة أيام إلتقى بي ابن العَثْعَث وقال لي : « أي شيء بيني وبينك ، عليك لعنة الله ، حتى تهجوني مع ابن الأشعَث وتصفني بخسَّة الآباء ؟! » .. فاعتذرت له بأن هذا جاء رغماً عني لاتفاق اسمه واسم ابن الأشعث في القافية !

ـ لي عليك عتاب أيها البعير العجوز .. كيف تصف آل الأشعَث بخسَّة الآباء وهم الذين كانوا بمنزلة الوزراء لأكثر من ثلاثة قرون ؟

ـ من أجل هذا أنا هجوتهم .. فقد كانوا من أشدّ المتحمسين للأمويين ويتولّون في عصرهم أرفع المناصب ، والآن هم من غُلاة الدعوة العباسية ويحكمون الولايات تحت جناحها ..

ـ وهل قبل الرجل المسكين « ابن العَثْعَث » اعتذارك ؟

ـ قلت له : لقد رفعتك ـ في نظر المجتمع ـ حيث شبّهت آباء ابن الأشْعَث بآبائك أنت !

* * *

ـ عندي سؤال أرجو ألاّ يغضبك ..

ـ قُله ولا تبالي ..

شاعر.. تطارده الأقدار!

— يقال إنك — وأنت تمشي مع كبار رجال الدولة — تتشطّر في مشيتك، بمعنى أن طريقتك في السير، تُشبه طريقة الشُطّار في تبخترهم وخُيلائهم .. هل هذا صحيح؟

— نعم ..

— هل أفهم من هذا أن حياتك الأولى مع الشُطّار والصعاليك، أثّرت عليك بحيث طبعتك بمزاج خاص من الصعب التخلّص منه؟

— على الرغم من أن الصعاليك يتميّزون بالفظاظة بسبب الجهل وخشونة العيش، إلاّ إنني أعتقد أن مزاجهم هو المزاج الصادق .. فالرجل منهم لا يتردّد أن يقول للمخطئ أنت أخطأت .. في حين أن الكثيرين من وجوه الناس — وقد خالطتهم بنفسي — يقولون عكس ما يدور في نفوسهم، فكانوا يُسبّبون لي التعاسة، فلا أملك نفسي من هجائهم!

— يقال إنك لا تفتأ تُردّد: «أحمل خشبتي على كتفي في انتظار من يصلبني عليها» .. فهل معنى هذا أنك تتوقّع «الصَّلب» في أي لحظة؟

— كلما فتحت عيني في الصباح، وسمعت أنفاسي تتردّد، أخذني العجب!

— وكيف نجحت في التخفّي حتى الآن؟

— كنت ألجأ إلى الوالي الذي أعرف أنه صديق لأحد أقاربي من بني خُزاعة .. فكان يغض الطرف عن وجودي في ولايته .. لكن المشكلة كانت تتجدّد عندما أهجو الوالي فيطاردني لينتقم لنفسه!

* * *

— لماذا أنت هنا في القيروان؟

— لجأت إلى حاكمها «ابن الأغلب» لأنه غير خاضع للخلافة العباسية، ولا تستطيع يد «الواثق» أن تصلني عنده ..

— هل هو متمرد عليهم؟

— كلا .. هو صديقهم ويدعو لهم على منابره .. لكن آباءه استقلّوا بهذه الولاية منذ عهد الرشيد .. وقد فتحوا في الفترة الأخيرة جزيرة صقلّية واستولوا على جنوب الأرض الطويلة المسماة بإيطاليا ..

— ولماذا تقيم في هذا البيت شديد التواضع ما دمت ضيفاً على ابن الأغلب؟

— ابن الأغلب أنزلني في بيت كبير وأجرى لي راتباً معقولاً، ولما انتصر أسطوله على أسطول الروم في معركة خليج البنادقة (الأدرياتيك) هنأته بقصيدة على هذا النصر الكبير، لكنني هجوته في آخرها واختفيت في هذا الزقاق المجهول!

— ألم يكن من الأفضل أن تكتفي بالتهنئة، سيما وأن الأرض ضاقت بك ولم يبق لك من ملجأ غيره؟

— في البداية اكتفيت بأبيات التهنئة .. لكنني أحسست بأن القصيدة ينقصها شيء ما فأكملتها بالهجاء، ونفس هذا الموقف حدث لي من قبل مع الخليفة «الواثق» أيام مشكلة النّصارى العرب؟

— ما لهم النّصارى العرب؟

— أغار البيزنطيون على حدودنا وأسروا خمسمائة من النصارى العرب .. ودارت مفاوضات بينهم وبين الواثق، أرسل لهم على إثرها خمسمائة أسير بيزنطي — كانوا عنده — وأعاد النصارى العرب .. وقد أعجبني هذا الموقف منه، فهنّأته بقصيدة، لكنني أحسست بأن القصيدة ليست مكتملة من الناحية الفنية، ولما هجوته في آخرها، أكتملت!

— وا أسفاه ..

— يغيظني في «الواثق» أنه يتشبّه بالمأمون في كل كبيرة وصغيرة في حين هو لا يملك إمكانياته العقلية ..

— وما شأنك أنت إذا كان يتشبه بالمأمون أو لا يتشبه؟ .. هل تريد أن تغيّر من نظام الكون؟

— ألم تعلم بأنه أعاد لنا تلك المحنة بعد أن كانت قد انتهت في أواخر أيام المعتصم؟ .. مضى يبثّ رجاله يسألون الناس في المدن والقرى، مع أن المأمون لو عاد إلى الحياة ورأى ما يفعله، لما تردد في محاكمته بتهمة إزعاج الناس.

* * *

— وهل ظللت حياتك كلها هكذا شريداً طريداً في البلاد؟

— نعم .. باستثناء عصر المأمون ..

— لماذا؟

— كان المأمون رجلاً كبير العقل، واسع الثقافة، أقرب إلى المفكرين، وحينما تولى الخلافة، قضيت وقتاً طويلاً في صياغة قصيدة جديدة لتكون رفيعة المستوى بحيث تليق برجل مثله شهد له الناس بأنه من كبار نقاد الشعر، ثم هربت من البلاد!

— إنا لله راجعون ..

— لكنه ظل يضحك طوال قراءته للقصيدة، في حين كان رجال الدولة من حوله يحرضونه على قتلي ..

— ما السبب؟

— لأنني هجوتهم جميعاً بما فيهم عمّه إبراهيم بن المهدي، وبما فيهم الوزير «أبو عبّاد»، وقد وصفت الأخير بأنه من «مفاخر الأمّة» لأنه تخصّص في إفشال أي مشروع يتولاه!

— وهل كان كما وصفته فعلاً؟

— المأمون قال لرجال الدولة وهو يضحك: هذا أصدق وصف سمعته فيكم!

— هل معنى هذا أنه يوافق — أيضاً — على وصفك له شخصياً؟!

— كان كلما تذكّر هجائي له ضحك وقال: «قاتل الله دعبل، ما أوقحه»! ولم يكن يزيد عن هذا .. وحينما عرف بأنني غادرت العاصمة، قال: أبلغوه بأن يعود وأن يحضر عندي إن شاء الله وله كل ما يريد، فقد عفوت عنه، لأنه شاعر..

— ماذا يعني بقوله، إنه شاعر؟

— كان يعتقد أن من حق الشاعر أن يقول رأيه دون أن يحاسبه أحد .. ألم أقل لك إنه — يرحمه الله — كان أقرب إلى المفكرين؟

عبد الوهاب الأسواني

من بين الأسداف

شعر: شهاب غانم



انتهينا ..!
كل ماقد ضاع ضاعْ
والذي مازال في الأيدي على درب الضياعْ
فرضينا أم أبينا
لم نزل في قرننا العشرين ..
بل في عقده التاسع
.. نشرى ونباعْ!

* * *

كلما نحسب أنَّا قد مشينا خطوة نحو الأمامْ
نحن في الواقع نعدو خطوات .. للوراءْ!
كلما نحسب أن الفجر جاءْ
حولنا تزداد أسداف الظلامْ!

* * *

أنُلامْ؟
بعضنا يجزم أنَّا لا نلامْ
انه ذنب الأعادي والغزاةْ
فيرد البعض يغني في الجناةْ
انه ذنب الموالين الطغاةْ
فيجيب البعض في علم وفي شبه ابتسامْ
بل كذا شاء القضاءْ
فيرد البعض بل نحن الملامْ
فيقاطعه البعض : هراءْ!
واذا من حولنا تزداد أسداف الكلامْ!
انتهينا ؟
.. ربما
انما مادام في الهيكل روحْ
سوف نغدو ونروحْ ..
ربما يحدث شيءٌ .. ربما ..
ربما ينقلب الماء دما
ربما تنطق أفواه الجروحْ!
لست ادري مالذى تخفيه عن عينى السما
انما أحمل في الصدر شعوراً مبهما ..
.. ولئن أرنو الى الأفق ولاشيء يلوحْ ..

كارديف ـ بريطانيا

من روائـــع
الفن العـــالـــمي

بقـلم : جمـــال قطــب

الفتــاة والقيثــارة

القرن السابع عشر.. هو العصر الذي تألقت فيه دول الشمال الأوربي (أو الأراضي المنخفضة) بإبداعاتها وأقطابها من الفنانين العظام من الفلمنكيين والهولنديين. حيث كان (روبنز) أعظمهم في مقاطعته (وهي بلجيكا حاليا) ، كما كان (رمبرانت) أحسن الهولنديين قاطبة ، أما فناننا جان فيرمير (١٦٣٢ ــ ١٦٧٥) فكانت عبقريته الفذة مبكرة منذ طفولته الأولى.. ومات في ريعان شبابه في الثالثة والأربعين بعد أن عاش حياة بائسة ، ولاقى جحوداً مريراً من مواطنيه ومعاصريه ، فحرم من المجد والشهرة التي حظي بها من سبقوه من العمالقة المبدعين.

ومن المؤسف أن أعماله لم تلق تقديراً أو اعجاباً طوال حياته ، وقد حدث أن زار هولندا أحد النبلاء الفرنسيين المعروفين آنذاك في أوروبا بولعه في اقتناء اللوحات وتشجيع الرسامين ، وكان يدعى (بلتازار دي مونكنيز) ، وقصد بلدة فيرمير (دلفت) ، ووقف الرجل أمام لوحة (الطاهية) ، ــ وكان الفنان قد أعطاها للخباز وفاء لديونه ــ وتأملها ملياً ثم أظهر للخباز عدم استحسانه لهذه اللوحة التي لاتساوي شيئاً ! ! وعندما أخبره الخباز بأنه حصل عليها من فيرمير لقاء ستمائة فلورن (والفلورن عملة من العملات الأسبانية الصغيرة) رد عليه النبيل بقوله : إن اللوحة في نظري لا تساوي ستة !

ولعل السبب في ذلك الجحود هو أن فيرمير سبق عصره ، وخالف معاصريه من حيث ولعهم بالحيوية والحركة والمناظر الطبيعية وتصوير النشاطات الاجتماعية والتعبيرات النفسية. ولكن فناننا عني بالقيم الفنية والتوازن الهندسي وتناغم الاضاءة والقتامة على سطح لوحاته ، بشكل جعل من الصورة مجالاً للبحث والتفكير أكثر من نظرات الاعجاب والانفعالات الفورية ! ولذلك لم يفهمه معاصروه ، ولم يلق التقدير الذي يستحقه ، ولكنه كان مقتنعاً تماماً بفنه وفلسفته ونهجه الابداعي الرزين.

وتحالفت عليه أسباب سوء الحظ والتعاسة ، ولاسيما عندما ترك بيته عام ١٦٧٢ ليبحث عن سكن متواضع يأويه هو وزوجته (كاترين) وثمانية أطفال لا يجدون قوت يومهم.. ومات فيرمير عام ١٦٧٥ وخلف لعائلته الفقر والديون ، ولم تجد زوجته أمامها سوى ما تركه من لوحات قليلة ، كان نصيب الخباز منها اثنتان ، وحصلت عدة متاجر أخرى على نحو عشرين لوحة هي كل ما تبقى من تركته المثقلة بالديون !

ومن الغريب أن الأضواء لم تسلط على اسم فيرمير إلا بعد مايقرب من مائة عام.. عندما زار هولندا في أواسط القرن الثامن عشر فنان بريطانيا الكبير جوشوا رينولدز رئيس الأكاديمية الملكية للفنون الجميلة بلندن ، ورأى نفس اللوحة التي هاجمها (مونكنيز) وهي لوحة (الطاهية) فقال عنها : إنها من أروع ما رأى في حياته ، وهي عمل فني عبقري خالد ! وكان رأى رينولدز حينذاك هو الوسام الذي يعلقه على صدر أي فنان موهوب ولايحظى به إلا الأفذاذ العالميون !

ولوحات فيرمير قليلة ، بل نادرة ، تتهافت عليها المتاحف حاليا ، وقد يصل ثمن الواحدة منها ــ إن وجدت ــ إلى عشرات الملايين من العملات المعاصرة !

وهناك قصة أثارت هزة عنيفة في الأوساط الفنية العالمية منذ نحو أربعين عاما : فقد أفلح فنان هولندي يدعى « فان ميجرن » في تقليد لوحات فيرمير بعد عدة دراسات وتحليلات وتجارب طويلة.. وقام بتزويرها في الفترة مابين عامي ١٩٣٥ ــ ١٩٤٥ ، وخدع الجميع بهذه اللوحات المقلدة ، حتى أنه باع أصغرها لمتحف روتردام وقتها بمبلغ ستين ألف جنيه ! وكان مجموع ماقلده من أعمال فيرمير ست لوحات تقاضى ثمنا لها نصف مليون جنيه.

وممن اشتروا هذه (الدّرر الثمينة) ، أحد قادة النازية وهو الماريشال (جورنج) فكانت اللوحة السادسة والأخيرة من نصيبه وأذاع القائد الألماني في زهو وتفاخر قصة امتلاكه لاحدى لوحات (فيرمير) العالمية ! ! ولم يخطر على بال أحد ولا حتى النقاد الفنيين المتخصصين ، أن هذه الأعمال مزوّرة. وبعد انكسار الألمان وانتهاء الحرب العالمية الثانية ، وجدت اللوحة ضمن مقتنيات جورنج ، فقبض على الفنان (فان ميجرن) ، لا بتهمة التزوير ، ولكن بتهمة التضامن مع العدو وبيع لوحات فيرمير لأحد القادة الألمان ! واسقط في يد الفنان.. ففضل أن يعترف بالتزوير وبأنه استغل هذا القائد الألماني واستغفله وباع له لوحة حديثة من اعماله على أنها إحدى الروائع الأثرية لفيرمير ! ولكي يثبت صحة أقواله ، قام بتقليد صورة أخرى أمام لجنة خاصة عينتها له المحكمة !

وحكم على (ميجرن) بالسجن لمدة عام واحد ، وأن يتعهد بعدم التزوير مدى حياته !

وعلى الصفحة المقابلة نرى إحدى اللوحات الهامة للفنان الذى استغل المزورون إسمه ليثروا على حسابه في القرن العشرين.. واللوحة بعنوان : الفتاة والقيثارة.







مئات الصواريخ تخترق طبقة الأوزون كل يوم

الطائرات الحديثة تسهم في تعقيد المشكلة



أصبح واضحا أن الطقس الذى يسود فى بلاد كثيرة، لم يعد متكررا بنفس الايقاع الذى تكرر به طوال السنوات الماضية كما شهده آباؤنا وأجدادنا. فقد طرأت عليه تحولات وتغيرات لاعهد للبشرية بها سواء فى التوقيت أو الشدة أو المظاهر، فجو الصيف يحل بنا لبضعة أيام خلال الشتاء. وجو الشتاء يأتى مبكرا أو متأخرا فى كثير من البلاد. كما أن الجفاف مازال يجتاح كثيرا من دول افريقيا وراح ضحيته آلاف من البشر، وترحل بسببه الملايين من بلد الى آخر بحثاً عن قطرة ماء، أو مايسد الرمق من الغذاء. كما أن من الأدلة الواضحة، ذلك الشتاء الشديد القسوة الذى شهدته أوروبا والولايات المتحدة فى العام الأخير، والذى تكدس بسببه الثلج كثبانا لم تعهدها المدن ولا القرى منذ مئات السنوات. ومن الأدلة ايضا تلك الفيضانات الغزيرة التى حدثت فى كثير من دول آسيا، ورياح الخماسين المبكرة المحملة بالأتربة والتى هبت على مصر فى أواخر الشتاء، ولم يكن العهد بها الا خلال الربيع.

كل ذلك يرسم صورة أن المناخ فى الغلاف الجوى للأرض قد أصابه خلل وأنه أصبح له دورة تخالف ماكان يدور عليه فى الماضى. فالناموس الطبيعى الذى عهدته البشرية على مدى سنوات طوال، هو تكرر الظواهر الطبيعية مع تكرر فصول السنة فى ايقاع يكاد يكون متكررا، الى درجة خلقت نوعا من الخبرة الشعبية المبنية على رتابة وتكرار ايقاع حدوث هذه الظواهر، الامر الذى يعرفه العامة فى كثير من الشعوب بأنه «النوات»، أو هو الخبرة الشعبية المتوارثة بمعرفة مواعيد الظواهر الجوية المتكررة عاما بعد عام فى تواريخ محددة بتقريب شديد.

ولعل هذا التبدل فى الطقس قد زحف على حياتنا فى بطء ولم يكن محسوسا منذ



تمزق طبقة الأوزون يبدو واضحا في أطياف ستة ألوان

■ تزايد غاز ثاني أكسيد الكربون هو السبب الرئيسي في تبدُّل الطقس

■ السيارات والطائرات والصواريخ تلوث خبيث يمزِّق الغلاف الذي يحمي الأرض من الإشعاعات الضارَّة

سنوات . حتى أصبح ظاهرا ومخالفا لما تعارف عليه علماء التنبؤات الجوية فى مراجعهم ، وما يتناقله الناس فى تاريخهم .

وقد يتصور البعض أن مثل هذا يعد أمرا طفيفا لأن تبدل الطقس يقع حثيثا وقد يتجاوز جيلنا . ولكن الحقيقة العلمية هى أننا لابد أن نبحث ونعرف الأسباب والمسببات حتى نسلم أعلامنا للاجيال القادمة . وقد خلفنا لهم كارثة يحارون فى حلها . خاصة وانه بعد ان كانت أحلام علماء القرن الماضى تدور حول محاولة السيطرة على الطقس فى الغلاف الجوى المحيط بالأرض . والسعى بالبحوث العلمية الى إجهاض السحب وتوجيه الأمطار الى الصحراوات القاحلة ، أصبحت أحلام علماء جيلنا فى عصر الفضاء تدور حول تقليل الاضرار التى تحدثها الأبحاث العلمية والانجازات التكنولوجية الحديثة فى الغلاف الجوى ، والتى تؤدى الى حدوث هذه التغيرات الملموسة فى الطقس ، والإقلال ، من آثار التلوث الذى يصيب كل يوم طبقات هذا الغلاف بفعل الانسان المتحضر . فى عصر الفضاء الذى يهتز فيه بعض العلماء فرحا بالانجازات التى تحققها الطائرات النفاثة والصواريخ وسفن الفضاء فهناك علماء الطبيعة الجوية يرثون لحال البشرية وما ستؤول اليه حال الغلاف الجوى بعد سنوات من التلوث والتمزق .

اللعنة مع ثانى أوكسيد الكربون

يتكون الغلاف الجوى للأرض من مجموعة غازات تتميز بالشفافية وقابلية الانضغاط ومرونة الحركة ، وأكثر هذه الغازات حجما هو غاز النتروجين الخامل الذى يمثل ٧٨٪ من حجم الهواء ، يليه غاز الأوكسجين الذى تبلغ نسبة حجمه ٢١٪ والذى عليه تتوقف الحياة فى صورها المختلفة ، بينما يلعب أهم الادوار فى تغير الطقس داخل الغلاف الجوى ما يتصاعد فيه من بخار الماء الذى تبلغ نسبته مايقرب من ٤٪ وهو فى حقيقة الأمر المسبب الرئيسي لحدوث الظواهر الجوية . كما يوجد أيضا غاز ثانى أوكسيد الكربون بنسبة ضئيلة تقارب ٠٫٠٣٪ . ورغما من ضآلة هذه النسبة فإن هذا الغاز يمثل المتغير الرئيسي الذى عليه يتغير الطقس داخل الغلاف الجوى . فلقد ثبت أن زيادة نسبة ثانى اوكسيد الكربون فى الغلاف الجوى نتيجة لعوامل صناعية من صنع الانسان او نتيجة لعوامل طبيعية ، هى السبب الرئيسي فى ازدياد درجة حرارة الغلاف الجوى بدرجة ملموسة .

ولقد اعتبر العلماء أسباب زيادة هذا الغاز الخامل ــ ثانى أوكسيد الكربون ــ فى الغلاف الجوى نوعا من أنواع التلوث أو « التلويث المتعمد » لان ذلك يتم بفعل الانسان فيخل



بالقدر المتوازن والذى يتبادل فيه النبات مع الانسان كلا من غازى الاوكسجين وثانى أوكسيد الكربون مع تعاقب الليل والنهار. فالمعروف أن الانسان يستنشق أوكسجين الهواء والذى يتجدد وجوده فى الجو نتيجة لطرد النبات له أثناء النهار، بينما يمتص النبات ما يحتاجه من غاز ثانى أوكسيد الكربون من الهواء ليبنى خلاياه. أما اثناء الليل فينعكس هذا التبادل إذ يطرد النبات ثانى أوكسيد الكربون ويبدأ فى امتصاص الأوكسيجين.

لذلك فإن ازدياد نسبة ثانى أوكسيد الكربون فى الغلاف الجوى نتيجة لما تنفثه السيارات والمداخن والمصانع هو المصدر الرئيسى للتلوث ويمكن اعتباره عنصرا دخيلا، أو بمثابة المرض لأنه يخل بالتوازن الذى خلقه الله فى تركيب الهواء.

ولقد طرأت فى السنوات الاخيرة، مصادر أخرى لثانى أوكسيد الكربون، من أهمها انتشار الزراعات المحمية المعروفة باسم «الصوبة» والتى تستخدم حيزا محدودا من الأرض لزراعة أنواع من النباتات تنتشر رأسيا وليس أفقيا اعتمادا على وجودها تحت مظلات من البلاستيك تحبس حرارة الشمس. وفى مثل هذه الصوبات يتركز غاز ثانى أوكسيد الكربون، وبدلا من انسيابه ليتصاعد الى أعلى فى الغلاف الجوى فانه يظل حبيسا فى الصوبات أو قريبا من سطح الأرض فيعمل على زيادة درجة حرارة طبقات الهواء اللصيقة.

ونظرا للتوسع فى بلدان كثيرة فى الزراعة باستخدام نظم الزراعات المحمية، فان العلماء يتوقعون أن ترتفع درجة حرارة الغلاف الجوى بمقدار أربع أو خمس درجات قبل نهاية هذا القرن. ولاشك أن هذه الزيادة المضطردة فى درجة الحرارة لها آثارها التى بدأت منذ عدة سنوات. وأهم هذه الاثار هو ذوبان أحجام كبيرة من ثلوج المناطق القطبية المتجمدة، وبالتالى ارتفاع مستوى المياه فى المحيطات، واختلال التوازن المتبادل بين السطوح المائية والشواطىء فى كثير من البلاد الساحلية، وازدياد الفيضانات. وبالتالى فان كان بخار الماء يلعب أهم الأدوار فى تغير الطقس فى الغلاف الجوى، فلا شك أن لهذه العوامل الجديدة آثارها على تغير الطقس. فالمعروف أن بخار الماء يتصاعد فى الهواء نتيجة لسقوط أشعة الشمس على المسطحات المائية، ونظرا لخفة وزنه يصعد الى الطبقات العليا من الهواء، فيتعرض لانخفاض فى درجة حرارته فى هذه الطبقات فيتكثف على هيئة سحب، وتذرو الرياح هذه السحب وتحركها من مكان الى آخر، أو تصعد بها التيارات الهوائية الى مزيد من العلو والارتفاع. حتى اذا تثاقلت ذرات الماء فيها وتغلب وزنها على قوة رفع الهواء فانها تسقط الى الأرض مشدودة بقوى الجاذبية على هيئة قطرات من المطر أو حبيبات من الثلج، فتتم بذلك دورة بخار الماء فى الجو، وتغلق دائرته بين طبقات الغلاف الجوى لاعبا بذلك الدور الأساسى الذى خصته القدرة الالٰهية به، ليكون العامل الأساسى فى استمرار الحياة الانسانية والنباتية والحيوانية على سطح الأرض، مصداقا لقوله تعالى «وجعلنا من الماء كل شىء حى».

ثقوب فى طبقة الأوزون

يحيط الغلاف الجوى بكرتنا الأرضية الى ارتفاعات محدودة فهو لا يمتد الى مالا نهاية، لانه يرتبط برباط الجاذبية مشدودا الى الأرض، كمادة لها وزن. ويعلو الغلاف الجوى للأرض الفضاء الذى ينعدم فيه وجود الهواء. ولكن لاتوجد حدود واضحة تفصل الغلاف الجوى، فانتشار الهواء فى الفضاء يقل تدريجيا كلما ازداد الارتفاع بعيدا عن سطح الأرض.

■ الغازات المتطايرة من المبيدات المهلكة للحشرات، ومُثبّتات شعر النساء، ومُعطّرات الغرف لها آثار ضارّة على الطقس

■ الأسباب الحقيقية لحدوث الفيضانات والعواصف المدمّرة والظواهر الجوّية الشاذّة تأتي من الفضاء الخارجي

وكل مايملك العلماء معرفته هو تقسيم الطبقات الدنيا من الغلاف الجوى لأن لكل منها خواصها ومميزاتها.

ولقد درج العلماء على تقسيم هذه الطبقات بداءا من سطح الارض الى:

- الطبقة اللصيقة ويطلق عليها اسم «التروبوسفير»
- الطبقة المحيطة ويطلق عليها اسم «الاستراتوسفير»
- الطبقة الوسطى ويطلق عليها اسم «الميزوسفير»
- الطبقة الحرارية ويطلق عليها اسم «الثرموسفير»
- الطبقة المتأينة ويطلق عليها اسم «الايونوسفير»

وكل الظواهر الجوية كالضباب والسحاب والمطر والعواصف والرياح وانتشار الغبار تتم فى الطبقة اللصيقة بالكرة الأرضية والتى لا يزيد ارتفاعها عن (١٨) كيلومترا عن خط الاستواء. والتى تنخفض الى (٩) كيلومترات عند القطبين. وبالتالى فان كل ظواهر الطقس تعتبر حبيسة داخل هذه الطبقة وفوقها لاتوجد أية سحب أو ظواهر جوية مميزة. ولذلك تصور علماء الطبيعة الجوية أن لها غلافا يفصل بينها وبين الطبقة التالية اطلقوا عليه اسم «غلاف السكون» او «التروبوز». غير أن القدرة الالٰهية، وقد حبست الظواهر الجوية داخل الطبقة اللصيقة. جعلت بعض مسببات حدوث هذه الظواهر تحدث وتأتى من الطبقات الأخرى التى تعلوها.

فعلى سبيل المثال فإن الطبقة التالية المسماة «الطبقة المحيطة» والتى تمتد من التروبوز حتى ارتفاع ٥٥ كيلومتراً تتميز بالسكون والاستقرار لخلوها من السحب والرياح والتيارات الهوائية الصاعدة والهابطة، ولذلك أصبحت مثالية للطائرات النفاثة التى تستطيع الطيران فى الطبقات الدنيا منها. فهى فضلا عن طيرانها فى جو أكثر أمنا. فانها توفر قدرا كبيرا من الوقود بالطيران فيها لأنها لاتقابل مقاومة من الهواء حيث تخف كثافته بدرجة كبيرة.

ولقد زاد الطين بلة، بظهور الطائرات الأسرع من الصوت، التى لم يقتصر أمرها على القطاع العسكرى وحده بل امتد أيضا الى القطاع المدنى. فظهرت فى السماء طائرات «الكونكورد» البريطانية ــ الفرنسية التى تطير بأكثر من ضعف سرعة الصوت»، كما ظهرت أيضا الطائرة السوفيتية «تى ــ يو ١٤٤» التى تكاد تماثلها فى السرعة، فضلا عن عدد كبير



كل ما يأكله الناس يتعرض لقدر من الاشعاعات الكونية

الزراعة المحمية فى الصوبة تزيد ثانى أكسيد الكربون على الأرض



من الطائرات العسكرية التى تتجاوز سرعة الصوت وأضعاف سرعة الصوت بكثير، وعلى رأسها طائرة الاستطلاع الاستراتيجى الامريكية «س. ر ـ ٧١» التى بلغت سرعتها أكثر من ثلاثة أضعاف سرعة الصوت.

غير أن هذه المزايا التى توفرت للطائرات قد خلقت للبشرية مشكلة غاية فى التعقيد والخطورة، اذ توجد ضمن الطبقات الجزئية للطبقة «المحيطة» طبقة ذات مزايا خاصة تعرف باسم «طبقة الاوزون» وتتراوح ارتفاعاتها بين ٢٨ ، ٣٠ كيلومترا.

و «الاوزون» صورة فريدة لغاز الأوكسجين يتكون فيه الجزيء من ثلاث ذرات أوكسجين ويرمز له كيماويا بالرمز (أ٣). بينما الصورة المعتادة لجزيء الاوكسجين هو أن يتكون من ذرتين ويرمز له بالرمز (أ٢).

وعند طبقة الاوزون تبدأ درجة حرارة الغلاف الجوى فى الارتفاع تدريجيا بعد أن كانت الخاصية الطبيعية للطبقات الأدنى منها أن الحرارة تنخفض بزيادة الارتفاع. ولقد جعل الله طبقة الأوزون بمثابة نظارة شمس تحيط بالكرة الأرضية لتقيها من «الاشعاعات الكونية» التى تأتيها من الأجرام الكونية المحيطة بها. فلا تسمح طبقة الاوزون الا لقدر محدود من هذه الأشعة بالنفاذ الى أسطح الكرة الارضية لان لهاتأثيراتها الضارة على جسم الانسان.

غير أن تكرر صعود وهبوط الطائرات النفاثة وطيرانها عبر طبقة الاوزون يعرضها كل ساعة للتمزق وعدم الالتئام. فاذا أضفنا الى ذلك ماتحدثه الصواريخ التى تحمل الأقمار الصناعية وسفن الفضاء، والتى تطلق للأغراض العسكرية كل يوم، فإننا نجد أن طبقة الأوزون قد أصبحت معرضة لمزيد من التمزق. وبالتالى فهى غير قادرة على حجب ما يسقط عليها من أشعة الشمس والاشعة الكونية الأخرى التى تصل الينا على الارض من ملايين النجوم والكواكب المحيطة بنا. فكأن كل ما على الأرض سواء أجسامنا أو مزروعاتنا ومحصولاتنا تتعرض لقدر أكبر من الأشعة الكونية عما جعله الله متزنا وبمقدار قدره بحكمته. ولاشك أن الزيادة فى هذا القدر من الأشعة له أضراره.

وهناك عامل آخر قلما نتنبه اليه، أو نظن أن له أثرا كبيراً هو أنواع معينة من الغازات المتطايرة التى تعتبر لغة متطايرة الى أعالي الغلاف الجوى. فقد تفننت كثير من مصانع الكيماويات فى شتى دول العالم فى انتاج أنواع من المبيدات الحشرية المعبأة داخل علب وتحت ضغط لكى تستخدم فى المنازل والمطابخ لتبيد الحشرات والهوام. وتفننوا فى إضافة العطور اليها، لتحبيبها للناس عند شمها. وتضافر فى الدعاية والاعلان على إسباغ القوى الخارقة على هذه المبيدات، سهلة التداول للفت أنظار ربات البيوت واجتذابهن لشرائها للفتك بالحشرات.

لكن هذه المبيدات المضغوطة، ومعها أيضا قدر هائل من معلبات تعطير هواء الغرف، ومثبتات شعر السيدات والغازات المستخدمة فى التبريد كالفريون كلها لهاآثار ضارة لا على المستخدمين فحسب ولكن أيضا على الغلاف الجوى. فهذه المبيدات والمعطرات محملة على غازات لها قدرة عالية على التطاير، وتستطيع أن تصعد الى أعالي الغلاف الجوى حتى طبقة الأوزون. ولذلك يمكن أن نضيفها الى الطائرات والصواريخ من حيث آثارها فى خرقه واحداث ثقوب وفجوات به. فيصبح مثل طبقة الاوزون بالنسبة للأرض كشخص يضع على عينيه نظارة لتقيه من أشعة الشمس، ولكن يحدث فيها عدد كبير من الثقوب. ولذلك فبدلا من أن تقى عينيه وتمنع الأشعة من النفاذ، فانها تسمح بنفاذ قدر كبير منها، فلا تحقق الغرض منها.

من كل ذلك يمكن أن نستخلص أن الانسان قد لوث أعالي الغلاف الجوى، بما صنعه من طائرات وصواريخ، ولذلك فإن مقدار الأشعة الذى يصل الى الأرض أصبح أكبر مما يجب، الأمر الذى يؤدى الى اضطراب ظواهر الطقس وطبيعة الجو والذى نلمسه اليوم فى كل فصل من فصول السنة.

ولذلك أطلقت الولايات المتحدة مؤخرا سفينة فضاء تحت اسم «نيمبوس ـ ٧» لتصوير طبقة غاز الاوزون حول القارات الخمس فى ضوء ألوان الطيف (البنفسجى ـ الأخضر ـ والأزرق الفاتح النيلى) ـ ثم الأزرق الغامق ـ والاصفر ـ الأحمر. وقد وضعت فى السفينة أجهزة تحليل للطيف على ست موجات ذات أطوال مختلفة لتصور طبقة الاوزون كل يوم وطوال ساعات اليوم.

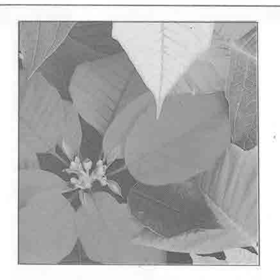
وما يعلو طبقة الأوزون والطبقة المحيطة من طبقات الجو الأخرى، تنعدم فيها الظواهر الجوية، ولا يعنينا من أمرها فى موضوعنا شيء.

النتائـــج

لذلك فإن محصلة ذلك كله، تتمثل فى اختلال الايقاع المنتظم الذى اعتاد عليه الناس طوال الأجيال السابقة من حيث تكرر الظواهر الجوية وعوامل الطقس مع تغير الفصول. ولذلك فلا عجب فى أن تدهمنا من آن لآخر ظواهر جوية لم يكن لآبائنا ولا أجدادنا عهد بها. ولعلنا لانكون مغالين عند القول بأن القدر الكبير من الأشعة الكونية وأشعة الشمس الذى يتسرب الينا من خلال الثقوب التى تحدث كل يوم فى طبقة الاوزون لايقتصر أثره على تغيير الطقس فحسب بل يمتد ايضا الى اتلاف صحة عدد كبير من البشر. ولذلك يشهد عصرنا أنواعا من الأمراض، لم تكن معروفة فى الأجيال السابقة، ولم تدون أعراضها فى كتب الطب القديمة.

وليس أدل على ذلك من الزيادة الكبيرة فى الاصابة بأمراض سرطان الدم والأورام السرطانية، لأن الانسان لم يقتصر اجتهاده غير الموفق على العبث بالطبيعة على الأرض، بل امتد عبثه الى أعالي طبقات الغلاف الجوى والى أعالي الفضاء.

سعد شعبان





حديث عن الألوان في عالم الأحياء

بقلم: الدكتور محمد رشاد الطوبي

نشاهد فى حياتنا اليومية كثيرا من الألوان المختلفة . لعل أكثرها انتشارا وأعظمها شأنا هو اللون الأخضر الذى يبعث فى نفس الانسان كثيرا من البهجة والسرور . وخصوصا إذا كان هذا اللون يكسو الأرض فى مساحات شاسعة ، كما هي الحال فى الحدائق والبساتين والحقول المترامية الاطراف ، أو فى الوديان التى تمتد عبر الصحراء ، حيث تكسوها الأعشاب والنباتات الخضراء بعد هطول الأمطار عليها ، وهو ما تشير إليه الآية الكريمة التالية :

(ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فتصبح الأرض مخضرة)

صدق الله العظيم

يرجع هذا اللون الأخضر الذى ينتشر فى النباتات على اختلاف أنواعها وأشكالها وأحجامها (وخصوصا فى أوراقها الخضراء) إلى مادة كيميائية معقدة التركيب يطلق عليها علماء النبات اسم اليخضور أو الكلوروفيل(Chlorophyll) . ولكن وجد بعد تقدم البحوث النباتية وعمل التحليلات الدقيقة انها تتركب في واقع الأمر من أربع مواد مختلطة بعضها ببعض ، وتلك هى « كلوروفيل أ » و« كلوروفيل ب » ولونهما أخضر . بالاضافة إلى مادتين أخريين وهما « الكاروتين » و« الزانثوفيل » . وهما صبغان نباتيان لونهما أصفر.

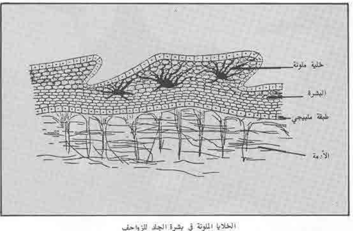
إن هذا الكلوروفيل المعقد الذى يغلب عليه اللون الأخضر هو إحدى المعجزات الحقيقية التى أوجدها الله سبحانه وتعالى فى دنيا النبات ، إذ أنه يلعب فى تكوين الأغذية النباتية دورا يفوق كل خيال . فالنبات على سبيل المثال يمتص من التربة التي يترعرع فيها كمية من الماء . كما يمتص ثانى أكسيد الكربون من الهواء الجوي الذي يحيط بنا في كل مكان . ومن هاتين المادتين البسيطتين (الماء وثانى أكسيد الكربون) يستطيع الكلوروفيل انتاج المواد الكربوهيدراتية البسيطة أو المعقدة مثل الأنواع المختلفة من السكر ومنها سكر الجلوكوز وسكر الفواكه وسكر العنب وسكر القصب وسكر البنجر ، وأيضا الأنواع المختلفة من النشا مثل النشا الموجود فى حبوب القمح أو الذرة أو الارز أو الشوفان ، أو فى بعض الأجزاء النباتية الأخرى مثل درنات البطاطا والبطاطس وغيرها . ولا يتم انتاج مثل تلك المواد الغذائية الهامة إلا فى وجود الأشعة الضوئية . ويطلق على تلك العملية اسم عملية التمثيل الضوئى (Photosynthesis) . ويمكن تلخيص تلك العملية فى المعادلة البسيطة التالية :

الكلوروفيل
ثانى اكسيد الكربون + ماء ←
الأشعة الضوئية

مواد كربوهيدراتية + أكسجين

ويعيش الانسان وكذلك جميع الحيوانات التى تدب على سطح الأرض على تلك المنتجات النباتية التي لا يستطيع أى منهما انتاجها من المواد الخام على الاطلاق . كما تفعل النباتات الخضراء . وبذلك يكون الكلوروفيل هو المادة





الخلايا الملونة في بشرة الجلد للزواحف
(قطاع عمودي على السطح) .

المنتجة لجميع الأغذية النباتية أو الحيوانية على حد سواء .

وبالاضافة الى تلك المادة الخضراء (الكلوروفيل) تحتوى النباتات على مواد أخرى كثيرة لها ألوان متباينة . ومنها الصبغ الأزرق والصبغ الأصفر والصبغ الأحمر والصبغ البنى وغيرها ، وتشاهد مثل تلك الألوان فى كثير من الأجزاء النباتية وخصوصا الأزهار والثمار ، كما يتضح من الآية الكريمة التالية :

(فأخرجنا به ثمرات مختلف ألوانها)

صدق الله العظيم

وتشاهد تلك الاصباغ النباتية فى الأوراق والازهار وغيرها .

أما فى الانسان فيحتوى الجلد دائما على نوع آخر من الأصباغ يطلق عليه اسم الميلانين (Melanin) ، وهو صبغ أسود أو بنى داكن يستقر داخل بعض الخلايا الجلدية المعينة التى تسمى « خلايا الميلانين » ، وهى تنتشر بين خلايا الطبقة القاعدية للبشرة وهى المسماة « طبقة ملبيجى » نسبة الى عالم التشريح الايطالى ملبيجى (Malpighi) ، ولهذا الصبغ أهمية قصوى فى حماية أنسجة الجلد اللينة من التأثيرات المدمرة للأشعة فوق البنفسجية الموجودة في أشعة الشمس ، إذ تتكون منه طبقة داكنة تمنع وصول تلك الأشعة الى داخل الجلد ، ولهذا السبب نجد أن هناك اختلافات واضحة فى كمية الميلانين الموجودة فى الجلد فى مختلف السلالات البشرية ، تبعا للبيئة التى تعيش فيها كل من تلك السلالات .

وعن اختلاف تلك الالوان البشرية تحدثنا الآية الكريمة التالية :

(ومن آياته خلق السموات والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم)

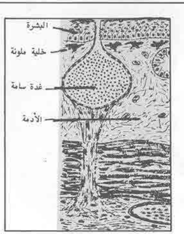
صدق الله العظيم

فى الاقاليم الشمالية حيث تكون أشعة الشمس ضعيفة نسبيا ويكون عدد الايام المشمسة قليلا على مدار العام نجد أن الجلد لا يحتوى إلا على كمية ضئيلة من صبغ الميلانين ، مما يؤدى إلى أن يشتد بياض البشرة والى وجود العيون الزرقاء والشعر الأصفر ، كما هى الحال فى البلاد الاسكندنافية على سبيل المثال ، فإذا تحركنا نحو الجنوب نجد أن لون الجلد والشعر والأعين يزداد سمرة بالتدريج حتى نصل الى اللون الأسود القاتم فى المناطق الاستوائية ، وهى المناطق التى لا تكاد تغيب عنها الشمس فى يوم من أيام السنة ، كما تكون الأشعة الضوئية فى أعلى معدلاتها من حيث القوة والانتشار ، ولذلك يمتاز سكان تلك المناطق باللون الاسود القاتم لكل من الجلد والشعر والأعين ، وهو ما يوضح أن كمية الصبغ الأسود الموجود فى جلد الانسان تتناسب تناسبا طرديا مع كمية الأشعة الضوئية التى يتعرض لها فى حياته اليومية .

ومن المشاهد المألوفة لدينا أن المصطافين الذين يقضون بعضا من الوقت خلال فصل الصيف على شاطىء البحر مع التعرض لأشعة الشمس ، يعودون من المصيف وقد اكتست أجسامهم بلون أسمر مائل الى الحمرة ، ولكن سرعان ما تتضاءل تلك السمرة تدريجيا ، ويعود الجلد بعد أيام قلائل الى لونه الطبيعى ، والواقع أن التعرض لأشعة الشمس يكون حافزا للخلايا الجلدية على تكثيف المادة الملونة الموجودة بداخلها ، كاجراء وقائى لتحاشى الاضرار الناتجة عن الاشعة فوق البنفسجية الموجودة فى ضوء الشمس الشديد[1] .

والواقع أن خلايا الميلانين قادرة على انتاج كميات إضافية من تلك المادة الملونة عند

■ ماذا تعرف عن الكلوروفيل الذي يلعب في تكوين الأغذية النباتية دورًا يفوق الخيال ؟



الخلايا الملونة فى أدمة الجلد للبرمائيات
(قطاع عمودي على السطح)

الخلايا الملونة فى جلد سمك موسى
(منظر سطحي)

تعرضها لأشعة الشمس ، حيث تستخدم لهذا الغرض مادة بروتينية تسمى « تيروسين » (Tyrosine) ، فتعمل على تحويلها إلى صبغ الميلانين الذي يزداد كثافة داخل الخلايا الملونة عند التعرض للاشعة فوق البنفسجية .

وهناك حالة شاذة فيما يتعلق بلون الجلد فى الانسان يطلق عليها اسم الشقرة أو اشقرار اللون (Albinism) ، وفى هذه الحالة التى تعتبر من « العيوب الخلقية » يخلو الجلد الذى يكسو الجسم وكذلك الشعر وقزحية العين[2] خلوا تاما من صبغ الميلانين ، ولذلك يظهر الجسم بلون وردى (وهو لون الشعيرات الدموية الرقيقة المنتشرة فى الجلد) ، كما يكون الشعر أبيض اللون لخلوه تماما من أى لون على الاطلاق كما تكون قزحية العين عديمة اللون ، مما يجعل المصاب بهذا العيب الخلقي غير قادر على النظر المباشر لأشعة الشمس ، ويطلق العامة من الناس اسم « عدو الشمس » على مثل هؤلاء الاشخاص ، وهم يضعون فى كثير من الأحيان النظارات السوداء على أعينهم وقاية لها من أشعة الشمس ، والشقرة من العيوب الوراثية التى يتناقلها الابناء عن الآباء ، تبعا لقوانين « مندل » فى علم الوراثة .

ولا يقتصر هذا العيب الخلقى على الانسان وحده بل هناك أنواع كثيرة من الحيوانات الملونة طبيعيا بلون أسود أو بنى داكن ، يظهر بينها من آن إلى آخر أفراد تخلو أجسامهم من مادة الميلانين ، ويكون لهم اللون الاشقر الذى سبق وصفه فى الانسان .

فإذا انتقلنا بعد ذلك إلى الحديث عن الألوان فى المخلوقات الأخرى التى تدب على سطح الأرض أو تسبح فى الماء أو تطير فى أجواز الفضاء ، لوجدنا أن هناك مجموعات عديدة تشتهر بألوانها الجميلة الزاهية . ومنها على سبيل المثال طائفة الأسماك وخصوصا تلك الأسماك الملونة التى تسبح بين الشعاب المرجانية فى البحار الدافئة ، وكذلك طائفة الطيور وخصوصا الطواويس والطيور المغردة وغيرها مما تمتاز بألوانها الرائعة الجذابة ، وأيضا طائفة الزواحف التى تزحف ببطنها على سطح الأرض والتى يمتلك البعض منها ألوانا غاية فى الروعة والبهاء .

وفيما عدا الطيور فإن الجلد فى تلك الحيوانات يحتوى على خلايا خاصة حاملة للأصباغ ، وتكون تلك الخلايا عادة نجمية الشكل ، وهى توجد إما فى بشرة الجلد كما فى الزواحف ، أو فى الطبقة الخارجية من الأدمة كما فى البرمائيات ، والانواع الأكثر شيوعا من تلك الخلايا الملونة هى :

١ ــ حاملات الميلانين ــ وتوجد بداخلها حبيبات بنية داكنة أو سوداء اللون .

٢ ــ حاملات اللون الأحمر ــ وتوجد بداخلها حبيبات حمراء .

٣ ــ حاملات اللون الأصفر ــ وتوجد بداخلها حبيبات صفراء .

٤ ــ حاملات الجوانين ــ وهى لا تحتوى بداخلها على حبيبات ملونة بل تحتوى على بلورات دقيقة من مادة « الجوانين » التى ينعكس عليها الضوء ، فينتج عن ذلك تغيير فى المواد الملونة ويحتوى الجلد على ثلاثة من تلك الأنواع فى سمك موسى .

وتشاهد فى بعض تلك الأنواع الملونة وخصوصا الحرباء (التى يضرب بها المثل فى سرعة التلون) وأيضا فى سمك موسى ظاهرة هامة هى ظاهرة تغيير اللون ، ويتم هذا التغيير بدرجة تجعل من الصعب على الانسان التمييز بين الكائن الحى والوسط الذى يعيش فيه ، فالحرباء مثلا تكون خضراء اللون بين أوراق الاشجار وفروعها المتشابكة ، ولكنها سرعان ما تتحول إلى اللون الأصفر أو البنى الفاتح إذا هبطت إلى سطح الأرض لوضع البيض . وينتج هذا التلون فى مثل تلك الحيوانات إما بتغيير موضع حاملات اللون بالنسبة لبعضها البعض ، أو بسبب تغيير مواضع الحبيبات الملونة داخل الخلايا حاملات اللون ، فإذا انتشرت تلك الحبيبات فى مختلف أجزاء الخلية يصبح لون الجسم داكنا ، أما إذا تجمعت تلك الحبيبات الملونة فى كتلة صغيرة مركزية فى وسط الخلية يصبح اللون فاتحا .

أما فى الطيور فإن الألوان الرائعة التى تمتاز بها تلك المخلوقات لا تستقر داخل الجلد كما هى الحال فى الحالات التى سبق وصفها ، ولكنها توجد داخل الريش الذى يكسو أجسامها من الخارج فإذا أزلنا هذا الريش عن جسم الطائر لكانت لجميع الطيور أجسام متشابهة عديمة اللون ، ويرجع لون هذا الريش إما لأصباغ محددة تستقر بداخله ، أو إلى ظواهر ضوئية ، ويتم ذلك إما بانعكاس الأشعة الضوئية على سطح المنشورات الدقيقة الموجودة فى المادة القرنية للريش ، أو بانكسارها وتحللها إلى ألوان الطيف المعروفة كما يشاهد فى الطواويس وكثير من الطيور المغردة .

محمد رشاد الطوبى

هامش

(١) يتكون ضوء الشمس من سبع أشعات مرئية (وهى الأشعة البنفسجية والنيلية والزرقاء والخضراء والصفراء والبرتقالية والحمراء) واثنتين من الاشعة غير المرئية (وهما الاشعة فوق البنفسجية وتحت الحمراء) .

(٢) القزحية هى القرص الملون الموجود فى مقدمة العين تحت القرنية الشفافة مباشرة . ويوجد فى وسطها الثقب المعروف بانسان العين أو الحدقة ، وهو الذى تمر منه الأشعة الضوئية لتقع على الشبكية الحساسة .



تصوير عبد الرحمن عبيدان



تصوير عزام الشويكي

عندما تكون الصورة ثقافة

الحياة والناس والبيئة في عيون المصوِّرين القطريِّين

تحقيق: السيد حجازي

حسين الجابر



عبد الرحمن عبيدان



خليفة المسلماني



نشوان العمري





تصوير خليفة السلطانى



تصوير راشد صقر

هم مجموعة من الشباب القطرى الذى يتطلع الى المستقبل باشراق وتفتح ، جمعتهم هواية واحدة ، جميلة وفنية ، هى هواية التصوير ، وفكروا فى أن تضمهم جماعة ، تنمى فيهم الاستعداد وتعمقه ، وتؤصل لديهم القواعد العلمية ، وتفتح أمامهم آفاقا رحبة فى عالم هذه الهواية الواسع ، المتجدد .

ولقد نجحت فكرتهم ، ولقيت جماعة التصوير كل تقدير وتأييد من المسئولين . وبدأ أعضاء الجماعة فى الانطلاق ، وظهرت ابداعاتهم الفنية . وهى ابداعات بحق ، فانها ليست مجرد « صور » فوتغرافية تلتقطها الكاميرا فقط ، وانما هى رؤية فنية ، تدخل فيها وجهة نظر الفنان المصور ، وتعطى أبعاداً جديدة للشكل والمضمون ..

احساس فنى

وهكذا فرضت أعمال الفنانين الشبان نفسها باحساسها الفنى المرهف ، الواضح ، وبانطلاقها عبر آفاق رحبة غير مقيدة . فقد تناولت الصور « اللوحات » موضوعات عديدة عن الحياة والناس والبيئة ، وعبرت خير تعبير عن التراث الحافل ، والماضى والحاضر المتجدد ، والمستقبل المشرق ، المضىء ..

لقد خرج الفنانون الشبان بالكاميرا الى المناطق القديمة ، وعايشوا البحر عن قرب ، وانطلقوا الى الأسواق الشعبية ، وجابوا أغلب دول الخليج ، وعدداً كبيراً من دول العالم ، ليسجلوا الواقع ، من خلال رؤية فنية ، واعدة ، وواعية ، وليقولوا بكل ثقة ان الكاميرا فى يد الفنان ، يمكن أن تكون أداة ، فعالة ، ومؤثرة ، لاأداة ناقلة ، وصامتة ..

والمتأمل لصورهم ولوحاتهم التى أبدعوها يدرك هذه الحقيقة تمام الإدراك ، ويعرف أن الهواية اذا ماتأصلت وانطلقت الى آفاق رحبة ، يمكن أن تؤدى الى نتائج ايجابية ، ومن ثم تتحول الهواية الى متعة وفائدة معا . ولعل هذا هو مادعا « نشوان العمرى » وهو موظف باحدى الشركات ، الى تجميع عدد من الأصدقاء أصحاب هواية التصوير ، للانطلاق فى هذا المجال ..

وللمصور « نشوان » بالذات قصة طويلة مع التصوير ، بدأت منذ أن كان فى المرحلة الابتدائية ، وظل ينمى هذه الهواية بكل الوسائل ، حاول التعمق فى معرفة أسرار فن التصوير . واشترك فى معارض ومسابقات عديدة أكثرها فى قطر . ونال جائزة أولى فى مسابقة المبانى القديمة فى قطر ، وكانت صورته الفائزة لمسجد قديم أثرى . ونال جائزة أحسن عمل فى مسابقة اليونسكو عن الشباب ومحو الأمية ، وجائزة أجمل صور لمدينة الخور . وفى مسابقة أجريت فى الكويت عن حماية البيئة حصل على المرتبة الأولى . وفى الوقت نفسه أقام ثلاثة معارض خاصة فى موضوعات متفرقة ، وجاء مؤخرا من رحلة فى

البحر والطبيعة والتراث عالمهم.. والكاميرا مجرد أداة في أيديهم

تصوير طه محمد

افريقيا، صور خلالها مائتى فيلم عن «الجنص» أو الصيد، بدعوة كريمة من الشيخ حسن بن محمد آل ثاني..

الهواية والابداع

ويعتقد المصور «نشوان» أن من الأفضل أن يظل هاويا، برغم تقدمه الواضح فى مضمار التصوير الفنى، فمن رأيه أن الاحتراف قد يؤثر على الناحية الابداعية. ويشاركه فى ذلك الأخ حسين الجابر، والأخ عبد الرحمن العبيدان، والاثنان متخصصان فى الجيولوجيا وهندسة البترول. هؤلاء الثلاثة الذين جمعتهم الهواية اختمرت فى أذهانهم فكرة انشاء جماعة تضمهم، والتقوا الاستاذ موسى زينل مدير ادارة الثقافة والفنون، الذى أعجب بالفكرة، وبدأ تنفيذها تحت اشراف الادارة، ومقرها مركز الدوحة الثقافى بمدينة خليفة..

ووصل عدد الأعضاء الذين انضموا الى الجمعية منذ نشأتها فى مايو ١٩٨٥، الى عشرين عضوا. من جميع الأعمار والجنسيات، وبينهم أربع طالبات. وقد أمدتهم ادارة الثقافة والفنون بكل الامكانيات والأدوات، اضافة الى التشجيع المعنوى، الأمر الذى انعكس على الأعضاء نشاطا شاملا، تمثل فى انتاج العديد من الصور واللوحات التى شملت المناظر الطبيعية، والوجوه والفنانين، والتى سيضمها معرض لانتاج جماعة التصوير يقام فى سبتمبر المقبل.

الطبيعة والبورتريه

ويحكى المصور حسين الجابر أن هواية التصوير التى بدأت معه منذ الصغر تركزت وتعمقت بالخبرة، بالاضافة الى الإطلاع على الإنتاجات الفنية المتعددة فى المجلات والكتب الأجنبية. وتدور موضوعاته دائما حول الطبيعة، كما يهتم بالبورتريهات، وهو يطلع باستمرار على أحدث ماتصل اليه التقنية العلمية فى مجال التصوير. وبرغم انشغاله فى عمله الأساسى، الا أنه يستغل باستمرار أيام العطلات الأسبوعية، لمزاولة هوايته، اضافة الى أن وقته بعد الدوام يقضيه فى العمل الذى يحبه. وفى رأيه أن المصور اللبنانى الارمنى يوسف كارش هو المثل الذى يوظف الفن فى عالم التصوير، وقد انطلق فى هذا المجال، مسجلا صورا عالمية. ويميل الأخ حسين الى أن تقول الصورة شيئا، تنتقد، تلفت النظر الى مشكلة، تسجل موقفا. وقد انطلق بكاميراته الى المناطق الأثرية، ومع البحر، والى الوكرة، والشمال، والبحرين، والامارات. وهو يتمنى أن تستطيع الجماعة تخريج العديدين من الهواة العالمين بفن التصوير، وهو

■ شباب جمعتهم الهواية وشجّعهم المسؤولون بكل الإمكانيّات

■ تسجيل حيّ للتقاليد الشعبية، ومعرض كامل في شهر سبتمبر



تصوير عبد الرحمن الثاني

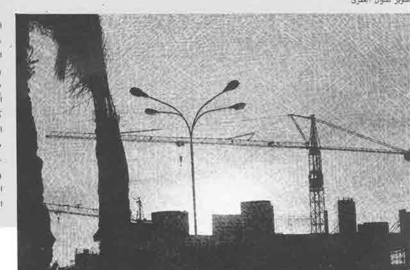
تصوير فهمي حسين



تصوير نشوان العمرى

لذلك يقترح تنظيم دورات تدريبية فى هذا المجال، وحبذا لو كان هناك معهد أو مدرسة لهذا الفن الجميل : التصوير..

أما المصور عبدالرحمن العبيدان فقد بدأت الهواية عنده منذ خمس سنوات، ويعتبر نفسه مازال مبتدئا فى هذا المجال، وهو يهتم اهتماما خاصا بأجهزة التحميض والطبع. ويركز فى أعماله على الطبيعة، وكانت له لوحة بعنوان الشمس والغروب، فازت فى مسابقة أجريت فى مؤسسة البترول، حيث يعمل. كما أنه فاز فى مسابقة اقامتها احدى المجلات العربية، وله ابداعات تشهد بقدرته على المزج بين التصوير الضوئى وبين الرؤية الفنية من خلال زياراته للامارات والعراق وتركيا وبريطانيا، حيث سجل فى لوحات أهم المساجد القديمة، والمناظر الطبيعية الخلابة..





تصوير حسين الجابر

المناسبات والحفلات

والى جانب ماقام به المصور عبدالرحمن عبيدان من أعمال طبيعية وتراثية ، تجمع بين الرسم والتصوير ، وتشهد بأنه شبه محترف ، الا أنه أيضا ركز على صور المناسبات والحفلات ، واهتم اهتماما خاصا بتسجيل التقاليد الشعبية في الأفراح وغيرها ، بعين تقدر قيمة العمل الفني ، وترصد رصداً واعيا أشياء مميزة ، يقف المشاهد أمامها باعجاب وانبهار ..

ومن أعضاء الجماعة المجتهدين المصور خليفة المسلماني ، وهو الآخر يعمل بمركز التدريب براس أبو عبود التابع لمؤسسة البترول ؛ ومع ذلك اندفع في طريق هذه الهواية الجميلة ، بإمكانيات فنية لابأس بها . وهو من المحبين للرسم منذ الصغر ، وله في مجاله أعمال تشهد بقدرته الواعدة ، لكنه اتجه الى التصوير ، ومزج بين الفنين . فجاءت أعماله مؤكدة تميزه في هذا المجال الهام ، وهو يتناول في أعماله شتى الموضوعات ، ويرى أن تهتم الجماعة بتأكيد ذاتها ، وأن تكون هناك حلقة وصل بينها وبين الجمعيات المماثلة في الخليج وفي العالمين العربي والعالمي . وسوف يشترك في معرض الجماعة القادم بخمس عشرة لوحة تضم مناظر طبيعية وأثرية ..

ويلفت النظر أيضا في جماعة التصوير المصور عبدالرحمن حجي أحمد ، وهو موظف بالقوات البحرية ، وتدور موضوعاته حول البحر ، ويستعد هو الأخر للمعرض القادم بخمس عشرة لوحة . وهو يحرص على الالتقاء بزملائه مرتين في الأسبوع ، لتبادل الآراء والخبرات . ومن رأيه أن كلامنهم يتميز بلون خاص ، ومذاق مميز في أعماله . وهو من المؤمنين أيضا بضرورة اكتساب خبرات جديدة ، ويؤكد أن ثلاث سنوات قضاها في ممارسة الهواية لاتكفي لأن يقال إنه أضاف شيئا ، لكنه يتطلع الى المزيد من الجودة وتحسين درجة الأداء ، ولن يقدم على فكرة التفرغ اذا ماطلب منه ذلك ، الا إذا وصل الى نقطة يقول فيها إنه أصبح فعلا مصورا محترفا ، يمكن أن يقدم شيئا فنيا من خلال الكاميرا ..

والحقيقة أن الانتاج الذى قدمه هؤلاء الشباب وزملاؤهم من جماعة التصوير يستوقف الناظر اليه بشكل ملحوظ ، فهو لايقدم مادة تسجيلية فقط ، وانما يقدم مادة فنية حية ، وهو الأمر الذى يؤكد بوضوح أن المصور أصبح كأى فنان تشكيلي . فالعين هي التي تنقل الاحساس للكاميرا ، وهي التى تسجل ، وما الآلة الا أداة تخدم ، وتوظف الإمكانيات الفنية في خدمة العمل ، بما وصلت اليه من تقنية علمية ..

هكذا ينطلق المصورون القطريون الهواة من هذا المنطلق ، وتأتى أعمالهم بحق أعمالا فنية ، حساسة ، قادرة على أن تقول شيئا ، وتضيف الى رصيد الحركة الفنية التشكيلية بعض اللمسات الحية ، والاجتهادات القوية ، وهو مايؤكد أن المستقبل لشباب قطر في كل المجالات ، ومنها هذا المجال الجديد ، الذى يدخله هؤلاء الهواة بفهم ، وثقة ، واقتدار ، وانطلاق ..

السيد حجازي

أوراق خضراء

الكلمة الحية لا تموت بل تزدهر وتزداد حجماً لا مع الأيام
وهذه مختارات ثقافية حية من الصحف العربية القديمة

● أخلاقنا ● ذكاء القردة

أخلاقنا

بقلم: علي الطنطاوي

نحن اليوم ، فى أكثر بلدان الشرق الإسلامى ، فى دور يقظة ، ومطلع نهضة ، ولكل نهضة جسم وروح ، أما الجسم فهذه السياسة وما يتصل بها ، وهذه الدواوين الحكومية وما يكون فيها ، وهذه القوانين والأنظمة وما ينشأ عنها ، وأما الروح فهو الأخلاق والعقائد والمثل العليا . فروح الحكم الإخلاص والقناعة والعدل بين الناس ، وروح الوظيفة الاستقامة ومعرفة الواجب ، وروح الديمقراطية الإرادة المشتركة وضمان المصلحة العامة ، وروح المدرسة تنشئة جيل المستقبل على المثل العليا ، وروح الصحافة نشر الحق والفضيلة والخير .. فهل امتدت نهضتنا إلى الروح ، أم هى اقتصرت على الجسم وحده ، لم نُعن إلا به ، شأننا فى كل أمر من أمورنا حين نهتم بالقشور ونقف عند الظواهر؟



الجواب عند القراء، لاحاجة إلى إثباته في هذا المقال. ولكن الحاجة ماسة إلى كتّاب ومربين وعلماء، يستقرون أخلاقنا التي نحن عليها، ويصنفونها ويقومها، ويرون مايجب أن يبقى فيعملون على تثبيته ودره، وينظرون ماينبغي أن يبدل أو يعدل، فيسخرون المدرسة والصحافة والقوانين لتبديله وتعديله. لتنشأ أمة المستقبل على الأخلاق الصالحة التي تستطيع أن تبلغ بها ماتريد من مجد وعلاء، وتتبوأ المكان اللائق بها بين الأمم، وتلغي هذه الأخلاق التي ورثناها من الحكم التركي الطويل، وبلغت بنا قعر الهاوية التي نحاول اليوم النجاة منها، ونعود إلى أخلاقنا الإسلامية التي قبسها منا الغربيون فأفلحوا بها ونجحوا...

من هذه الأخلاق التي يجب أن نتخلص منها أننا لانعرف التعاون ولانقدر أن نعمل مجتمعين. فالفرد منا عامل منتج، ولكن الجماعة عاجزة عقيمة، ومن نظر إلى انتشار الشركات في الغرب على اختلاف أنواعها، والجمعيات على تنوع غاياتها، والأحزاب والنوادي، ورأى ماعندنا من ذلك رأى أنه ليس إلى المفاضلة من سبيل.. وعلّة ذلك الأنانية المفرطة، والأثرة الجامحة، وحب الذات الطاغي، فالرجل منا يريد أن يكون هو كل شيء في الجمعية أو الشركة، رئيسها إن كان لها رئيس، أو ناموسها (سكرتيرها) إن لم يكن رئيس، وعضو الإدارة إن كان مجلس إدارة، وأن يكون له الرأي إن أخذت الآراء... بل إنا نرى كلامنا يعطل أعمال الآخرين ويبطلها، ويعمل على هدمها، بينما نراه مؤمناً بلزومها، معتقداً بالحاجة إليها، ساعياً إلى القيام بمثلها، فهو يعرف الحاجة إلى ناد أدبي ولكنه يحارب النادي لأنك أنشأته أنت، وهو يعلم الحاجة إلى مدرسة دينية ويدعو إليها، ولكنه إذا رآها قد فتحت ونالت قسطاً من النجاح أصلاها حرباً حامية، وجعل أكبر همه هدمها وتخريبها. ذلك أن دعوته الأولى لم تكن عن إخلاص ولم يكن يريد بها وجه الله والمصلحة، ولكنه يريد الفخر والشهرة والنفع واللذة، فلما رآك أنت السابق إليها والذاهب بفخرها، خان المصلحة وعصى الله ليرضي أثرته ويستجيب لأنانيته.. وهو شاعر بالحاجة إلى جمعية خيرية يسعى إلى تأليفها بحماسة وجد ودأب قد ملأت فكرتها نفسه وحياته فهو لايتحدث إلا بحديثها، ولا يشتغل إلا لتأسيسها، فإذا تم له الفلاح بعد التعب والكفاح وقامت الجمعية ولم يكن هو الرئيس أو هو الناموس انفصل عنها وحاربها حرباً لا هوادة فيها وسعى إلى هدم مابناه بيده..

هذا داء من أشد أدوائنا الخلقية، إن لم نعالجه فشت جرثومته في جسم الأمة، فشلّت أعضاءها وعطلت أعمالها:

متى يبلغ البنيان يوماً تمامه
إذا كنت تبنيه وغيرك يهدم؟

وأين هو الإخلاص، وأين هو الصدق، فيمن يدعو إلى الخير أو الدين أو الفضيلة، وغايته استغلال الدين والخير والفضيلة لمصلحة نفسه وإطاعة هواه؟

* * *

ومن هذه الأخلاق أننا لانعرف قيمة الوقت، وأنا نضيع أوقاتنا سدى، ونذهب أعمارنا عبثاً لانعرف لها قيمة وهي أثمن مانملك. وإذا كان فينا من يحسن الاستفادة من وقته، وينفقه في علم أو أدب أو شيء مما ينفع الناس، لم يعدم من الثقلاء من يضيع عليه وقته، ويسرق عمره ولا يتوهم أنه أساء أو أخر..

وما أظن أن في القراء من لايذكر حادثة في هذا الباب.. كنت ذاهباً إلى المدرسة ذات مرة، وكان علي محاضرة لم يبق دون موعدها إلا مسافة الطريق، وكنت مسرعاً لا أكاد أبصر طريقي فاعترضني رجل كبير كان ناظراً للمدرسة الثانوية التي كنت فيها وله في البلد حرمة ومقام، فأقبلت عليه أحييه وأفهمته برفق أن علي محاضرة قد حان موعدها فقال: طيب... لحظة. وانطلق يتكلم، فلا والله ماسكت إلا بعد ساعة ونصف ساعة ألقى هو فيها المحاضرة عليّ، وأنا أتململ وأتحرك ويربد وجهي وأحس النار تشتعل في عروقي... فلما انتهى قال:

ــ أظن أننا وقفناك... عدم المؤاخذة!

قلت: أستغفر الله، ومضيت عنه...

* * *

هذه علة أخرى من عللنا الأخلاقية.. لاشك في أنها من أشدها وأدواها لأن حفظ الوقت آكد وسيلة إلى النجاح، وخير طريقة لرفعة الفرد والمجموع. أذكر أن الدكتور نمر تحدث إلى قراء المقتطف في العدد الخاص بعيد المقتطف بيّن لهم أن أثمن مااستفاده من الأمريكان في كليتهم هو تقدير الوقت، وأن ذلك هو الذي أعانه وزميله الكبير الدكتور صروف على النجاح وأتاح لهما تحقيق هذا المشروع العظيم، والأمريكان خاصة والغربيون على التعميم يعرفون كيف يستفيدون من أوقاتهم، فيقوم أحدهم في اليوم بأعمال لاتقوم بمثلها الجماعة منا في أسبوع. وكذلك كان أجدادنا الذين تركوا هذه الآثار العلمية الضخمة، وكان فيهم من بلغت تصانيفه الثلاثمائة فما فوقها.. كانوا يحسنون الاستفادة من أوقاتهم، ولايدعون دقيقة واحدة تمر إلا في عمل مفيد، أو راحة مقدرة، أو قضاء حق لله أو للجسم أو للعيال.. والوقت لايضيق بعمل إذا عرفنا طريق استغلاله والانتفاع به. ولو أحصى الواحد منا مايذهب من عمره هدراً في المقاهي أو دور اللهو، وفي الأحاديث الفارغة، ومطالعة الصحف الجوفاء، والمجلات المؤذية، وقدر مايمكن أن يعمل في مثل هذا الوقت من جليل الأعمال ونافعها لهاله الأمر ورأى شيئاً عظيما.

وانظر إلى التلميذ إذا دهمه الامتحان كيف يقرأ الكتاب في ليال ويحفظه كله، والموظف إذا اضطر إلى العمل، أو الصحفي إذا كان موسم من مواسم الصحافة، والمؤلف إذا طمع في الجائزة الكبرى، أنظر إلى هؤلاء كلهم، وانظر إلى هؤلاء الأفراد الممتازين الذين يشتغلون بالسياسة ويبرزون فيها، ويؤلفون في الأدب وينبغون فيه، ويطالعون كثيراً من الكتب، ولا يقصرون في حقوق أنفسهم وأهليهم، وحقوق الناس، تعلم أن الوقت واسع جداً، ولكن الجاهل المهمل يضيقه على نفسه.

ومن الأخلاق التي يجب أن نتعلمها تقدير المصلحة العامة. وإهمالنا هذه المصلحة باب آخر من أبواب الأثرة (الأنانية) منشؤه أن أكثر الحكومات التي تتالت على بلدان الشرق الإسلامي في القرون الأخيرة لم تكن من الشعب ولا إلى الشعب، ولم تكن تحرص على مصلحته. فزالت ثقته بها، ونظر إليها نظره إلى عدو مقاتل؛ وغدا يرى كل أذى يلحقه بها؛ أو مال يستلبها إياه، أو حق لها يضيعه، يرى كل ذلك بطولة وفخراً، وغدا كل واحد منا يسعى جهده ليفر من الخدمة العسكرية أو يحتال بحيلة تنجيه من دفع الضرائب، أو يتوسل بوسيلة إلى اختلاس مال الخزينة. ولعل له في ذلك عذراً، هو أن الخدمة العسكرية كانت لحماية الحكومة دون الشعب. والضرائب لحياتها هي؛ وكان مال الخزينة مالها ينفق على أفرادها. ولاتزال الموازنة عندنا إلى الآن مصروفاً ثلثاها على الموظفين رواتب لهم وأجوراً، والثلث أو مادونه على المصلحة التي أنشئت من أجلها الحكومة.

ونحن في حاجة إلى التخلص من المرض. نحن في حاجة إلى الإيمان بأن مصلحة الفرد في مصلحة المجموع وأن رفعته في رفعة الأمة.. يجب أن تسأل الأم ابنها كل ليلة: ماذا عملت لأجل الأمة؟ بماذا خدمت اليوم الوطن؟ هل أحسنت إلى سائل؟ هل تبرعت بقرش لجمعية خيرية؟ هل تعلمت مسألة نافعة؟ هل كنت مهذباً مع رفاقك؟ ويجب أن يسأل كل منا نفسه هذا السؤال عندما يضع رأسه على الوسادة قبل أن يستسلم إلى النوم.

* * *

ومن هذا الباب إطاعة القوانين واحترام النظام، ذلك الذي لم نتعلمه بعد ولا نعرفه أبداً لأن زماناً غبر (ولم يتبدل بعد) كانت القوانين والأنظمة توضع فيه لغير مصلحتنا وتفرض علينا فرضاً فتعودنا ألا نطيعها وألا نحترمها، ولكنا دخلنا اليوم في طريق الاستقلال (أو كأن قد) وصرنا نضع قوانيننا (إلى حدما) بأنفسنا فيجب أن يتبدل ذلك كله وأن يرسخ في نفوسنا احترام القوانين وإطاعتها، لاخوفاً من العقاب بل لأن إطاعتها واجبة.

ومن هذا الباب أو ماهو شبيه به احترام الراحة العامة. نمتُ ليلة في فندق كبير في بيروت، فنزل في الغرفة اللاصقة بغرفتي جماعة من أكابر حلب حلّوا بعد نصف الليل فبعثوا أحدهم بحاجة لهم إلى السوق، فلما بلغ الشارع ذكروا حاجة أخرى يأمرونه بقضائها فأطل أحدهم من شرفة الطبقة الخامسة وناداه وكلمه بصوت يوقظ الموتى، فلم يبق حيٌّ في الفندق إلا قام. ولما عاتبوه لم يستطع أبداً أن يفهم أو يتصور أنه أتى أمراً نكراً.

وانحدرت مرة من الأعظمية إلى بغداد في سيارة عامة من هذه السيارات التي يسمونها هناك (الباص) فركب معنا جزار معه خروف مسلوخ وضعه على ركبته وألقى برقبته على ثيابي. ورأيت الناس ينظرون إليه نظر المقر الموافق فاضطررت إلى النزول من غير أن أشتبك معه بقتال.

وكثيراً مانسمع رجلاً أو جماعة يمرون في الشارع قبيل الصبح فيأخذهم الطرب فيغنون بمثل الصوت الذي ذكره ربنا في الكتاب، ولا يقدرون أو يتصورون أنهم يسيئون إلى أحد.

ولا يمضي على الواحد منا يوم لايرى فيه مايسوء ويزعج من بصاق في الترام أو حديث في المكتبة العامة، أو خصومة حامية في المسجد، أو غير ذلك من المزعجات المنغصات التي لايزيلها إلا عناية المدرسة بتعليم الطلاب احترام الراحة العامة، وحث الصحف الشعب على ذلك...

* * *

ومن الأخلاق التي يجب أن نسرع إلى تعلمها احترام الواجب والاستقامة والاصغاء إلى صوت الضمير. إن المعلم لايتورع إذا أمره رئيس أو رجاه صديق أو نالته منفعة، أن ينجح التلميذ الذي يستحق السقوط في الامتحان، وأن يزيد في الدرجات وأن يفعل كل شيء؛ والقاضي لايمتنع عن تبرئة الظالم وعقاب المظلوم؛ والوزير لايتقاعس عن إيثار الشفاعات والوساطات على الكفايات والشهادات؛ والطبيب لايبالي بأن يجهض أو يأتي كل أمر يستطيعه مادام في ذلك لذة له أو فائدة؛ والموظفون يقبلون الرشوة والناس يعطونها؛ ولاتكاد تجد من عرف الواجب عليه وأكبره إكباراً، وضحى في سبيل القيام به بكل شيء. ولا أعني أن كل المعلمين أو القضاة أو الوزراء أو الأطباء متنكبون سبيل الشرف مضيعون للواجب، ولكن الذي أعنيه أن بهم من هذا شأنه، وأن احترام الواجب لم يذع فينا ولم يصبح شعاراً دائماً لنا، وأن المدرسة والصحافة والقانون وواضعه، كل أولئك مقصرون لايولون هذا الأمر مايستحق من العناية والاهتمام في حين أنه من الأسس الثابتة والدعائم الكبرى في بناء الأمم.

ونحن في حاجة إلى تعلم الصدق، لأن الكذب قد فشا فينا وعم وأصبح أسهل شيء علينا، فنحن نكذب في الأمور الهينة ونكذب في الجليلة، ونعلم أولادنا الكذب. من منا لا يقرع بابه فيقول لابنه: قل له إن أبي ليس هنا! ومن منا يلقى رفيقاً له أو رجلاً يعرفه فيقول له: كيف حالك أوزيُك؟ فلا يقول له: بغاية الشوق. وهو لايشتاقه ولايفكر فيه. وقد يكون مبغضاً له يرى البعد عنه غنيمة... فمجاملاتنا وحياتنا الاجتماعية كلها قائمة على الكذب. ومن جرب أن يصدق يوماً كاملاً رأى العجائب، وقد أدرك ذلك العامة فجاء في أمثالهم (الصادقة): الكذب ملح الرجال. والعيب على الذي يصدق...

* * *

هذا وشبهه (وما أكثر اشباهه) روح النهضة وقوامها، فاذا لم تعتن به الحكومات والأحزاب والجمعيات والمدارس. ومن يشتغل بالوطنية، ويبث في نفوس الأطفال، ويوضع في نظم التربية والتعليم، كانت نهضتنا جسماً لاروح فيه!

وإنمــا الأمــم الأخلاق مــابقــيت
فإن همُ ذهـبت أخلاقــهم ذهــبوا

على الطنطاوي
المدرس في الكلية الشرعية ببيروت
١٩٣٨

ذكاء القردة

بقلم: الدكتور أحمد زكي

نبدأ بالتعريف ـ حضرتها قردة ، مخلوقة من مخلوقات الله ولا تحقير لخلقه ، ولدت في ليلة اسودّ أديمها بمقدار ما ابيضّ نجمها ، وغاب نحسها وتراجع بؤسها ، على حين حضر نعيمها وأقبلت بركتها ، ليلة من تلك الليالي الاستوائية الجميلة في دَغَل من أدغال الكمرون الفرنسية على الشاطىء الغربي من القارة الأفريقية ، وأصبح الصباح ففتحت عينيها ترى وَضَحَ النهار لأول مرة ، وأدبر النهار عن ليل ازدهرت نجومه فرفعت عينيها إلى عل في خيفة وخشوع ، كأنما تستخبر عن سر هذه الثقوب في القبة السوداء ، وانسلخ النهار من الليل ، وانسلخ الليل من النهار ، فأخذت تدرج من مسقط رأسها تتعرف البقعة الكونية التي تحيط بها وهي كل دنياها ، وذات يوم وهي تتفقد الأشجار مع القبيل في هدوء ، وتدور وراء الأحراج في بطء ، صرخ صارخ القوم ينذر ، فتجاوبت من كل الأرجاء أصوات النذر ، فجرت القردة تطلب النجاة في أعالي الشجر وسواد الغاب ، وضلت أمها وتخلفت عن القافلة فوقعت في أسر نفر من الصيادين الأمريكان جاءوا يرتادون الناحية لدرس حيوانها وطيرها . وكان من هذا النفر أمين من أمناء متحف التاريخ الطبيعي بنيويورك ، فأعجبته القردة الطفلة ، فشاء أن يختص بها ويتبناها على قدر ما تسمح أبوة مثله ببنوة مثلها . فأسماها « ميمي » ، وحملها معه حيثما تنقل معسكره في تلك البقاع الحارة ، وأبى عليه كرمه والعهد الذي اتخذه أن يضع في يد « ميمي » كبلا أو يقيم دونها حاجزا ، وكانت هي قد آنست من أبيها الجديد رفقاً وكرما وأمومة يقدرها الصغار في ضعفهم وقلة حيلتهم ، فلم تحاول أن تهرب من المعسكر مرة واحدة . ومضت سنة أو بعضها ، ورجع الأمين عبر المحيط الى بلده وأخذ صاحبته معه ، ودخل منزله الريفي في ضاحية من ضواحي نيويورك العظيمة ، فلقيته زوجه وأولاده ، فسروا بالوافد والوافدة الضيفة وأكرموا مثواها .

واليوم ميمي في منتصف عامها الخامس تزن ٤٦ رطلا ولا تزال تحتفظ بالشيء الكثير من مظاهر الطفولة وبجميع أسنانها الرواضع ، وزادت الى هذه أضراسها الطواحن ، بدأتها في السنة الثالثة ، وكانت وهي طفلة تحتضن كل من تلقى من معارفها ، أما الآن فهي ترغب عن ذلك كثيرا وتطلب الاستقلال وتود أن تسير وحدها وتتفقد ما حولها بنفسها ، وتختبر الأشياء بيدها وعينها ، الا ان هواها لا يستقر طويلا على شيء واحد . وقد استقام عودها واعتدل قوامها وزادت خطاها ثباتا واتزانا . وكان شعرها يطول الى جانبي رأسها حتى ليهبط دون ذقنها . أما الآن فقد قصر قصراً كبيراً . وكان جلد يديها ورجليها ووجهها قاتما فأخذ يتبقع بالسواد ، وكانت صورتها الشمسية تخرج بيضاء وهي تخرج اليوم سوداء .

ومهما كان التغير في جسمها كبيرا فان التغير في عقلها وادراكها أكبر ، فهي تستطيع الآن ان تسلي أصدقاءها بما تصنع ، وتحبسهم اليها الساعة والساعتين وهم مغتبطون ، وهي كذلك مغتبطة ، كأنها تحس أنها بذلك تقيم الدليل على ان معشر الشمبانزي لهم من الفطرة والذكاء حظ لا يقصر كثيرا عن حظ الانسان منها .

كانت في أفريقيا لا تعرف القيد ، ولكن بارتحالها عن تلك الأراضي الواسعة الطلقة ، وبنزولها في باحة المدنية كثيرة الحدود ، كثيرة الفروض ، كثيرة القيود أصبح لا بد من القيد . فكان في أول الأمر من الكتان ، ولكن التجربة دلت على قلة غنائه لأن ميمي كانت تطلق نفسها منه بالشد والعض ، فأبدل بسلسلة من الحديد من سلاسل الكلاب المعروفة وهذه لم تكن بأكثر كفاية ، فما لبثت ميمي أن فطنت الى أن الشد الأقوى يفتح حلقاتها . فزاد سيدها الحديد سمكا . فاتجه نظر صاحبتنا الى الطوق ، وكان تارة من حبل معقود وتارة من جلد مشدود ، أما الحبل فقد عرفت بالمران كيف ترخي عقده ثم تتبع ذلك بعضه حتى ينقطع ، وأما الجلد فعرفت بالتجربة المبتدهة أن الريق يلينه فكانت تبله وتشده وتمططه حتى يتسع فتخرج رأسها منه .

وأفادها ذلك التفنن في حل العقد حتى برعت في أساليبه . ربطوها الى حبل طويل ، وربطوا الحبل الى سارية وعقدوه عندها عقدا كثيرة ، ثم أطالوه بعد السارية الى حيث لا يهتدى الى طرفه الآخر . نظرت الى العقدة الأولى في تأمل ولم تلبث أن هجمت عليها بأسنانها ويديها فأوسعتها سعة كبيرة ثم نفذت بجسمها منها رويداً رويداً . وأخذت تنظر الى العقدة الثانية في تأمل جديد لم يطل كثيراً وفعلت بها كفعلتها الأولى ، وهكذا حتى انحلت العقد جميعها عن السارية . ولما أعادوا عقد الحبل حول السارية أعادت ميمي حله في نصف دقيقة وهي في غبطة من ذلك كبيرة وسرورٌ بَيِّن ، والنظارة في مثل سرورها وغبطتها .

وحاولت مرارا ان تعقد عقدة في حبل بنفسها ، ونجحت في ذلك مرات ، الا أن طريقتها الى ذلك كان يعوزها التهذيب فقد كان فيها التواء وتنكب عن المقصد الأمَم والغرض القريب . فكانت في ذلك كالطفل الانساني يبلغ ما يريد ولكن في قليل من الرشاقة واللباقة .

وميمي على صغرها قوية شديدة ، فأنثى الشمبانزي عند استكمال نمائها تعدل في القوة

من الرجال الأشداء الثلاثة والأربعة. وصاحبتنا بلغت الثلث من نمائها الكامل ، وفى أذرعها دقة ، وفى طباعها رفق . قد يخدعانك فى تقدير قوتها. جاء الشتاء فاحتبسوها فى صندوق من الخشب المتين فأخذت تهز حيطانه فى طلب الرياضة لبدنها ، وأعجبها صوته على أرض البدروم فزادت فى هزه بكل حولها ، فكان لابد من تعزيز جوانبه ، فلما لم ينفع ذلك علقوا الصندوق من السقف بسلسلة فأخذت تؤرجحه حتى دنا من مصباح الكهرباء المعلق فأخذت به ، فكان لابد من استدعاء الكهربائى لنقل موضعه. ونظرت فأبصرت عداد الغاز فزادت فى التأرجح حتى بلغت الحائط وأمسكت بالخزان فخلعته على متانته وثنت الانبوب ، وكان الى جانبه نار موقدة فحالت العناية دون انثقابه . ولما أعجزتها حوائط الصندوق أخذت تدفع سقفه حتى انفتح ففرت منه . وأرادت ربة الدار أن تتلفن الى زوجها ولكن ميمى كانت قد عمدت الى التلفون فانتزعت أسلاكه ، وجاءت الى سيدتها تحتضنها اغتباطا وشكرا على انفكاكها . وذهبت الى المطبخ فوجدت الخادم تغسل الصحون فأرادت عونها وتنقلت بينها برفق غريب فلم ينكسر منها شيء. وكان التليفون أثناء ذلك قد أصلح فجاء رب البيت أمين المتحف على عجل فخطب رضاء ميمى وأطعمها ألوانا مستطابة رضيت بعدها ان تنقاد وتتقيد بعد انطلاق.

وكان لرب الدار أطفال . وكانت لهم دراجات من ذات العجلات الثلاث يركبونها فى ساحة البيت ، فكانت ميمى تركب مع أحدهم وتمسك بمقابض الدراجة فتوجهها يمنة ويسرة. وأرادت أن تركب الدراجة وحدها ولكن قصرت رجلاها عن بلوغ مواطىء الأقدام منها ، فاشترى لها رب الدار دراجة على قدها وأجلسها عليها فأمسكت مقابضها بيديها وأمسكت كذلك مواطئها برجليها ، وهما كاليدين يقبضان على الأشياء ، ولكنها لم تدر فى بادىء الأمر كيف تدفع الدراجة بضغط موطىء واحد دون الآخر فى الآن الواحد ، ولكنها بالمران اليسير عرفت ذلك . وكانت تنسى فترفع قدميها الى المقبضين فكان لا بد من ربطهما الى الموطئين ، ولكنها عافت ذلك فكانت تهوى باليد اليهما لتحل الرباط فيصيح بها رب الدار عاتبا فتقلع . وأراد أن يعودها الاستقامة فى السير ، فكان يحمل فى يده خوخة أو عنبة أو طعاما تراه مختارا ويقف به بعيدا ثم يلوح لها به وهى على الدراجة . فكانت فى بادىء الأمر تنزل عنها فيعتب عليها فتعود الى الركوب ، وكان همها أن تصل الى الفاكهة من أقرب طريق فاستقام سيرها وكذلك طال . وأراد أن يعلمها كيف تنعطف فكان يلوح لها بالثمرة حتى اذا قاربته انزاح يمينا فتمر بدراجتها فى استقامة الى جانبه فلا تنال الثمرة فتصرخ وتدمدم لهذا الخداع ، ولم تفطن الى تحريك المقابض الى اليمين ، فأتى بابنه يحركهما لها فعرفت ذلك ، وحرصت على القوت الشهى المغرى فتعلمت كيف تميل.

وكانت أحيانا يفوتها أن تنعطف فتصل بدراجتها الى مأزق كحائط أو ركن فتمد رجلها تدفع الحائط فتبعد عنها قليلا ، ثم تسير الدراجة الى الامام وهى تنعطف حتى تصل الى موضع أخلص من الحائط ، فتدفعها مرة أخرى فتبعد عنها وهكذا حتى تخلص من المأزق تماما وقد نفد صبرها . ولكنها تعلمت أن تنزل عن الدراجة فتحملها الى الخلاص ، فكانت تفعل ذلك فى سرعة البرق كلما تأزقت وهى غاضبة .

وكان يجتمع أطفال الجيران على دراجاتهم ويسيرون بها فى الطريق صفا يحملون الاعلام ويزأطون ويفرحون ، فتتقدمهم ميمى على دراجتها تتعرف لهم المسالك وهى مثلهم زائطة فرحة مغتبطة حتى لتحسبها منهم لولا مظهرها .

وكان أمين المتحف يصطحبها معه الى مقر عمله فى سيارته فكانت تتشبث باصطحاب دراجتها فلا تنزل عند باب المتحف حتى تخف اليها فتركبها داخل المتحف . وكان من غرائبها كلما وصلت الى طبق الحديد الذى يغطى انابيب المجارى بأرض المتحف تترجل حتما وتجر دراجتها عليه ثم تركبها بعد تخطيه مع انه فى استواء الأرض لايحسه الراكب . وظهر منها هذا الشذوذ عينه لما سارت فى الطابق الأعلى فانها كانت صادفت فى بلاط الأرض صفا أسود تخطته راجلة .

وكانت تأكل مع صاحبها فى مطعم المتحف ظهرا فتسير اليه بالدراجة وتذهب الى مكانها دون تلكع فيهيجها صوت الآكلين وقرع الصحون وشميم الاطبخة فتصرخ فيبتهج لصراخها أصدقاؤها الكثيرون من حولها . وتدور بعينيها تطلب حاملات الطعام فاذا بصرت بهن هزت جسمها سرورا وتلقفت بالرضاء فاذا استقر الطعام أمامها رفعت شوكة أو ملعقة من ذات نفسها ، وقد تخطىء فترفعها بيسارها فتنقلها الى يمينها ولكن بعد امساكها بفمها . وهى تأكل البسائط ، فتأكل الخبز والزبد واللبن والبطاطس والسبانخ والفول الأخضر والخس والطماطم والفواكه وشيئا من اللحم أحيانا ، واختصارا كل ماكان يأكله الناس . وهى تحب الحلوى كائنة ما كانت ساخنة أو مثلوجة واذا انتهت من الطعام بسطت منديلها فمسحت به وجهها .

وتشرفت ميمى بدعوة من رئيس المتحف الأمريكى العام للتاريخ الطبيعى فى وليمة رسمية كبرى . فذهبت فى سيارة الى بؤرة المدينة لأول مرة . فاخترقت الطرقات العظيمة على أضوائها الشديدة وزينات مسارحها الباهرة ، فى جو ملىء بنغم الاوتار ونفخ المزمار وأدخنة السجائر والسيجار وأبواق السيارات وضجيج الحجيج من أهل اللباس الأنيق والزى الرشيق والذوق الرفيع . فأهاجت ميمى كل تلك المظاهر لاشك ، ولكنها صمتت كأنما تفكر فى موطنها الأفريقى . وجاء أوان النزول من السيارة فخفت ميمى الى دراجتها وسارت بها عبر البهو الى قاعة الطعام الكبرى فاتخذت مجلسها بين الضيوف ، وجاءتها الصحفة بعد الصحفة ، فأكلت بأدب من كل لون . وجاء دور الكلام فأصغت كأنها تستمع للخطباء فلم تنبس بكلمة ولم تطرف بعين الا عندما جاء المصورون يصورونها على ضوء المغنسيوم فانها أخذت تطرف لكل صورة حتى استتموا عشرا . وانتصف الليل فانفض الجمع وهم معجبون بميمي . وقال قائل منهم ما الى هذا الحد يبلغ الأطفال من الأدب والكمال .

١٩٣٤



يقدمها : طلعت الشايب

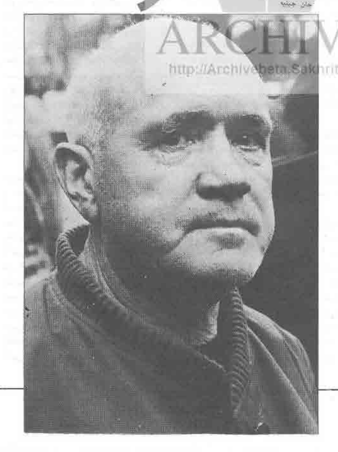
سيمون دي بوفوار ١٩٠٨ - ١٩٨٦

جان جينيه ١٩١٠ - ١٩٨٦

إنها نهاية مرحلة

ـ جاك شيراك

جان جينيه



• أثناء الشهور الأخيرة من عام ١٩٤٤ في فترة الاحتلال الألماني لفرنسا التقى ذلك الشاب الذي أصبح فيما بعد أشهر فلاسفة فرنسا المعاصرين وأكثرهم إثارة للجدل ، وتلك المرأة التي أصبحت فيما بعد أشهر رائدات الحركة النسائية ، وذلك المجرم المحترف الذي أصبح فيما بعد ـ أيضاً ـ واحداً من أشهر كتاب المسرح في لقاء يصفه سارتر بأنه « كان ودياً » .

وفي يوم ١٤ ابريل ١٩٨٦ (قبل يوم واحد من الذكرى السادسة لوفاة (سارتر) ماتت سيمون دي بوفوار (٧٨ سنة) في إحدى مستشفيات باريس أثر صراع مع أمراض الدورة الدموية ، وفي اليوم التالي مات جان جينيه (٧٥ سنة) في أحد فنادق باريس ـ حيث كان يعيش منذ عدة سنوات ـ على أثر سرطان الحنجرة .

• سيمون دي بوفوار سليلة البرجوازية الفرنسية ، كان والدها محامياً علمانيا ولكن أمها أصرت على تربيتها تربية دينية ولكنها أصرت بعد ذلك على دراسة الفلسفة بدلا من التخصص فى الدراسات الدينية .

جان جينيه ابن غير شرعي ، تربى في أحد ملاجىء الدولة ثم أرسل ليعيش مع أسرة في وسط فرنسا ، أصبح خادماً لأحد الكهنة في

كنيسة وكان الكاهن يعتقد أن لديه طبيعة دينية ، اتهمته أمه بالتبني بالسرقة ... يقول سارتر : « في العاشرة من عمره تعرض ذلك الطفل الهادىء المطيع لتجربة رسمت مسار حياته كلها ، فقد اتهم بالسرقة ، ولقسوة إحساسه بالظلم « قرر أن يصبح لصاً » . من جنحة إلى أخرى انتهى به الأمر إلى إصلاحية للأحداث بقي فيها حتى سن ٢١ .

التحق بالجيش ولكنه ترك الخدمة بعد أيام قليلة ولم ينس أن يحمل معه حقائب بعض الضباط قبل أن يهرب .

ـ « كنت أحب السرقة » .

ـ « كان لابد أن أصبح كل ما يريدون ... لصاً .. جباناً .. خائناً ... شاذاً ... أي شيء » .

ـ « عندما تخلت عني أسرتي كان من الطبيعي أن أعمق في نفسي حب السرقة » .

ـ « لقد تبرأت من عالم أنكرني وتبرأ مني » .

جان جينيه ـ « مذكرات لص » ـ ١٩٤٩ ـ

• كان عمر سيمون دي بوفوار ٢١ سنة ، وكان سارتر في الرابعة والعشرين عندما جمعت بينهما الدراسة في السوربون عام ١٩٢٩ وبدأ الحوار الفكري بين طالب وطالبة الفلسفة .

« كانت المرة الأولى في حياتي التي أشعر أنني التقي بإنسان أشعر أمامه بالضآلة » سيمون دي بوفوار .

ورغم أنها أعلنت وهي في التاسعة عشرة من عمرها أنها لا تريد لحياتها « أن تتبع إرادة أي شخص آخر » فقد قضت الجزء الأكبر من حياتها رفيقة قريبة منه وإلى أن مات في ١٩٨٠/٤/١٥ كانا يلتقيان يومياً كما يقضيان إجازتهما السنوية معاً (٦ أسابيع) في روما كل عام .

• قضى جان جينيه معظم عشريناته في السجون متهما بالسرقة والانحراف الأخلاقي وفي الفترة الممتدة من ١٩٤٠ إلى ١٩٤٨ أثناء سجنه كتب « المحكوم بالإعدام » ١٩٤٢ ، « سيدة الأزهار » ١٩٤٤ ، « معجزة الوردة » ١٩٤٥ ، « طقوس جنائزية » ، « خصومة في مدينة بريست » ـ ١٩٤٧ ـ أما « سيدة الزهور » فتحكي عن منحرف شاذ وقد طالب الناقد الشهير بول فاليري بحرقها وعارضه كثيرون .

وبعد أن تعددت قضاياه صدر ضده حكم بالسجن المؤبد مرة أخرى عام ١٩٤٨ وتدخل سارتر وأندريه جيد وبول كلوديل وجين كوكتو وآخرون من رجال الأدب وقدموا عريضة احتجاج ضد الحكم وحصلوا له على عفو رئاسي .

ـ « هناك أناس كثيرون ـ وأنا واحد منهم ـ يحبون أن يكونوا داخل السجون ، فالإنسان يحتقر الواقع الاجتماعي في حالته الراهنة » .

ـ « العنف والحياة مترادفان تقريباً . فحبة القمح التي تنبت وتشق الأرض الصلبة ، وخصوبة المرأة وميلاد الطفل جميعها أمور ترفع تهمة العنف فلا يتهم أحد الطفل ولا المرأة » ـ جان جينيه .

• كان سارتر قد أصبح مشهوراً كزعيم للفلسفة الوجودية ومتحدثاً رسمياً باسم المدرسة الجديدة (الوجود والعدم ـ ١٩٤٣) ولم تكن سيمون أقل شهرة ، فقد حصلت هي الأخرى على جائزة جونكور من أجل روايتها « رجال الفكر » أو « المثقفون » أو « الصفوة » كما ترجمها البعض ـ ١٩٥٤ ـ والتي قدمت فيها مسحاً شاملاً للحياة الأدبية الباريسية ورأى فيها النقاد صوراً تنكرية ترمز إلى شخصيات مثل سارتر وكامو وغيرهم ، كما روت فيها أيضاً ذكرياتها عن علاقتها بروائي من شيكاغو « نيلسون آلجرن » وهو الذي أهدت الكتاب إليه .

« الجنس الآخر » ١٩٤٩ كما ترجمه البعض أو « الجنس الثاني » كما يجب أن يكون الاسم ... مزيد من الشهرة لسيمون دي بوفوار فالكتاب هو أحد دعامات الحركة النسائية الحديثة وقد ترجم إلى ١٩ لغة وكانت تعتبره أفضل أعمالها . لم تكتف فيه بالقول بأن المرأة تعيش احباطاً مستمراً ... فالمجتمع هو الذي يحدد هويتها ووضعيتها فيه ..

ـ « المرأة لاتولد ... ولكنها تصبح كذلك » .

ـ « ليس هناك قدر بيولوجي أو نفسي أو اقتصادي يقرر الشكل الذي تمثله المرأة في



سيمون دي بوفوار في شبابها ... وفي السنوات الأخيرة من حياتها



المجتمع . إنها الحضارة ككل هي التي تنتج ذلك المخلوق والذي نطلق عليه اسم الأنثى » سيمون دي بوفوار .

• في عام ١٩٤٤ طلب جان جينيه من سارتر أن يكتب مقدمة لواحدة من رواياته فاستجاب له وكتب مولفاً ضخماً عن « جينيه » ـ١٩٥٢ ـ قال فيه إن رواياته عن المجرمين والمنحرفين أخلاقيا تعكس « شراً كبيراً » و« أخلاقاً سوداء » وجن جنون الكاتب ... ويتذكر سارتر ... « أعطيته مخطوطة الكتاب .. حملها وذهب إلى المدفأة وألقى ببعض الأوراق في النار بعد أن مزقها » أصيب جان جينيه باكتئاب واحباط شديدين فتوقف عن الكتابة لمدة خمس سنوات .

ـ « عالمه الفني ملىء بالمتهمين والمجرمين والشواذ واللصوص . ورغم عنف موضوعاته إلا أنها تحوي شعراً جميلاً وحساسية فائقة ولغة غاية في الرشاقة .

مع كل كتاب له فإن ذلك الرجل الممسوس يصبح أكثر قدرة على السيطرة على ذلك الشيطان الذي يتلبسه » ـ سارتر .

• من أشهر الأعمال غير الروائية وأهمها لسيمون دي بوفوار مذكراتها التي نشرتها في ٤ كتب هي بالترتيب :

• « مذكرات فتاة رصينة » أو « مذكرات ابنة بارة » في ترجمة أخرى ـ١٩٥٨ ـ.

• « عنفوان الشباب » أو « قوة العمر » ـ١٩٦٠ ـ.

• « قوة الأشياء » ـ١٩٦٣ ـ.

• « موت مريح جداً » ـ١٩٦٦ ـ وهي جميعاً من أفضل أعمالها إلى جانب « رجال الفكر » و « الجنس الثاني » .

• في الستينات ساهمت سيمون دي بوفوار بنشاط بارز في جميع القضايا الاجتماعية والسياسية ـ التي تدعم أفكارها ـ ودعمتها بأفكارها فأدانت بعنف الاستعمار الفرنسي للجزائر ودافعت عن حق الجزائريين في المقاومة والاستقلال كما أدانت الدور الأمريكي في فيتنام .

وعندما بدأت حركة المرأة في فرنسا رسمياً عام ١٩٧٠ انضمت إليها وتحمست لها . وعندما عقدت محكمة لادانة « الجرائم التي ترتكب ضد المرأة » كانت إحدى المنظمات لها .

أما بالنسبة لأمريكا فلم يتغير موقفها بمرور الزمن ... « إن الولايات المتحدة لن تتورع عن سحق أي حركة شعبية أو وطنية في اللحظة التي تشعر فيها بأنها تهدد مصالحها » هكذا كتبت في أوائل السبعينات وعندما كان البعض يتوقع انهيار الولايات المتحدة كتبت تقول : « ولكن هذا الانهيار قد يسبب ثورة عالمية .. ولست أدري هل سيمتد بي العمر حتى أرى ذلك اليوم أم لا . » .

• في السبعينات تذبذبت المواقف العامة لسارتر وسيمون دي بوفوار ... رفضا الدفاع عن القضية الفلسطينية ورفضا أن يفهماها ... أما سارتر فمنذ عام ١٩٤٦ وهو عضو عامل في منظمة الجامعة الفرنسية من أجل فلسطين الحرة وكان من أوائل من باركوا مبادرة الرئيس السادات فكتب يبررها في اللوموند وسافر إلى اسرائيل ليحث عليها ويدفعها ...

أما سيمون دي بوفوار فلن ينسى لها العرب أنها أصدرت نداء لمناصرة اسرائيل أثناء حرب اكتوبر واستصرخت ضمير العالم أن يقف مع شعب الله المختار ويمنع إبادته على يد العرب .

وعندما أصبح كلود لانزمان هو المسيطر على مجلة « الأزمنة الحديثة » بعد أن تقدم سارتر في السن عمق ذلك الصهيوني الأصيل عداءها للعرب وتعاطفها مع اسرائيل وكانت صدمة المثقفين العرب فيها كبيرة .. !

• عندما عاد جان جينيه إلى الكتابة كانت العودة إلى المسرح .... فكان أحد أربعة قام على أكتافهم في الخمسينات « مسرح العبث » وهم « يوجين يونسكو » « وصمويل بيكيت » وآرتور آداموف » .. لغة متوحشة وخيال أكثر عنفاً وقسوة ... وفي عام ١٩٨٣ حصل على جائزة فرنسا الكبرى في الأدب ورغم أن كتاباته في العقد الأخير كانت قليلة إلا أنه كان باستمرار حاقداً على المسرح الفرنسي .



جان جينيه في تظاهرة من أجل فلسطين

الفلسطينيون على حق
لأني أحبهم
« جان جينيه »



سيمون دي بوفوار عندما كتبت «المرأة العجوز»



دي بوفوار مع الوزيرة الفرنسية السابقة لشؤون المرأة ايفيت رودي وعدد من السيدات

• في العام الماضي ــ ١٩٨٥ ــ قدم الكوميدي فرانسيز أعمالاً له. آخر مسرحياته هي «الستائر» ١٩٦١ وهي تدور في اطار الحرب الجزائرية من أجل الاستقلال.. «في أحد المشاهد البالغة السخرية يقدم جنوداً فرنسيين يديرون أقفيتهم في اتجاه وجه قائدهم الذي قتل في إحدى المعارك ويهزلون قائلين.... ليشم قليلاً من هواء فرنسا».

• في الستينات اكتشفت سيمون دي بوفوار فقر ومذلة كبر السن بالنسبة لها وبالنسبة للآخرين «كبر السن وليس الموت هو الذي يجب أن يقارن بالحياة» هكذا كتبت في كتاب لها عن الشيخوخة «المرأة العجوز» ــ ١٩٧٠.

«كبر السن هو محاكاة ساخرة للحياة... بينما الموت هو الذي يحول الحياة إلى مصير» وعندما حول الموت حياة سارتر إلى مصير عام ١٩٨٠ كتبت تقول «موته لا يفرق بيننا، وموتي لن يجمعني به مرة أخرى... هكذا الأمور».

• تحول جان جينيه من الكتابة (الرواية والمسرحية والشعر) إلى مناصرة قضايا متعددة كانت بالترتيب: النمور السوداء في أمريكا، السجناء والعمال المهاجرين، ثم القضية الفلسطينية.

في نهاية عام ١٩٧٠ ذهب إلى الأردن وعاش بين الفدائيين لمدة ٦ أشهر في القواعد والمخيمات أعلن بعدها «لقد غيرتني الثورة الفلسطينية ومن ثم فقد أصبحت ثورياً».

وبعد مذبحة صبرا وشاتيلا الشهيرة زار بيروت وبعد ساعات من التجول في المخيمين كتب شهادة هي وثيقة أدبية وسياسية تدين العدوان الآثم وهي من أروع الأعمال التي كتبت عن تلك الجريمة الرهيبة. «الفلسطينيون على حق لأنني أحبهم».

«شعرت بأنني قد أصبحت فلسطينيا وبأنني أحقد على اسرائيل» جان جينيه.

• في ١٩٨١ أصدرت سيمون دي بوفوار آخر أعمالها «وداعاً سارتر» وهو ملخص لحياته في أواخر أيامه وفيه كشفت تفاصيل كثيرة وعيوباً شخصية مما أثار عليها ضجة كبيرة من أولئك الذين كانوا ينتظرون منها أن تضع باقة من الزهور على ضريحه في ذكراه، ولكنها رفضت جميع الانتقادات ورفضت أن تحيي ذلك التقليد الهندي القديم بأن تموت إلى جواره.

ــ «لقد كان رجلاً حقيقياً يعرف كيف ينتمي إلى الحقيقة وكيف يبحث عنها وعندما وضعت كتابي كنت واثقة أن هذا أفضل ما يمكن أن يقدم لرجل لا يزال حياً».

ــ «كشفت عن سارتر الجانب الذي كان الناس يريدون أن يعرفوه. فلسفته ليست تعبيراً امبراطورياً عن أفكار تجول في وجدان الشخص. إنها الدخول إلى أعماق الناس».

ــ «لقد قلت أكثر من مرة إن هذا الكتاب هو من أجل سارتر وليس عنه.

لقد حاولت أن أضيء بعض المشاهد غير المعروفة في حياته لكي أظهر كيف أن الارتجاج هو انعكاس جزئي لزلزال يتشكل داخل عقل الفيلسوف».

• عندما مات جان جينيه كان يراجع البروفات النهائية لآخر أعماله وهي رواية بعنوان «السجين العاشق» والتي نشرتها بعد موته دار نشر جاليمار بباريس.

• (سارتر ١٩٠٥ ــ ١٩٨٠) سيمون دي بوفوار (١٩٠٨ ــ ١٩٨٦) (جان جينيه ١٩١٠ ــ ١٩٨٦) برحيل صاحبة «الجنس الثاني» وصاحب «سيدة الأزهار» انتهت مرحلة «مالرو» و«مورياك» و«مونترلان» و«كامو» و«أراجون» و«سارتر» لينسدل الستار.

طلعت الشايب

حوار مع الشاعر
فاروق شوشة

عرفته ..

صوتاً ، يغرس النخيل ، البحر ، العصافير ، مواقد الحنين ، وأشرعة التوق ، مواسم الدفء ، وليال « كان الشجر ، الساجي في عينيها يبكي « يغرسها في قلبي الصغير ، فينتفض مهاجراً وراء « حلم أثقل الجفون » ..

و.. عرفته

شاعراً ، تحمل معه « التذكار والأمس الذي فاتا » ، وكنا « قد ظننا الشوق جاوزنا ، وانداح عنا » ، نطوي قلوبنا معه على رجاء ذابل « لو يسعف النهار » ، لكنها « اللفظة التي تموت دون أن تمسها شفه » ..

و.. « فاروق » كما قال عنه رجاء النقاش :

« فاروق شوشة واحد من ألمع شعراء المدرسة الجديدة ، مدرسة الشعر الحر. وهذه المدرسة في جوهرها مدرسة واقعية ، أي أنها تستمد نبضها الفني من المعاناة الفعلية للحياة وليس من الخيالات والأوهام والأحاسيس الغامضة ، وهذه الواقعية كانت ــ وما تزال ــ ميزة جوهرية للشعر الجديد . ولكنها في نفس الوقت كانت مأزقاً لهذا الشعر. فقد انساق الكثيرون من شعراء هذه المدرسة مع احساسهم الواقعي الى الحد الذي فقدت فيه القصيدة عندهم كثيراً مما يحتاج إليه الشعر ليصبح شعراً . فقد جفت ألفاظهم وامتلأت صورهم بالخشونة وضعف فيهم الاحساس الموسيقي ، وأصبحت القصيدة في حالات كثيرة نوعاً من الأدب النثري البارد . وهنا يبرز دور فاروق شوشة وأمثاله من كبار الموهوبين في المدرسة الجديدة ، لقد استطاع فاروق شوشة أن يكون جديداً وواقعياً ، وأن يحتفظ لشعره في نفس الوقت بعذوبته وموسيقاه وغنائيته ومادته الفنية الخاصة واستقلاله عن غيره من الأصوات الشعرية الأخرى ، ويعود ذلك الى أصالة الموهبة عند فاروق ، والى أسباب أخرى هامة منها أنه وثيق الصلة بالتراث

■ قريتي اسمها "الشعراء".. وهذا هو سبب التسمية

■ كم من المبدعين أحببتهم قارئاً وندمت على معرفتهم أشخاصاً !

■ أنا لم أضف إلى الشعر.. الشعر هو الذي أضاف لي

■ التوجه الإعلامي المصاحب في الشعر العربي أفسد الكثير من وظائفه الفنية

■ سطور من رسائل محمود حسن إسماعيل الخاصة

الشاعر فاروق شوشه

رسالة القاهرة تكتبها سارة

الشعري العربي ، ولو لم يكن فاروق شوشة شاعراً كبيراً لكان واحداً من أبرز الرواة للشعر العربي والدارسين له والعارفين بأسراره الفنية . ومن هذه الأسباب أيضاً أن فاروق لديه حاسة نقدية .. معاصرة ونادرة معاً . ومن خلال هذه الحاسة النقدية استطاع أن يجيب ــ داخل نفسه ــ عن سؤال أساسي هو : ماذا تعني كلمة الشعر؟ ... ولأن فاروق استطاع أن يجيب عن هذا السؤال ، عرف كيف يحفظ لقصيدته روحها الشعرية الحقيقية ، فلا تخرج أبداً عن ميدان الشعر لتصبح خطبة أو مقالاً أو شعاراً أو لغزاً غامضاً أو تقريراً جافاً عن حادثة شخصية . إنه يعرف الحدود الفاصلة بين دولة الشعر وغيرها من الدول على خريطة العالم الأدبي . وهو لا يتجاوز الحدود الشعرية أبداً ، لأنه لو تجاوزها لأصبح شاعراً بلا جنسية ، مثل الكثيرين من الذين يتجاوزون هذه الحدود ، بحجة أنهم يملكون باسبوراً اسمه « الشعر الجديد » أو « الحداثة » أو ما إلى ذلك ، وهذا الباسبور يبيح لهم التحرك خارج الحدود فيخلطون الشعر بالدراسة والبحث والشكوى الخاصة ودساتير الأحزاب السياسية وأرقام الحساب ورموز الجبر والهندسة . ولا يدرك هؤلاء أن الباسبور الذي يحملونه هو باسبور مزيف ، وأن من حق السلطات الأدبية القبض على أصحابه بتهمة التزوير في أوراق فنية .

ولأن فاروق صاحب صوت من أجمل الأصوات الإذاعية التي عرفها الوطن العربي وأصدقها وأقربها إلى القلب فقد عرف من خلال هذه الموهبة ما تمتلىء به الكلمة العربية من كنوز في الايقاع والموسيقى ، ولم يهدر هذه الكنوز في شعره لأنه يعرفها ويتذوقها على أحسن وجه ... والخلاصة أن فاروق شوشة شاعر كبير والقول فيه يطول ، ولا أريد أن أصادر حديثك مع فاروق لأتحدث أنا ... فذلك مني عدوان على الحدود ... وأنا أطالب بالتزام الحدود !

« فاروق » أيضاً كما وصفه الشاعر أبوسنه « فيض من العذوبة والغنائية يتدفق في شعره ، يستلهم قلبه ، ويطلعنا على صورة لا تتكرر للحب السعيد في عصر كثرت فيه الأحزان ، وهو من أندر الرجال في زماننا الذين يمتلكون الفهم والحب والخلق » .

و.. لأن الكلمة الندية صدفة العشاق ، ودثار الرغبة ، فقد استمالت كلماته أرجوحة أشواق : « لو تمطرني عيناك بألف سحابة شوق ، وأنا كعابد في المحراب بقايا توق ، برغم ابتعادك عني ، أنادي ، برغم اقترابك مني ، أنادي ، وأعلم أنك فيّ ، وأن طريقي إليك يؤدي إليّ » .

فاروق .. يتذكر ..

• في بيت وسط الحقول ولدت ، فانتفى إحساسي بالبناء والجدران ، كان هناك الخلاء ، الخضرة والسماء ، قطعة أرض صغيرة أزرعها ، وشجرة زيتون صنعت فيها بيتاً من الأسلاك والقش ، كانت مأواي خلال المراحل الأولى من الدراسة ، وخلال اكتشافاتي لما يستحق أن يقرأ .

• والدي معلم ابتدائي ، في صيف عام ١٩٤٨ اجتاح وباء الكوليرا مصر ، منعت من الخروج من البيت شهوراً ثلاثة ، اكتشفت فيها مكتبة بيتنا المتواضعة التي تضم أعداداً ضخمة من مجلتيْ الرسالة والرواية والشوقيات ، بدأت التقليب فيها بدافع الفضول ، ثم سقطت في أسر الكلمات .

• وأنا مدين للغة القرآن بأمرين أحدهما : أن كثيراً من كلمات المعجم القرآني التي ترددت بعد ذلك في الاطار المدرسي أو الثقافي العام أصبحت مألوفة ، وربما كانت مدخلاً لتذوقي الشعر الجاهلي ، وأن جهازي الصوتي تدرب منذ وقت مبكر على أن أي كلمة لم تشكل عائقاً في النطق أو الإعراب أو الضبط الصوتي والأدائي .

• خلال ليالي رمضان كنت أسمع في مقاهي القرية شعراء الربابة يرددون السير الشعبية . ويبدو أن هذا التأثر الأول هو الذي قادني إلى قراءات مبكرة في السير الشعبية ، والبحث عن أصولها عندما انتقلنا إلى دمياط ، ومن سيرة عنترة وديوانه تعلقت بالشعر الجاهلي وعصره ، عصر الحرية الكاملة للإنسان والشاعر العربي ، عصر الانتماء للقبيلة والتمرد عليها ، عصر الإحساس بملكية العالم والكون والانسحاق أمام خشيته ، والإحساس بأن الحياة هشة ، تتحول إلى أطلال ، وأن الانسان يتمنى لو كان حجراً ثابتاً ليبقى ، لذلك ليس غريباً أن أدرس اليوم لطلبة الجامعة الأمريكية الأدب العربي القديم .

• يرجع اسم قريتي « الشعراء » إلى فترة الحروب الصليبية ، كانت دمياط ميناء رئيسياً ومدخلاً لجيوش الفرنجة ، وفي موقع قريتي كان يعسكر شعراء الربابة لإثارة حماسة الجنود .

• أنا مدين لأول قصة عاطفية في القرية . كانت استحضاراً لهدف بشري جميل هو الصوت الآخر الذي يضيق عالم القرية على ان يوفره لي ، هذا الصوت دفعني للانشغال بفكرة أن تحققي شعرياً من شأنه أن يوصل هذا الخفق المتوهج لمن أحببتها ، لذلك طبعت ــ في المرحلة الثانوية ــ مسرحية على نفقة المدرسة ، لا لأنها مسرحية ، ولكن لأضمن الكتاب خمس قصائد مكتوبة إلى الحبيبة ، وأهدي أباها العمدة نسخة من هذا المطبوع ، هذه التجربة كانت البداية التي جعلتني أربط بين الكلمة الشعرية والإنسان ، لم يكن الشعر ــ عندي ــ مرادفاً لتجارب متخيلة أو بحثاً عن نموذج بشري غير متحقق .

• تعرفت ــ في مرحلة الجامعة ــ بمجموعة من الزملاء الذين كانوا يمثلون بواكير التفتح نحو حساسية جديدة في المعايير الثقافية والأدبية ، منهم د. عبدالمحسن طه بدر ، ورجاء النقاش ، كان جيلنا يموج بفكرة اكتشاف البعد القومي للوجود وللثقافة المصرية ، وفكرة الوجه العربي لمصر ، ولعبت روابط الطلبة العرب دوراً كبيراً في صقل وجداننا ، وأعتقد أن ذلك المناخ الذي عشته طوال سنوات الجامعة منشغلاً حتى النخاع بذلك المد العربي أضاف لاهتماماتي الشعرية والأدبية بعداً أساسياً في الثقافة السياسية والاجتماعية والاقتصادية ، التي وإن كان لها تأثيرها الايجابي من حيث الوعي العميق بمشكلات الانسان العربي ، إلا أنها كانت مقيدة لقدرة المبدع على الاسترسال في تشربه الوجداني الحميم للأشياء دون تفلسف أو



تنظير أو منهجية .

• في الخمسينات كانت تتشكل وتتخلق الملامح الأولى للقصيدة الجديدة ، وكنت أحس أن ثمة وتراً داخلياً ينبهني دوماً إلى فكرة التشكيل والاحساس العربي للقصيدة ، ليس معنى هذا الالتفات إلى القيم الكلاسيكية ، ولكن إلى فكرة عروبة القصيدة .

• أهم التجارب وأعمقها كانت مع بدء عملي في الإذاعة ، تجدين اهتزازاتها في ديوان « إلى مسافرة » و « لؤلؤة في القلب » . و « العيون المحترقة » . كانت راداراً حساساً يتوقف عندما أكتبه ، لا أقول كانت القارئ الأول ، بل الأوعى والأكثر حساسية وربط بين ما أقوله والواقع الذي أعيشه ، كنت أحس معها أنه ليس من الصعب أن تتحقق مقولة الشاعر القديم :

لـيس على الله بمسـتنـكـر
أن يجمـع العالـم في واحـد

الكتابة بالفؤوس !

قلت لفاروق شوشة :

• في تقديمك لأعمالك الكاملة — التي وصفها أحمد بهجت بأنها عمل يضيء بالصدق — قلت انك شغلت عن الشعر حيث كان يجب الالتصاق به أكثر ، وأنك تعللت بري زائف ، متصوراً أنه يعوضك عن ذلك العطش الصميمي .

— من البديهي أن ما حدث قد حدث ، لم تكن الإذاعة في خاطري ، كنت أهيىء نفسي للعمل بالجامعة ، التحقت بكلية التربية ، كنت أول دفعتي ، ورشحت لبعثة في التربية المقارنة ، لكن وجدتني بالإذاعة ، شغلني جوها الغريب الجديد ، بدأت المكونات القروية تجد حلولاً ، « هيصة » كما نقول ، ووجدت نفسي بعد سنوات أمام تحذير من د . علي الراعي — الذي كان كبيراً للمذيعين — يقول أحذرك من الإذاعة لأنها مهنة التفاهات اللذيذة .

لقد دخلت الإذاعة في الوقت الذي كانت فيه حركة الشعر تتسلل إلى نوافذ المجتمع بحثاً عن نقاط ضوء ، تصورت أن مهمتي الأساسية في الإذاعة هي الوصول بهذه الحركة الشعرية إلى الناس على الرغم من حصار الأجهزة الرسمية وقبضة الجهلاء في مواقع الحياة الثقافية المختلفة ، اعتبرت هذا قسماً غير معلن بيني وبين نفسي ، شغلتني العلاقة مع الشعراء وقصائدهم ، ملأتني بري وهمي جعلني انصرف بقدر كبير عن الالتفات إلى مسئوليتي عن نفسي كشاعر ، لكني أفقت بعد سنوات ست . وهذه السنوات لم تخل من إفادات . فقد تعرفت على كثيرين ، وإن ندمت على معرفة معظمهم ، فكم من هؤلاء المبدعين أحببتهم قارئاً ، وندمت على معرفتهم أشخاصاً ، وأعتقد أن كل من أتيح له مثل دوري خرج بنفس النتيجة ، لذلك بدأت هذه العلاقات بالاتساع وانتهت بالانكماش ، وعندما أتلفت بحثاً عن أصدقاء أدرك أنهم أصدقاء الخمسينات فقط ، أما من يسمون كبار الأدباء والمبدعين فالكثير منهم أفضل أن أتعامل معه قارئاً .

• من المسئول عن صدمة اللقاء ؟

— نحن المسئولون كقراء عن صدمة اللقاء ، تنسج من خلال المكتوب على الورق صورة جميلة جداً ومكتملة وفاضلة ، بعيدة عن النقائص والرذائل ، نرسم ونطرح على الشخصية المقروءة كل ما نتطلع إليه من فضائل وقيم . ونتصور أن حاملي هذه القيم المطروحة على الورق ، لابد أن لديهم ولو نصف الحقيقة ، ثم نلتقي بهم ونتعامل معهم ، فنكتشف أن جزءاً كبيراً من هذا المطروح على الورق هو تعويض عن فقدانهم لهذه القيم ، وليس نابعاً منها أو استمراراً لها ، أو انسجاماً معها ، نحن المسئولون أولاً ، ثم المجتمع بما فيه من تشوهات وسعار وتنافس غير شرعي ، لأنه تنافس بالمناكب والخناجر ، وكتابة بالفؤوس — التعبير لأحمد بهاء الدين — جو الغابة هذا هو الذي يدفع حتى المستأنسين من المبدعين إلى أن تنمو لهم أظافر ومخالب بمرور الوقت ، على الأقل ليدافعوا عن شرعية بقائهم في الساحة وليتحولوا إلى أراذل وسفهاء .

• ما هي الإضافة التي حققتها كشاعر ؟

— إضافة ! هذه كلمة — كبيرة جداً ، لم أشغل نفسي بها قط . الشعر هو الذي حقق لي الإضافة ، بمعنى أنني من خلاله قارئاً ومبدعاً أتيح لي أن أتحاور مع عقول ونفوس كبيرة أحببتها ولي معها صداقات حية ، كصداقتي مع المعري وابن الرومي والمتنبي وعروة ابن الورد : كشف لي — الشعر — خيوط العلاقة الحميمة بيني وبين الكون جماداً وحياة ، جعلني أرى بعمق وشمول قبح الأشياء وعلاقته بتفسير الجمال ، دفعني لأن أتعامل مع الآخرين على مستوى الطبقة الجيولوجية العميقة ، وليس على مستوى القشرة الخارجية الهشة .

نقاد .. من الذاكرة !

• سألته عن المراحل التي مر بها شعره الذي يتسم — كما قال أحمد فضل شبلول — بالرؤية الواضحة والتمكن من الأدوات الشعرية إلى جانب السهولة في التعبير والعذوبة في الغناء .

— قال : — مرحلة التأثيرات الأولى التي يقع في أسرها كل شاعر مبتدئ ، يحس أن ما يأسر انتباهه صخب الكلمات وجرس الألفاظ والنبرة العالية ، الرنين المحكم للقافية وضراوة وفحولة المعمار الشعري ، هذا التأثر استشعرته عند قراءتي لشوقي وحماسة أبي تمام والبحتري ، وكان في مصر وقتها شاعر (جهير) اسمه علي الجارم لم يعد يتذكره أحد سواء على مستوى القراءة أو التأثير لأنه خير مثال للجلجلة الشعرية الاعلامية ، وأعتقد أن توجه الشعر العربي منذ بدايته — وحتى اليوم — إلى الاعلامية وتبني وظيفة الصحفي والإذاعي قبل أن توجد هاتان الوظيفتان في المجتمع العربي ، أفسد الكثير من داخلية الشعر والشاعر ، وجعل عودة الشاعر إلى وجدانه في كثير من المراحل أمراً صعباً لا يتوصل إليه إلا شعراء أتيح لهم قدر كبير من المعاناة والصدق ، وعندما بدأ العصر الحديث بفكرة الشعر المهموس وتلقف النزعة المهجرية في التعبير ، كان ذلك يعني إقامة التعادل بين موقف الشاعر وطبيعة انتمائه ، هل هو إلى ذلك الصخب الخارجي أم إلى نبع الوجدان الذي وإن كان هامساً إلا أنه يملك أن يكون صاخباً ومدمراً .

• و .. المرحلة التي تلت ذلك ؟

— هي المرحلة التي اكتشفت فيها أنني واحد من المشيعين لجنازة الحركة الرومانسية في مصر ، بالمعنى الذي أبدعه ناجي وعلي محمود طه ، ومحمود حسن اسماعيل ، ووجدت نفسي مع دموع المأتم الأخير سعيداً ومغتبطاً ، فنحن تسعدنا الجنائز ، وتستثيرنا الدموع ، خاصة إذا كانت حول فقيد ليس فقيدنا ، كنا في مأتم الرومانتيكية نبكي من لا صلة لنا به ، لأننا لا نعرفه ، ولم نتعامل معه وإنما هو بكاء التهويم .

• إذن متى تؤرخ لبدايتك الشعرية


محمد المهدي الجواهري


أدونيس

الحقيقية ؟

ـ منتصف الخمسينات عندما وجدت نفسي أكتب بطريقة الشعر الحر تحت ما يفرضه علي وجداني وإحساسي بأن هذا النموذج ، وهذه الصيغة الشعرية : هي قصيدة العصر.

• بدأت متأخراً عن مرحلة الرواد .

ـ هذا صحيح ، لكن هذا التأخر بالنسبة لجيلنا عموماً أعطاهم الفرصة لكي يبتعدوا عن الحدة الشديدة في التوجه التي صنعها شعراء الموجة الأولى ، الذين اندفعوا ـ في أقصى درجات ثورتهم على الكلاسيكية ـ إلى قصيدة كانت بالنسبة لنا مغامرة واكتشافاً ، لكنها من حيث البناء والمعمار الشعري هشة ، لأنها تغلي بالانفعال الشديد والمغامرة الشديدة ، كما يتحرك بندول الساعة من أقصى اليمين إلى أقصى اليسار ، شعراء جيل الستينات هم الذين شكلوا للقصيدة الجديدة صيغة أكثر توازناً ، من حيث المعمار المحكم ، والشرعية العربية ، والحرص على سلامة الأداء الموسيقي الذي كثيراً ما تهشم في تجارب الرواد ، تحت دعوى التجديد والخروج على العمود الشعري ، ووحدة البيت ، استطاع ـ شعراء الستينات ـ أن يفيدوا ، لأنه أصبح بين أيديهم ميراث الرواد الشعري ، فجعلوه ضمن تراثهم ، وتمثلوه ، لا ليقلدوه ، ولكن ليضيفوا ويبتعدوا عنه مسافة .

• هل أنصف النقاد شعر جيل الستينات ؟

ـ لم يدرس بعد الدراسة الفنية التي لا تخلط بين البعد الاجتماعي والحضاري ، والارتباط بنكسة ٦٧ ، ومناخ ما قبل أكتوبر وما بعده ، هذه المداخل للنقد العربي أفسدته ، وأعتقد أن الكثيرين ممن يكتبون نقداً وقعوا في الأسهل ، وهو باب الإفضاء الاجتماعي والتعرف على التضاريس الحضارية وأبعاد النكسة ، وملامح ما بعد الحرب العالمية الثانية ، ولا أعني بهذا أن هناك انقطاعاً بين الظاهرة الشعرية والأدبية لكني أقول إن كثيرين تتقطع أنفاسهم في هذه الدائرة ، وعندما يصلون إلى النص الأدبي لا يجدون ما يقولونه ، وقد أتيح للرواد حركة نقدية اهتمت أكثر بالصيغة الاجتماعية والحضارية ، وكان هؤلاء الشعراء الرواد بالنسبة لمن كتبوا عنهم مقدسون أدبياً لأنهم مبشرون بشيء جديد لكن التعامل مع البنية الشعرية الجديدة لم يتم بعد ، اللهم إلا من خلال اجتهادات جزئية .

• و.. ماذا عن نقاد جيلكم ؟

ـ أشد ما ابتلي به جيلنا ، فقدانه مواكبة نقاده الذين تبعثرت قافلتهم لظروف كثيرة ، وكانوا هم الأقرب لفهمه ، وتمثل حساسيته ، والأكثر إدراكاً لعناصره ، أما من يسميهم المجتمع نقاداً كباراً فهم للأسف لا يفهموننا ، وعاجزون عن متابعتنا ، إما لأنهم يكتبون من الذاكرة ، أو لأن قراءاتهم توقفت عند الخمسينات ، أو لأنهم يستشعرون بحكم المكانة والسن والأهمية أنهم أكبر من أن يكتبوا عن هؤلاء الصغار ، الذين مازالوا يسمون شباباً رغم أن بعضهم في العقد الخامس من عمره : وإما أنهم اكتشفوا أن المضمون دائماً أن تكتب عن الأسماء الكبيرة ، لأنهم سيجدون ما يقولونه من خلال ما قاله الآخرون ، وهم في هذه الحالة ليسوا مطالبين بجهد ابتكاري .

• كل ما ذكرته عن أزمة النقد لا يبرر لي هذا الإهمال والتجاهل لأعمالك ، بدليل أن شعراء من جيلك نالوا من الدراسات النقدية ـ وإن خلت من الشمول في رأيي ـ الكثير.

■ بعض الشعر الآن مليء بألاعيب الحواة وبهلوانيات السيرك

ـ ربما لم يجد من يتصدون للنقد ما يستوقفهم في شعري ليكتبوا عنه ، ويبقى السؤال الأهم ، هل يشغل المبدع نفسه بمن يكتب عنه أو لا يكتب ؟

• المتابعات النقدية وقود رئيسي لاستمرار المبدع وتطوره .

ـ ربما يفسر هذا أنني لم أكن مستمراً في الكتابة بصورة كافية ، ولم أكن موصلاً لما أكتبه بصورة كافية ، وربما طغيان ملمحي الإذاعي عطل وصول ملمحي الإبداعي ، أحياناً يتاح لوجه قدر من الشعبية يؤثر بالسلب على الوجوه الأخرى ، وبالنسبة لي فإن الدائرة الأولى هي دائرة المستمعين للإذاعة أو المشاهدين للتلفزيون ، هؤلاء بالملايين ، بينما لا يزيد عدد قراء الشعر لأكبر شاعر في مجتمعنا العربي المتخلف عن بضعة آلاف .

• هل تخاف النقد ؟

ـ النقد الذي أستقبله وأقرأه نوعان : نقد جاد أملك أن أفيد منه مهما كان قاسياً ، ونقد أضحك له إذا كان مغرضاً أو ساذجاً أو صادراً من غير ذي أهلية .

• من الذي خدم الآخر الشاعر أم الرجل الإعلامي ؟

ـ أخشى أن أقول إن العمل الاعلامي خدم الشاعر لأنه جعل اسمه معروفاً ومتناولاً وشائعاً ، خدمه بقدر ما أساء إليه من طغيان للملمح الإعلامي .

رسائل خاصة

طلبت من « فاروق » أن يسمح بالاطلاع على نماذج من الرسائل التي ترد إليه ، فوافق دون تردد ، أطلعكم على بعض سطور منها دون تدخل أو تصحيح : ـ

١ ـ مع احتقاري الشديد للإفلاس الفكري في برنامجك من خلال أشباح الماضي : أمينة السعيد ، زكي نجيب محمود ، توفيق الحكيم ، يوسف إدريس . و .. متعاطف ومتفهم ومحب للهوية العربية ، وأرفض وصفها بالرجعية ، بل ما يمثله أشباح الماضي من فكر أوروبا الاستعماري هو الرجعية » كيميائي أحمد عبدالفتاح ـ عضو الجمعية الكيميائية الأمريكية سابقاً .

٢ ـ « لماذا لا تستمع للجيل الفائت ؟ أين الشاعر الكبير صلاح عبدالصبور الذي لم يأخذ أي اهتمام ، ولم يدرس له على طلبة الثانوية غير قصيدة جعلت الطلاب يهربون من قراءته ، وأين زملاء جيله العرب : حجازي ، أدونيس ، السياب ، الرصافي ، وفدوى



طوفان ؟ وأين الجيل الجديد : عبدالجواد طايل ، أحمد سويلم ، وثور نافع ، ولا نسمع في الساحة سوى صوت فاروق جويدة ، د . حسين أحمد حسن رشوان

٣ ـ « فكرت بزيارتكم بالمكتب لتقول لي رأيك فيما أكتب ذلك خوفاً من إرسال الخطابات حتى لا يعرف من في البيت ، وذلك لأنك كما قلت ما زال رأي الفتيات مصادر ، ولا تستطيع أن تعبر عما يدور بداخلها ، ولقد وجدتك أول إنسان لا يصادر رأي بناته » . ابنتك الطالبة ح . ف . م

٤ ـ « نحن نستمع إليك كل ليلة ، ومحبوك كثيرون وكثيرات ، قبل أشهر قرأت في أحد كتبنا القديمة قصيدة لسعد بن ناشب ، قالها بعد أن هدم الحجاج بيته وحرقه : فوجدت أنها تطابق في معانيها واقع الحال عندنا ، وخطر ببالي أن أبعث بها إليك لتقرأها في برنامج (لغتنا الجميلة) » فدوى طوقان/نابلس ١٩٦٩

أحزان الفقراء

عندما سألت الدكتور أحمد هيكل عن أهم ما يميز فاروق شوشة الانسان والشاعر ، قال : ـ « انه من أشد من عرفت في حياتي وفاء ، ولا أذكر أني احتجت الى قلب صديق ينبض الى جانبي في أزمة ، إلا وجدته هو هذا الصديق ، وإذا كان كثيرون من أصحاب الشعر الحر يتشابهون ، فانه من القلائل الذين تتضح في شعرهم أصالتهم ومعالم فنهم ، بدءاً من التجربة وانتهاء بالصورة والكلمة والنغم » .

• و .. سألت شاعرنا أن يحدد لي ملامح الأبيات التي اخترتها :

حين تصوغ من عجائب القرار فعلك الجرئ
وسعيك المبارك البريء
ونفحة المَلَك

ـ كنت أرسم صورة لشخصية طاغية تصور أنه يستند الى وحي يوجهه الى الخير ويدنيه من الأنبياء ، ويجعل توجهاته كلها صائبة ، وعلى الآخرين أن يستقبلوها على أنها الرسالة السامية للبشر .

• كنت فيهم .. واحداً منهم .. لهم
حبة القمح وجلباب الشتاء
ويد الرحمة في نفع البلاء
والأب الحاني إذ عز الدواء

ـ عبدالناصر ، الذي يدين له جيلنا ، لولاه لما تعلمت أو قرأت وكتبت ، وعندما سميت قصيدتي أحزان الفقراء ، كنت أتكلم باعتباري فقيراً وما أزال ، وأعتبر أن دور عبدالناصر الأساسي كان مع ومن أجل الفقراء .

• أدعوكم يا أصحاب ويا أحباب ويا فقراء
من يثقب ظلمة هذا الليل

ـ هذه أول قصيدة أكتبها بعد النكسة ، أحسست أننا لم نستفق من الزلزال ، ويبدو أننا بحاجة لزلزال أعمق لنستيقظ .

• ألمح صورة الخيانة في شعرك واضحة ، هل هزمتك امرأة بالخيانة ؟

ـ لم أعش الخيانة مع امرأة قط ، ربما لو عشتها لأشعلتني بشكل آخر كشاعر . الخيانة في حياتي دائماً هي خيانة الأصدقاء .

• رسالة إلى حبيبتك بم تبدأها وتنهيها ؟

ـ باسمها المجرد فقط ، لأنه يتحول الى كيان خاص لا يجب أن أسيء اليه بوضع مفرده ، وأنهيها باسمي مجرداً أيضاً .

• قصيدة لك ، تذكرها دائماً ؟

ـ « بيت فوق شجرة » التي أقول فيها : ـ
كانت شجراً ، ينمو فيَّ ، وأنبت فيه
تلتف الأغصان بروحي ،
يفرخ طير بين حنايا القلب ،
ويورق عمر ،
يسقط ظل ،
تعشب أرض ، كانت عطشى .

• و .. قصيدة لشاعر عربي ؟

ـ في الخمسينات كانت « أنشودة المطر » للسياب ، ولا أعتقد أن هناك قصيدة بعدها كان لها نفس الأثر والدوي والصدى العميق في وجداننا .

• هل تبكي ؟

ـ في لحظات المحبة الدافئة ، ولحظات الوفاء .

• يقول نزار « الورقة البيضاء أمامي جسد لا أعرفه ، فراغ بارد يبحث عمن يغطيه ، ومرفأ مفتوح لكل البحارة » .

ـ الورقة البيضاء وجه بارد ميت يشعرني بالخوف ورعدة الإحساس ، القبح الذي لا يزيله إلا الكلمات .

• يقول بودلير « الجمهور فيما يتصل بعبقريتي ساعة تؤخر » من هم الشعراء العرب الذين من الممكن أن يرددوا هذه المقولة وتشعر أنهم على حق ؟

ـ أبو العلاء المعري .

• و .. من المعاصرين ؟

ـ عبد الصبور وأدونيس .

• لو أقيم مركز للعلاج بالشعر في عالمنا العربي على غرار المركز المقام في نيويورك ، من هو الشاعر العربي الذي تصلح قصائده لعلاج المجهدة نفوسهم ؟

ـ كل قصائد كاشفة ومحملة برصيد من الوعي الانساني ، وتحضرني الآن نماذج لابن الرومي .

• قصائد معاصرة ؟

ـ الكثير من قصائد عبدالصبور ، نزار ، حجازي ، وأمل دنقل ، كل منهم اكتشف قشرة من النفس الانسانية ، ربطوا بينها وبين صراعاتها على مستوى الذات والحياة والمجتمع والوجود .

• من هو المبدع ، هل هو الفنان الذي يستجيب لذوق العصر ، أم الذي يفرض فناً جديداً ، عاصياً ومتمرداً وغازياً » تعبير د . الطاهر أحمد مكي » ؟

ـ لا أستطيع الفصل بين المبدع وعصره حتى لو أراد وجعلها قضيته ، التمرد على المرفوض هو أيضاً ارتباط به لأنه يحمل نوعيته ، بمعنى أن نوعية تمردي يشكلها انتمائي لما أتمرد عليه ، وبالتالي عندما أتصور نفسي غازياً ومتمرداً ، فأنا في الواقع لست منفصلاً عن ما أغزوه وأتمرد عليه ، المبدع الحقيقي مزاج بين المقولتين معاً .

• يرفض أدونيس أن تكون الرؤيا عرضاً لايديولوجية ، بينما يؤكد سميح القاسم على ضرورة ارتباطها بعملية الخلق .

ـ الأيديولوجية مستترة في أعماقنا ، لا أعتقد أن هناك مبدعاً واعياً يخلو من تصور معين لها ، الذي قد يضيق ليعبر عن انتماء سياسي حاد ، أو يتسع ليعبر عن انتماء انساني ، لكننا لا نستطيع أن نخرج من أسرها ، لأنها تعني المنطلق الأول لفهم الحياة والوجود والانسان ، لكن طفوها على السطح بحيث تكون التلسكوب الذي من خلاله يرى المبدع الأشياء أو لا يراها ، يحدد الرؤية ويحجب أشياء كثيرة كان المنظور الانساني سيجعلها تأخذ حجمها الحقيقي والأساسي .

• الشاعرة المصرية .. أين ؟

ـ ملك عبدالعزيز تنتمي لنفس الشجرة





نازك الملائكة



فدوى طوقان

والمكونات التي تنتمي لها فدوى طوقان ونازك الملائكة.

• هل هي بنفس الوزن، وهل لشعرها نفس القيمة؟

— مسألة الوزن والقيمة الشعرية أتركها لمن لديهم عناصر الميزان، لكن ربما أتيح لفدوى حساسية الارتطام بمناخ الواقع الفلسطيني، وأتيح لنازك من عمق اهتمامات الوعي والرؤية الفلسفية ما لم يتح «لملك» من خلال واقع الحياة الأسرية والمجتمع المصري، سؤالك يستحق الاهتمام خاصة إذا سألنا من بعد فدوى ونازك وملك وسلمى الخضراء في العالم العربي كله. القضية إذن هي قضية المرأة عندما تبدع شعراً، هذا يتطلب منها مواجهة مع النفس أصعب بكثير مما لو كتبت قصة — مثلا — لأنها في الابداع الشعري محوطة بعيون الآخرين، لأن نفس الذات في القصيدة حميم ولصيق.

• ما مصير الرسائل التي كتبها اليك محمود حسن اسماعيل من الكويت؟

— أنوي جمعها وتقديمها في كتاب.

سطور من رسائل محمود حسن اسماعيل

١ — الكويت ٧٥/٢/٢٦ «الحياة تصر على الازدهار، ونحن أسارى التكرار، فلا محيص من رفض كل ذلك، والوثبة الجامحة باغلاق الروح، لعل هناك جديداً لم تره من قبل، وما لم تقتحم الأسرار فالفن بوار».

٢ — الكويت ٧٥/١٢/١٣ «وكل ما آمله منك أن تعطيه جانباً من متسعات وقتك، وتمضي في دفعه، والتوصية العاجلة لطبعه ونشره متخطياً كل العقبات، وأنت تعلم أثر ذلك في تحرك عمل فني قبل غيره للنشر، لأن حركة العصر تتغير وتتلاحق منجزات الفن فيها برؤى تتغير أيضاً من دقيقة لأخرى، وأرغب في طبع ديوان جديد آخر، ولكني متعثر المضي في ذلك، لأن هذا ثاني ديوان أقدمه ولا يظهر في أوانه، ولا أدري ما تراه، وإذا لم يكن هناك عائق غير الرسوم فليخرج بغيرها، أو بأقل ما يمكن منها».

٣ — الكويت ٧٦/٦/٨ «وأبغض ما أعانيه من متاعب، كل الدائرة المتصلة بالشعر، فور الانتهاء من كتابته، فأنا رافض بطبيعتي أي حوار فيه من القراء، أو محترفي النقد، أو حتى من الذين يستعجم عليهم كشف أعماقه ودورانه، لغباء أرواحهم».

٤ — الكويت ٧٧/٣/٧ «تأخر ردي لأن ضغطي وصل ٢٣٠ على ١٣٠ فجاءة، ومع نزيف رعافي من الأنف واجهته ليلة كاملة، ومع توقفه هبط الضغط إلى طبيعته العادية، وحمدت الله، واعتبرتها خلاً روحياً أعدى الجسد، فاضطربت سواقيه فترة، ثم عادت للنواح الشجي».

ضد شعر السبعينات

سألته وفي خاطري ما قاله د. صلاح عبدالحافظ من أنه «يلجأ في عملية تكثيف الصورة الشعرية إلى خطف أبصارنا لاثارة الدهشة والتفكير عن طريق هذا الحشد السريع والمتتابع لتلك العبارات الموحية». و.. ما قاله د. علي عشري زايد من «أن القارئ يدرك بسهولة أن اللغة طوع يد الشاعر، يجعلها تتدفق بتدفق أحاسيسه العارمة وتهدر بهديرها».

> ■ حركة السبعينات هي المسئولة عن فقدان العلاقة الحميمة بين الشعر الجديد وقرائه

• قلت: لماذا لم تعد القصيدة المعاصرة تعطي نفسها في يسر؟

— هذا السؤال إجابته صعبة جداً، لأنك تثيرين قضية الشعر الجديد كله، أن تعطي القصيدة نفسها يعني مشكلة علاقة القصيدة مع المتلقي، وهذه تحكمها أشياء كثيرة أولها هذا المتلقي سجين النفس الكلاسيكي، وهذا يعني أن القصيدة الجديدة تبدأ بمعارضة وإشكالية مع استعداد ومكونات هذا المتلقي، أما الذي يجهد مع نفسه لكي يحاول الاقتراب من القصيدة الجديدة، فإنه يبحث عن المشترك، عن الخيط الغامض — الذي يذكره ليس على سبيل التماثل، ولكن سبيل الاستمرارية التي تحمل التغيير — الذي يربط بين قصيدة عبد الصبور ومعلقة امرئ القيس، بين قصيدة دنقل وعروة بن الورد، لا أستطيع أن أتحدث عن هذا الخيط كشاعر، ولكن بكل تأكيد سيتحدث عنه ناقد عندما يعكف على تأمله، هذا الخيط هو الذي يمنح القصيدة الجديدة هوية الانتساب إلى الشعر العربي، فلا أحس أنها مقطوعة الصلة أو مبتورة، هذا ما يبحث عنه المتلقي فإن لم يجده، امتنع عن الإصغاء.

• إذن لنتحدث عن القصيدة نفسها؟

— تظل دائرة الشعر الجديد خلال أربعين سنة قطرة، برغم عدد شعرائها وتعدد موجاتها، تظل تمثل الخامة الصغيرة في حجم هذا الاهتمام، هذا القارئ الذي بدأ مع حركة الشعر الجديد، واتسعت حساسيته للتقبل بدأ يرى أن هذه القصيدة نفسها تخلخلت، معمارها يتهاوى مع ما يسمونه شعر السبعينات، وأنا ضده، لا لأني ضد المعاصرة والتجريب والبحث عن آفاق جديدة، لكن لأني أتصور أننا في فن الشعر نحن في جدلية الحوار دائماً بين ما هو ثابت ومتغير، بين ما هو مستمر لأنه يمثل صميمية وجذور هذا الشعر وبين ما هو صدى لحساسية عصر وجيل، شعراء السبعينات انساقوا وراء حركة نقدية تقودهم ربما لأغراض أدبية وفنية وربما لا. لكي تحدث انقطاعاً، وتصوروا أن هذا يعني بدء المغامرة، أنا كمتلق لا أستطيع أن أتلقى شعرهم ولا أن أتعايش أو أتناغم معه.

• تتحدث فقط عن السبعينات بينما في رأي البعض هذا ينطبق على الستينات.

— حركة السبعينات هي المسئولة عن فقدان العلاقة الحميمة بين الشعر الجديد والمتلقي، لأنه يقرأ نتاج هذه الحركة وهو أكثر ما ينشر الآن في الصحف والمجلات على أنه الشعر الجديد، بدليل أن مجلة الكرمل عندما



أرادت أن تصدر عدداً عن الواقع الأدبي والشعري في مصر، لم تجد إلا شعرهم، وكانت الفجيعة أنه على مستوى مصر والوطن العربي كان مانشر من هذه النماذج عاراً شعرياً.

• و.. ماذا عن محمد عفيفي مطر وهو من جيلكم؟

ــ مطر، هو الصيغة المصرية من الشعر الأدونيسي، وهوأكثر تعقيداً لأن الأصل دائماً يكون أوضح (ويحمل تبريره) وعندما وصلتنا مستنسخات من الصورة الأصلية، رغم أنها تنويعات خاصة بأصحابها، افتقدنا الجوهر والصدق الذي كان للانبجاسة الأولى التي أحدثتها الحركة الأدونيسية. و.. أدونيس شاعر كبير ومفكر عظيم. كثير من آثاره تهتز لها نفسي. لديه من القصائد ما اعتبره سبباً في استهواء عدد كبير من المقلدين على مستوى الساحة العربية، الذين سقطوا في شركه اعجاباً دون أن يكون لهم حجم الموهبة والوعي الأدونيسي وقدرته على التحليق.

• و.. أبو سنه؟

ــ لايمكن الزج به في هذا الموضوع، فهو لا علاقة له بالغموض، إلا إذا كان غموض الرمز والصورة الشعرية، اللذين بدونهما يتحول الشعر إلى خطابة، ومن يدعون الغموض في شعره هم من تمرسوا على شعر يمنح نفسه بسهولة لأنه خال من الأغوار والعمق.

• لماذا أسميت أمل دنقل في قصيدة لك بشاعر الحراب المدببة؟

ــ علاقتي مع أمل مرحلتان: مرحلة ماقبل المرض وكان مفتوناً فيها بزهو المبارزة على مستوى الجدل والنقاش والحوار في المقهى والسوق والشارع، كان يمثل ــ في ذلك الوقت ــ بالنسبة لي عاصفة بشرية متحركة تموج بالصراع والعراك، لذلك كنت أتجنبه، وقد كانت هذه النزعة تستوقفني فيه ولاتجعلني أحرص على الاقتراب منه رغم متابعتي له كشاعر، وتقييمي لموقفه في حركة الشعر على أنه في مقدمة شعراء الستينات، ثم جمعتنا لجنة الشعر بالمجلس الأعلى للثقافة مدة عامين، ونشأ بيننا لون من الألفة ــ كتبت عنها زوجته في كتابها عن أمل والذي جعلت عنوانه «الجنوبي» ــ ربما مصدرها أننا كنا نمثل وجهة نظر متقاربة فيما يثور من مناقشات في المجلس، ثم بدأت أعوده كصديق وزميل خلال مرحلة المرض لأكتشف وجهه الآخر، الوجه الطيب، الأصيل، المواجهة بضراوة لمعاناة المحنة والمرض، بدأت تغيب في نفسي ضراوة الرؤية الأولى كمبارز عدواني.

المبدع .. الخادم!

قلت لفاروق شوشة: ــ

• هناك من يعتب على برنامجك التلفزيوني «أمسية ثقافية»؟

ــ المجتمع الثقافي يتصور أن الأمسية لابد أن تكون هي المجتمع الثقافي، بمعنى أن كل من يريد شيئاً يتصور أن الأمسية لابد أن تحققه. ليس هناك برنامج مهما كان يستطيع أن يحمل ويحقق كل شيء، هذه مهمة عشرات البرامج الثقافية، لذا فإن مأساة الأمسية أن الناس تعلق عليها من الآمال والتطلعات، وتحملها من المسئوليات مايفوق عبء حجمها كبرنامج، وعبء حجمي كإنسان، هذه الأمسية جزء من اهتماماتي، وفقرة في التلفزيون.

• يتهمونها بأنها محصورة بأسماء النجوم.

ــ ليست هناك موهبة أدبية حقيقية في مصر لم يستضفها البرنامج بقدر ما استطعت، بدءاً بأكبر أديب معمر وهو توفيق الحكيم، وانتهاء بجيل الكتاب الشبان، ابراهيم أصلان، الغيطاني، مجيد طوبيا، البساطي، لقد استضفتهم في مناسبات متصلة بانتاجهم، وهذا يوضح لك أساس الاختيار، أقصد متى: أستضيف الكتاب الشبان؟ عندما تكون هناك مناسبة سواء تكريم الدولة أو ترجمة عمل أو غيرها لابد من الأساس وإلا ما الحكمة التي تجعلني أختار كاتباً دون آخر. أما بالنسبة لمن عبروا قدراً من المرحلة مع الأدب والفن، وأصبحت لهم شهادات مثل لويس عوض، زكي نجيب محمود، يوسف ادريس، يحيى حقي. فأنا لست بحاجة إلى مناسبة لاستضافتهم، أما الأدباء الشبان فعليهم أن يوجدوا هذه المناسبة وأهلاً بهم.

• اتهام آخر يقول انك تنتقي أسماء النقاد التي تخدمك كشاعر؟

ــ من الأسماء التي خدمتني؟ لقد استضفت لويس عوض والقط منذ الستينات وحتى اليوم عشرات المرات، وأستطيع أن أذكر لك كل نقاد مصر، أين هذه الخدمة، وكيف مورست، مع العلم أني أعرف أن كثيراً من كتابات بعض النقاد عن آخرين تمت لالتصاق المبدعين بهم على مستوى الخدم، وأضع تحت كلمة خدم خطوطاً. أحدثك ــ ياسيدتي ــ عن فقدان العلاقة الطبيعية بين المبدع وبعض النقاد في مجتمعنا، الذين لايلتفتون إلى مبدعين إلا إذا التفوا حولهم كخدم يدورون في فلكهم ويحرصون على غشيان ندواتهم يروجون لهم، ويصلون مابينهم وبين حركة الحياة أنا فقط أفسر لك، ولا أتهم.

• يقول د. الطاهر المكي: «إن الجانب الأعظم من الشعر الحر بقي في منتصف الطريق بين الشاعر والجمهور، يعلوه غبار النسيان. وأرجو ألا يخدع قائلوه بأن بعضاً منه يترجم، فإن صغار المستشرقين يؤثرونه على غيره لأنه سهل الترجمة، وأحياناً لدوافع سياسية ترتبط بالشاعر ولا صلة لها بالشعر».

ــ د. الطاهر صديق عزيز أحترمه، لكني لا أقبل شهادته بالنسبة للشعر الجديد، لأنه وضع نفسه منذ البداية في دائرة العداوة الضروس لهذا الشعر، وبالتالي فإن أحكامه لاتصدر من منطقة الحياد الضروري لمثل هذا الحكم.

• و.. يقول د. القط: «كان من آثار عدم التناسق بين طبيعة المجتمع عندنا وبين هذه النزعات السيريالية أو الرمزية المغرقة، أن قلت دائرة الذين يتلقون الشعر في السنوات الأخيرة».

ــ هذا تجاوز، السيريالية كلمة كبيرة يجب أن لاتشوه بإطلاقها على مايكتب في بلادنا، التسمية اللائقة هي ألا عيب حواة أو بهلوانيات سيرك، ضحالة وصبيانيات، لأن السيريالية تقتضي فلسفة ورؤية وموقفاً من الحياة والوجود.

و.. وقال «فاروق» أيضاً:

• أتمنى أن يعود نقاد الستينات إلى الساحة من جديد، فهم الذين لم يسد فراغهم أحد لا من الكبار قبلهم ولا من الصغار بعدهم.

• أعترض على ضراوة التناول لانتاج المبدعين نتيجة منطلق ايديولوجي.

• الذين نجحوا في ربط عظمة عبد الصبور بوردز ورث هم المتفرنجون في بلادنا أو المستشرقون الذين يكتبون بالعربية من بين كبار نقادنا، أصالته أساسها حسن تمثيله للتراث الشعري وتراث الحركة الرومانسية



نزار قباني

محمود حسن اسماعيل

التي سبقته مباشرة، وثقافته الواسعة التي جعلته من كبار مفكرينا.

العكوف على متابعة ما ينشر في المجلات العربية مسألة تقتضي التفرغ التام اذا أتصور أننا محتاجون إلى مجلة للمجلات العربية.

المثقف والمبدع المصري لا يعي كثيراً مما يحدث الآن على مستوى الساحة العربية ما يعيه هو ما يتصل بالخمسينات والستينات، بل حتى على مستوى الرواد فإنه يعرف عن طه حسين والعقاد أضعاف ما يعرفه عن أمين الريحاني ومارون عبود، يعرف شوقي وحافظ، ولا يعرف شيئاً عن الزهاوي والرصافي، والجواهري ممن عاشوا في نفس المرحلة وكان لهم نفس التأثير وهذه نتائج وآثار الطغيان الإعلامي المصري في الستينات التي أدت إلى انشغال المثقف المصري بذاته.

مشكلة تراثنا العربي عدم استمرار حركة المختارات فيه التي بدأت بالمفضليات والأصمعيات وتصنيف طبقات الشعراء، ثم حماسة أبي تمام والبحتري، ثم مختارات البارودي، والجهد الذي صنعه أدونيس في «ديوان الشعر العربي». تجربتي في «أحلى عشرين قصيدة حب» برهنت أن القارئ غير المتخصص متعطش لها. فقد بيع في السعودية من هذا الكتاب تسعون ألف نسخة من إحدى طبعاته فقط، وأعيد طبعه خمس مرات خلال أقل من عشر سنوات.

أهم ما قرأته في العشر سنوات الأخيرة ما صدر لبهاء طاهر وسليمان فياض، الأعمال الشعرية الكاملة للشاعر العراقي سعدي يوسف، كتاب «شخصية مصر» د. جمال حمدان.

أول دراسة شاملة وجادة عن أعماله الشعرية كتبها الناقد الشاب مصطفى عبدالغني صاحب الكتاب القيم «شهر زاد في الفكر العربي الحديث». وصاحب العديد من الكتب منها:

مؤرخو الجزيرة العربية — المؤثرات الفكرية في الثورة العربية — ومسرح الثمانينات. الدراسة احتلت خمساً وعشرين صفحة من عدد مجلة فصول الأخير، وقد تتفق مع الناقد في بعض ما وصل إليه وتختلف في البعض الآخر، لكنك في النهاية لا تملك إلا أن تحترم هذا الجهد الواعي الذي ينم عن حس نقدي أصيل وثقافة عميقة، والذي يبث في نفسك الفرح بوجود ناقد لا يعتبر النقد «فهلوة وسلق بيض» على حد تعبير أحد الكتاب الشبان. في دراسته الهامة يقول:

إن اهتمامه باللغة، على سبيل المثال، جاوز به موقف الجيل السابق عليه، الذي كان يرمي إلى التساهل في المفردات والولع باللغة الشعبية وقيمتها (العامية) أحياناً، وتطريز هذا كله في نسيج لغة شعرية جديدة، ومن هنا كان موقفه الأصولي يختلف عن موقفهم، ويلتقي موقف الجيل الذي انتمى إليه من حيث الحرص على جوهر اللغة وجزالة نسقها، قدر حرصه على جوهر الشعر ودلالاته.

وكما اتفق مع توجهات جيله كله على ضرورة العودة إلى كوكب التراث ومعالجة ما ينتمي إلى عصرنا، كذلك افترق عنهم جميعاً، في أنه ابتعد عن المغامرة الشعرية بكل عناصرها، إذ ظل حريصاً على هويته، سواء بدا هذا في شعره، أو في لغته (الجميلة) في وسائل الاعلام، ويمكن أن نجازف بالقول بأنه هو آخر صوت يغرد في هذا العالم الذي افتقد الكثير من جماليات اللغة ومكوناتها الايجابية في الثمانينات.

لقد اختلف عن أبو سنه في عدم التأرجح على سلم التراث الذي بدأ في كتاباته الأولى مدافعاً عن حركة الشعر الحديث، منافحاً عنها في عنف شديد، وما لبث في كتاباته الأخيرة أن عاد إلى الشعر العمودى ثانية، في وقت لم يعرف عن «فاروق» إغراق في الجديد أو تطرف إلى القديم، وإن ظل يحرص على بنية الشعر الحديثة حرصه على بنية الشعر التقليدية سواء بسواء.

ومما يزيد من تفرده أنه لم يغال كشاعر معاصر آخر له، مثل أمل دنقل، في الإغراق في السياسة والرموز العقيدية التي راحت تقترب من المباشرة أكثر من التورية.

ورغم ما نجده في شعره من هذه المسحة من الغموض الذي تبرره الضرورة الفنية في أحيان كثيرة، فإنه يمكن القول بأنه غموض لا يمت بأي صلة لغموض عفيفي مطر الذي يمثل قمة الغموض في الإنتاج الشعري المعاصر.

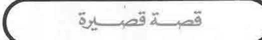
الصورة عنده تميزت بسمات خاصة: ارتباطها بالواقع ارتباطاً وثيقاً — زيادة الصور المركبة — اتسامها بهذا النسيج التراثي الذي لا يفترق عن الصورة الحسية ولا يتفق مع الصورة المعنوية، أي محاولة الحفاظ على روح التراث — اعتمادها اعتماداً كبيراً على التعبير والحركة أكثر من الخيال، وعلى الحالات النفسية أكثر من الاعتماد على عناصر الطبيعة ودواعيها — ارتباطها بعديد من السمات، قسمة مثل (تراسل الحواس) تقل حتى لا نكاد نجدها عنده، بينما سمة مثل «المجاز» تزيد حتى لنعتقد أن شعره كله عبارة عن إستعارة كبيرة.

اعتمد على الشعر الدرامي، أو الحكاية، في البنية الشعرية لتأكيد الصورة، فراح يستخدم تكنيك السينما، ويفيد من بقية تكنيكات الفنون السبعة الأخرى.

إن من أكثر النتائج أهمية بالنسبة لشعره، تمتع الشاعر بسمة غنائية في المقام الأول، في وقت لم يغرق في حال من الرومانسية القاتمة، أو حال من الوجودية التي عاش فيها عدد كبير من كتاب الستينات وشعراؤها وإنما كان تعبيره الدلالي في المضمون نتاج حالة عقلية واعية.

■ أشدُّ ما ابتُلِيَ به جيلنا الشعريُّ عدم مُواكبة النقَّاد لهُ

سارة — القاهرة





بقلم : الدكتور عبد السلام العجيلي

ابتسم الاستاذ سليم ، المحامي ومالك الأرض المجاورة لأرض اسماعيل العبد الله ، الفلاح ، وهو يستمع الى جاره يقص عليه حكايته . قال له :

ــ لا أدري يا اسماعيل كيف أستطيع مساعدتك . الوقت فات لاعادة بذر أرضك من جديد ، وأولادك على ما تقول أكلوا كل حبوب الفستق . أما المرشد الزراعي الذي سميته فأنا أعرفه جيداً . هو انسان طيب ، ولكني لا أحسبه مستعداً للتهاون في وظيفته الى درجة يتستر فيها على مخالفتك للخطة .

والخطة التي يشير إليها الأستاذ سليم هي الخطة الزراعية لهذا الموسم في المنطقة التي يملك المحامي وجاره الفلاح اسماعيل العبدالله قطعتي أرض في إحدى قراها . خطة هذا العام تقضي بأن يبذر خمس المساحة من كل حقل ، أي عشرون بالمائة منه ، بالفستق السوداني بغية تأمين حاجة مصنع لاستخراج الزيت من بذور هذا النبات أقيم في المنطقة مؤخراً . وعلى هذا وزعت دائرة الزراعة بذار الفستق على فلاحي قرية اسماعيل العبدالله والقرى المجاورة وأخذت تواقيعهم ، أو بصمات إباهمهم ، على تعهد بتقديم محصول حقولهم الى المصنع في موعد القطاف المنتظر .

إلا أن اسماعيل العبدالله ، كما جاء يخبر جاره في الأرض الأستاذ سليم ، لم يأخذ مأخذ الجد بصمة ابهامه على الورقة التي بسطها السيد سعد الدين ، وهو المرشد الزراعي ، أمام الفلاحين في اجتماع مضافة المختار . فقد حمص حبات بذور الفستق التي جاء بها من الاجتماع ووزعها على أولاده . فاستطابوا طعمها وطالبوه بزيادة منها ، وبذر أرضه كلها ، كعادته في كل موسم ، بالذرة الصفراء . لم ينتبه الى مغبة ما فعله إلا حين قدم المرشد الى القرية ليتفقد مراحل الخطة ويكتب تقريره الشهري عنها . فقد سمع أقوال الفلاحين في القرية وأحاديثهم عن عواقب مخالفة أوامر الدولة ، فأسرع الى الأستاذ سليم ، في مكتبه في البلدة الصغيرة المجاورة ، يبحث عن المشورة والمعونة عنده . .

من جديد عاد المحامي الى الابتسام وهو يقول :

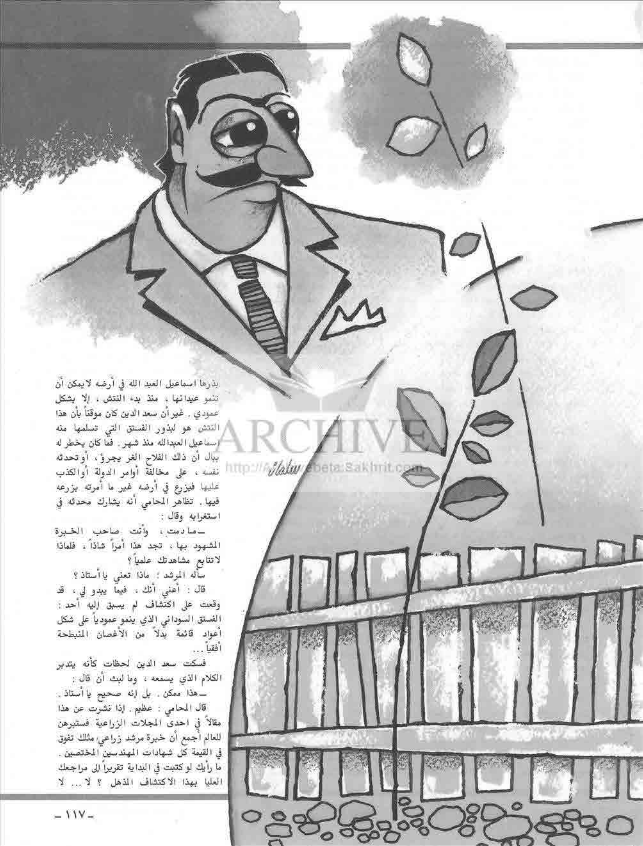
ــ ما سمعته يا جار عما يمكن أن تسببه لك مخالفة الخطة صحيح . قبل كل شيء ستقلب الأرض التي زرعتها ذرة فتخسر فيها تعبك ومالك . وربما فرضت عليك غرامة ، وقد تحرم من الزراعة في الموسم القادم ، وقد تسجن . على كل حال فسعد الدين ، مرشدك ، لابد أن يمر عليَّ في هذين اليومين . سأجس نبضه لأرى ماذا يمكن أن نفعله لخلاصك . . .

وكان من عادة ذلك المرشد في الواقع أن يزور الاستاذ سليم في مكتبه في البلدة بين الحين والحين . يشرب عنده كأساً من الشاي في كل مرة ، ويسترسل في الحديث عن مشاهداته في جولاته الدورية بين القرى ، أو ينقل إليه أخبار سراي حكومة البلدة المتواضعة وأخبار موظفيها . كان انساناً طيباً كما وصفه المحامي ، طيبة لا تخلو من سذاجة ، بل من غفلة . وهذه السذاجة البالغة حد الغفلة هي التي مهدت السبيل للاستاذ سليم في محاولته تخليص اسماعيل العبدالله من ورطته .

في زيارة المرشد التالية لمكتب المحامي تطوع هو للحديث عما شاهده في حقل اسماعيل العبدالله . قال :

ــ انه الحقل الذي يجاور أرضك في القرية يا أستاذ . مشاهدة غريبة . في القسم المبذور بالفستق السوداني من الحقل لاحظت أن النتش الذي أعطته البذور يختلف عن النتش في الأقسام المزروعة فستقاً في الحقول المجاورة . أوراق النبت الجديد في حقل اسماعيل العبد الله دقيقة ، وهي ترتفع عمودية على سطح الأرض بدلاً من أن تنفرش سطحياً . صحيح أن النتش لا يزال ضئيلاً ، ولكن ارتفاعه مستقيماً على سطح الأرض المروية أمر غريب لا تقول به تعليمات مديرية الزراعة التي عممتها علينا ، لاسيما وأن الفستق الذي وزعنا بذوره على الفلاحين هو من النوع المفترش ، لا القائم ، ولا حتى نصف القائم . . .

كتم الاستاذ سليم ضحكته في صدره وهو يستمع الى استغراب المرشد من أمر يعرف المحامي أنه طبيعي . فالذرة الصفراء التي



بذرها اسماعيل العبد الله في أرضه لايمكن أن تنمو عيدانها ، منذ بدء النتش ، إلا بشكل عمودي . غيرأن سعد الدين كان موقناً بأن هذا النتش هو لبذور الفستق التي تسلمها منه اسماعيل العبدالله منذ شهر . فما كان يخطر له ببال أن ذلك الفلاح الغر يجرؤ ، أو تحدثه نفسه ، على مخالفة أوامر الدولة أوالكذب عليها فيزرع في أرضه غير ما أمرته بزرعه فيها . تظاهر المحامي أنه يشارك محدثه في استغرابه وقال :

ــ ما دمت ، وأنت صاحب الخبرة المشهود بها ، تجد هذا أمراً شاذاً ، فلماذا لاتتابع مشاهدتك علمياً ؟

سأله المرشد : ماذا تعني يا أستاذ ؟

قال : أعني أنك ، فيما يبدو لي ، قد وقعت على اكتشاف لم يسبق إليه أحد : الفستق السوداني الذي ينمو عمودياً على شكل أعواد قائمة بدلاً من الأغصان المنبطحة أفقياً . . .

فسكت سعد الدين لحظات كأنه يتدبر الكلام الذي يسمعه ، وما لبث أن قال :

ــ هذا ممكن . بل إنه صحيح يا أستاذ .

قال المحامي : عظيم . إذا نشرت عن هذا مقالاً في احدى المجلات الزراعية فستبرهن للعالم أجمع أن خبرة مرشد زراعي مثلك تفوق في القيمة كل شهادات المهندسين المختصين . ما رأيك لو كتبت في البداية تقريراً إلى مراجعك العليا بهذا الاكتشاف المذهل ؟ لا ... لا

الكذب مثل السمك

أنصحك بأن توجه تقريرك الى رؤسائك في مركز المحافظة . سينسب هؤلاء الاكتشاف الى أنفسهم ويضيع حقك فيه . ارفع التقرير الى الوزارة مباشرة... انهم هناك يفهمون ويقدرون .

كان هذا اقتراحاً ساخراً انطلق على لسان الاستاذ سليم في مجرى كلامه . كل ماكان يهم المحامي هو أن يغفل سعد الدين عن فعلة اسماعيل العبدالله المخالفة للخطة ريثما تطول أعواد الذرة الصفراء في أرضه وتغلظ سوقها فيصبح قلب الأرض واتلاف ما نبت فيها غير وارد . غير أن المرشد تلقى الاقتراح بغير هذه الروح . فلم تمض أيام حتى جاء يحمل الى الاستاذ سليم مسودة كتاب الى الوزارة يتحدث فيه عن مشاهداته لنتش الفستق السوداني ، من الصنف المفترش ، في حقل الفلاح اسماعيل العبدالله ، نتشاً متضارباً مع الحقائق العلمية المعترف بها . ويزيد بأن يطلب من سيادة الوزير بذاته أن يوفد مهندساً زراعياً ذا خبرة للتحقق من صحة هذه المشاهدات ، محتفظاً هو لنفسه بحق الأولية في اكتشافه . قال الاستاذ سليم وهو يغالب ضحكة تكاد تطفر من فمه :

ــ أحسنت . اترك لي هذا التقرير ليبيضه كاتبي بأن يضربه على الآلة . وإذا كنت خارجاً غداً في إحدى جولاتك فلا تهتم . سيضعه هو لك في البريد .

وهكذا كان . وكتب المرشد بعد هذا التقرير تقارير أخرى ، وضع المحامي بعضها في البريد ومزق بعضها قبل أن يطبعها كاتبه على الآلة . كان الاستاذ سليم واثقاً من أن كل هذه التقارير ، لو أرسلت ، لن تجد لها طريقاً في العاصمة الى غير سلة المهملات . فالناس هناك عندهم ما يشغلهم عن قراءة هذر موظف صغير في منطقة نائية في موضوع لايهم ولا يجدي . غير أن من أدمن القرع ولج كما يقول المثل الفصيح . وكان لابد لاحدى الطينات ، وهي تقارير المرشد المتتالية ، من أن تلصق بالحائط ، كما يقول التعبير العامي . فقد جاء هذا يزف الى صاحبه المحامي بشرى استدعاء مدير الزراعة في البلدة له ، واعلامه اياه أن بعثة تضم مسؤولين كبيرين في الوزارة هما رئيس دائرة الزراعات الموسمية والخبير الأول في الزراعة الصناعية ستجيء للتفتيش في المنطقة ، وتطلب مقابلته هو المرشد الزراعي سعد الدين بصورة خاصة . قال المرشد :

ــ كان مدير الزراعة يكلمني بلهجة احترام ما سبق أن سمعتها منه . حاول أن يعرف مني لماذا خصّني أعضاء البعثة بطلب المقابلة من دونه هو وبقية الموظفين ، فتجاهلت أسئلته . اتبعت نصيحتك لي بلزوم الكتمان . ستكون مفاجأة ودهشة كبيرة للدائرة ، وللبلدة كلها ، حين يجيئني من الوزير كتاب ثناء وتقدير لجهودي ...

مرة أخرى كتم الاستاذ سليم ضحكته للمهزلة التي انتهى إليها اقتراحه بكتابة التقرير الأول والتقارير التالية له . إلا أن القلق ما لبث أن دب الى نفسه من عواقب هذه المهزلة على الرجلين اللذين ورطهما هو فيها . على المسكين سعد الدين الذي لابد أن ينعكس عليه بالسوء اكتشاف موفدي الوزارة لجهله وتقصيره في أداء وظيفته ، ثم ما جره هذا التقصير وذاك الجهل من استهانة بمقام المسؤولين الكبار وتكبيدهم سفراً شاقاً الى هذه المنطقة النائية دون طائل . وعلى المسكين الآخر اسماعيل العبدالله الذي سينزل عليه بلاء الموظفين الزراعيين في البلدة لمخالفته الخطة وكذبه على الدولة ، وأكثر من ذلك لما تسبب به من توبيخ لهم وتقريع ومن عقوبات صارمة سيطبقها بحقهم رؤساؤهم الأعلون .

هذا عن قلق الاستاذ سليم . أما الرجلان نفسهما فكانا في نجوة من هذا القلق . فاسماعيل العبد الله لم يكن يدري غير أن المرشد الزراعي ، الذي كان يكثر التردد على حقله ويطيل التأمل في أعواد الذرة المتزايدة في النمو ، قد غض النظر عن مخالفته للخطة ، ولدوافع لاتهمه معرفتها بشيء . أما سعد الدين فكان ينام على ثقة من أهمية مشاهداته التي جندت الوزارة للاطلاع عليها كبيرين من خبرائها ، مترقباً الثناء الجزيل والمكافآت التي ستنهال عليه والتي ستعقب زيارة هذين الكبيرين لحقل اسماعيل العبد الله . الى أن جاء المرشد في ذات مساء الى المحامي ليعلمه بأن البعثة قد وصلت الى المدينة ، وأنه تلقى أمراً من مدير الزراعة بأن يكون في انتظارها في الغد في مضافة المختار ، قريباً من حقل اسماعيل العبدالله بالذات . ووجد الاستاذ سليم نفسه مسوقاً الى القول بأنه هو أيضاً سيكون هناك في الغد ، فقد شارك في حكاية الاكتشاف منذ بدئها ويريد أن يرى الى أين ستنتهي .

الى أين ستنتهي ؟ هذا ما ساءل به المحامي نفسه طيلة الليل . مهما كان عليه المسؤولان القادمان من جهل ، إذا كانا جاهلين ، فإن أعواد الذرة النامية في استقامة لن تلتبس عليهما بأغصان الفستق المفترشة للأرض .

ومع ذلك فان المحامي لم يتأخر عن أن يكون في مضافة المختار في الصباح في انتظار البعثة القادمة ، مع سعد الدين وجمهور كبير من الفلاحين . وحين وصل موكب البعثة الى المضافة كان أول ما صنعه مدير الزراعة أن استدعى سعد الدين الى حيث وقف الموظفان الكبيران فعرفهما به . ورأى المحامي رئيس دائرة الزراعات الموسمية يربت على كتف المرشد الزراعي بتحبب ، بينما كان يتحدث عن سروره بخصب موسم الفستق السوداني كما شاهده ورفاقه في مرورهم بين المزارع في سيارتهم هذا الصباح . كل هذا ، على ماقاله الموظف الكبير ، يبشر بتشغيل ممتاز لمعمل الزيت الذي أقامته الوزارة في المنطقة والذي بدأت التجارب الاختبارية فيه منذ ثلاثة أيام . وأضاف رئيس دائرة الزراعات الموسمية وهو يخاطب مدير الزراعة في البلدة :

ــ قل للمختار إننا سنعود لنشرب الشاي في مضافته بعد جولتنا في الحقول المجاورة . من الأفضل أن نتفقدها قبل أن تحمى الشمس . أين يقع الحقل الذي ذكرته في تقريرك ياسيد سعد الدين ؟

لم يكن حقل اسماعيل العبد الله يبعد كثيراً عن دار المختار حيث توقفت سيارات الحضور ، فأشار المرشد بيده إليه وتقدم أفراد البعثة في التوجه سيراً على الأقدام نحوه ، وهو مزهو بتميزه في ذلك عن كل الموكب بما فيهم رؤساؤه المباشرون . أما الاستاذ سليم فإنه راح يمشي وراء السائرين الهوينى ، مؤثراً أن يراقب ما يجري عن بعد ، والقلق يتعاظم في نفسه اذ كان هو وراء كل هذه الحكاية وما سيتبعها من مزعجات . وعندما قارب الوافدون أن يبلغوا الحقل الذي زرع فيه اسماعيل العبدالله ذرته الصفراء على أنها فستق سوداني كان قلق المحامي قد تحول الى تبكيت ضمير كاد ينكص له على عقبيه ، متراجعاً عن أن يرى بعينيه مغبة ما جره تدبيره . كاد ولم يفعل . لأن ما حدث بعد هذا صرفه عن كل ما كان يدور في نفسه وفي خاطره من مشاعر وتفكير ...

ماذا حدث بعد هذا ؟ لم يكن ما حدث متوقعاً ، ولا مفهوماً في حينه ، من الحاضرين . فقبل أن يعبر المسؤولان الكبيران الطريق الضيقة الى أرض اسماعيل العبد الله لحقت بهما سيارة قدمت لتوها من البلدة ، فوقفت حذاءهما وترجل منها ضابط شرطة

تلمع نجوم رتبته على كتفيه . مد يده إلى رئيس دائرة الزراعات الموسمية بورقة مكتوبة قائلاً :
ــ برقية مهتوفة سيدي أرجو أن تقرأها في الحال .

قطب رئيس دائرة الزراعات الموسمية حاجبيه لقراءة تلك الورقة وأعطاها لزميله الخبير الكبير في الزراعة الصناعية ، فقطب هذا حاجبيه بدوره لقراءتها . ومن دون أن يتقدم أحدهما بايضاح إلى الناس المجتمعين حولهما ، أدارا ظهريهما إلى حقل اسماعيل العبد الله وتوجها ، في مثل الهرولة ، إلى سيارتيهما وامتطياها ، فانطلقت تنهب بهما الأرض إلى مركز المدينة الصغيرة ثم بعد ذلك إلى العاصمة .

كان ذلك تصرفاً غريباً من الرجلين لم يعرف حاضرو تلك الصبيحة حقيقة دوافعه إلا بعد فترة زمنية طويلة . في يومها تضاربت الأقوال وكثرت التكهنات وتباينت المشاعر حول ما جرى . اسماعيل العبد الله مثلاً لم يؤثر فيه ذلك التصرف لا قليلاً ولا كثيراً . كان في نفسه بعض التساؤل عما ساق كل هذا الجمع إلى أرضه التي بدأت شباشيب الذرة الصفراء فيها بالتكاثف ، مقدمة لتحولها إلى عرانيس مكتنزة بحباتها الذهبية ، فحمد ربه على أن صرف عن هذه الأرض أصحاب السيارات الفارهة والبذلات الفرنجية المتعددة الألوان ممن لا يؤمل منهم أي خير . وسعد الدين ، المرشد الزراعي ، أصيب بمثل الذهول لسوء حظه الذي خطف ثمرة اكتشافه وأبعدها ، ولو مؤقتاً ، عن متناول يده . على أن اليأس لم يداخله . ربما تأجل فوزه بهذه الثمرة ، إلا أنه واثق من أن المسؤولين الكبار لابد أن يعودوا الى تقدير اكتشافه إذا لم يكن غداً ففي يوم لايبعد عن الغد كثيراً ...

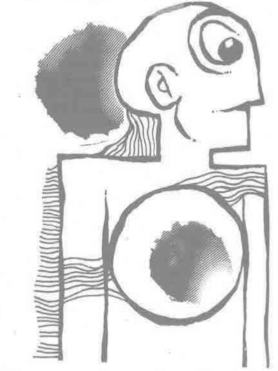
بقي الاستاذ سليم . لقد تنفس الصعداء ارتياحاً حين لف الغبار سيارات الموفدين ومرافقيهما وهي تنطلق مبتعدة عن أرض اسماعيل العبد الله . أياً كانت دواعي انصراف هذين الموظفين الكبيرين المفاجئ فهي تعني أن القناع لم يكشف عن المهزلة التي نسج هو ، الاستاذ سليم ، خيوطها العنكبوتية . ستنضج حبات الذرة الصفراء على أعواد القصب في حقل اسماعيل العبد الله ، وسيجني اسماعيل العرانيس ويأكل هو وأولاده بعضها ، ويطعم دوابه بعضها ، ويبيع منها قسمها الأكبر . ولن يتوقف بحال معمل زيت الفستق السوداني عن انتاجه لأن اسماعيل العبد الله خالف الخطة ولم يزرع بهذا الفستق بضعة دونمات من أرضه . فالذين اتبعوا الخطة من فلاحي المنطقة كثيرون ، وفي ما سيوردونه إلى المعمل من محصول هذه الثمرة غناء وكفاء ...

معمل زيت الفستق السوداني ؟ حين بلغت الأستاذ سليم الأنباء عن الأسباب الموجبة لانصراف الموظفين الكبيرين ذلك الانصراف المفاجئ ، لم يملك إلا أن يطلقها قهقهة عالية . تلك البرقية المستعجلة كانت تدعو رئيس دائرة الزراعات الموسمية وزميله الخبير الأول للزراعة الصناعية إلى أن يتركا ما في أيديهما من عمل ويلتحقا بالعاصمة لمقابلة فورية لا تحتمل التأجيل لسيادة الوزير الذي سيكون في انتظارهما ، حال وصولهما ، في أي دقيقة من دقائق الليل والنهار . أي أمر خطير وراء هذه الدعوة الملحة المفرطة في الاستعجال ؟!
ما تناهى إلى معرفة الاستاذ سليم من حقيقة هذا الأمر جعله يؤمن بأن لإسماعيل العبد الله حظاً كبيراً من رضى الله أن ألهمه مخالفة الخطة وأن يزرع أرضه ذرة صفراء لا فستقاً سودانياً . فما كان استدعاء ذينك المسؤولين إلا لأن معمل زيت الفستق السوداني ، الذي توليا هما نفسهما التخطيط لانشائه وأبرما المناقصات التي أدت إلى شراء تجهيزاته ، قد توقف عن العمل في أول دوراته التجريبية . تبددت هباء خطة الزراعة الصناعية التي بنيت عليها الآمال في سد حاجة البلد من الزيت النباتي ، وثبت أن علة تبددها هذان المسؤولان . فاستدعيا على عجل ليقدما حساباً على ما جنته أيديهما ، أو ما امتلأت به جيوبهما ، في مراحل التمهيد لانشاء ذلك المعمل وفي رسو مناقصاته وفي اقامته اقامة تبين أنها كانت على جرف هار ...

نعم انطلقت قهقهة الاستاذ سليم عالية حين عرف الدواعي الحقيقية لانصراف الموظفين الكبيرين المفاجئ . قال لنفسه : لقد ابتلع خداع كبار المسؤولين الضخم خدعة الفلاح الهزيلة وما كذب به على الدولة وخطتها . فالكذب مثل السمك يأكل كبيره صغيره . وها ان موسم الفستق كله لم يجد له شارياً ، إذ تعللت الادارة بألف علة لتتنصل من شرائه ، أو لتشتريه بثمن بخس يضيع به جهد الفلاحين ووقتهم . وحده اسماعيل العبد الله قطف ذرته الصفراء ليبيعها بالسعر الذي يعجبه بعد أن أطعم بذور الفستق السوداني أولاده . أما المرشد سعد الدين فإنه في سذاجته وطيبة قلبه لا يزال ينعى سوء حظه الذي حرمه فخر اكتشافه العلمي وما كان يأمل من مكافآت من ورائه . لم يدر المسكين أي شروقي بكذبة الموفدين الكبيرة إذ توقفت بهما عند حدود حقل اسماعيل العبد الله ، فلم تتح لهما اكتشاف الكذبة الصغيرة التي كان الحقل مسرحها ، حين زرعت أرضه فستقاً سودانياً وانبتت بدل الفستق ذرة صفراء ...

عبدالسلام العجيلي

الرقة ــ سورية



المَـثَّـال
محمود مختار

رائد فن النحت العربي المعاصر

بقلم: صبحي الشاروني

« من العسير على شباب اليوم أن يتصور دهشتنا وانبهارنا عندما بدأ الحديث عن مختار، فنحن الآن نتكلم كثيرا عن الفن وندرسه وننظم له المعارض ونناقشه ونصدر الأحكام، ولكن منذ خمسة عشر عاما كانت أمور الفن غريبة على الشباب المصرى غرابة اللغة السريانية، لقد كان مختار ظاهرة فذة، وكان حدثا معجزا أثار اعجابنا دون أن ندرك له تفسيرا، وكانت هذه الفجاءة وتلك الدهشة التى صاحبت ظهوره هى التى جعلتنا نسميه جميعا « النابغة » .. وعلى شباب اليوم أن يعلموا تماما أنه اذا كان الفن الآن معترفا به تشجعه السلطات الرسمية فاننا ندين بذلك لمختار ولن ينسى له هذا الفضل أحد: فهو دائما نابغتنا ... »

« من مقال لعميد الأدب العربي الدكتور طه حسين بعنوان « مختار ومصر » كتبه قبل وفاة مختار ونشر بالفرنسية بمجلة « آفور » بعد وفاته عام ١٩٣٥ »

عصر مختار

ولد طه حسين عام ١٨٨٩، وفى نفس الوقت ولد عباس محمود العقاد، وكان ميلاد المازنى عام ١٨٩٠، ثم ولد محمود مختار والرسام يوسف كامل عام ١٨٩١، بينما ولد سيد درويش والرسامان محمد حسن وراغب عياد عام ١٨٩٢، وكان ذلك فى ظل الاحتلال الانجليزى لمصر الذى بدأ عام ١٨٨٢.

الى هذا الجيل ينتمى مصطفى عبد الرازق، ومحمد حسين هيكل ومحمود عزمى وأحمد ضيف وأحمد صبرى ومجموعة المثقفين الذين تخصصوا فى القانون والطب والهندسة والعلوم، وتألق كل منهم فى ميدانه..

كلهم ولدوا فى الريف ثم انتقلوا الى العاصمة وتفاعلت مفاهيمهم الشرقية بمناهج الفكر والحضارة الأوربية، وكانت هناك روح واحدة تجمعهم واحساس مشترك يقرب بينهم لم يلبث أن تبلور فى الدعوة الى احياء المجد القديم وبعث الروح فى الشعب العربى مع الاعتزاز والشغف بالآثار والدعوة إلى الاستقلال والتحرر من الاحتلال الأجنبى، مهد لها شعر شوقى وحافظ ومطران، ثم خطب الزعماء السياسيين مصطفى كامل ومحمد فريد.. وسعد زغلول الذى تزعم ثورة ١٩١٩ الوطنية فى مصر. هذا هو عصر « مختار »... عصر النهضة بمثله العليا وتطلعه واشراقه، تبلورت مطالب العصر فترددت فى أعماله الفنية، ولاح فى تماثيله الأمل والاصرار والكبرياء كانعكاس لصورة العصر، وترجمة لكيانه الفكرى والسياسى، مجسما فى رموز تشكيلية جعلته واحدا من زعماء ثورة مصر الوطنية بعد الحرب العالمية الأولى.

وتعتبر حياة مختار نموذجا فى الكفاح له دلالات عميقة، فهو أحد القلائل الذين حققوا لبلاده ذاتية قومية، وردوا اليه الثقة فى نفسه، فكان أثره فى مجال الفنون كأثر الشيخ محمد عبده فى مجال الاصلاح الاجتماعى، وأثر سعد زغلول فى مجال الزعامة السياسية وأثر طلعت حرب فى المجال الاقتصادى، وأثر الدكتور طه حسين فى المجال الفكرى والفلسفى.

بين القرية والحارة

ولد « محمود مختار » فى بلدة « طنبارة » وهى قرية بالقرب من مدينة المحلة الكبرى بوسط الدلتا كان ميلاده يوم ١٠ مايو عام ١٨٩١.. أبوه هو « الشيخ ابراهيم العيسوى » عمدة القرية، ولم تكن أمه هى الزوجة الأولى، كما كانت تصغر أبيه بشكل ملحوظ، ولم تلبث الخلافات أن نشبت بين الزوجات، فانتقل مختار ليعيش مع جدته

تمثال نهضة مصر ـ حجر جرانيت وردي



الحزن ـ بازلت



ابن البلد ـ برونز



بنت الشلال ـ برونز



لأمه في بيت خاله بقرية « نشا » بالقرب من مدينة المنصورة حيث تعلم في كتّابها .

وعرف عن مختار أنه خلال طفولته بالريف كان يقضي معظم وقته بجوار الترعة يصنع من طينها أشكالا وتماثيل تصور بعض المشاهد التي يراها في قريته مثل النسوة وهن يحملن الجرار ، أو حيوانات الحقل وهي تجر المحراث أو تدرس القمح ، وغير ذلك من مشاهد الريف .

واجتاح وباء الكوليرا قرى مصر في منتصف العقد الأخير من القرن الماضي فحصد الأطفال ، لكن مختارا نجا ، ومعه أقطاب هذا الجيل الذين صنعوا تاريخ مصر في الربع الأول من القرن العشرين وما أن انزاح وباء الكوليرا حتى عاد الى أحضان أمه التي انفصلت عن أبيه وانضمت الى بيت أسرتها في قرية « نشا » .. ويواصل الصبي حياته كأبناء الفلاحين ، يتعلم في الكتاب ويخرج الى الحقل مع ذويه يتعلم فنون الاشراف على الزراعة وممارستها .

واستمع الصبي لحكايات الفلاحين ، وكانت من بينها حكاية عن جده الذي نفي الى السودان في عهد حكم الخديوي اسماعيل ، لتمرده على الظلم الذي وقع على الفلاحين من أجل جباية الضرائب ، وكانت قصة هذا المنفي تروى اليه بصياغات مختلفة كأنها من الأساطير ، ويضاف اليها حكايات عن حياته في المنفى وكيف علم أهل السودان الزراعة وأرشدهم الى صناعة الشواديف لرفع الماء . وهكذا تداخلت قصة الجد مع الأسطورة المصرية القديمة عن « أوزوريس » الذي علم سكان مصر الزراعة قبل بداية التاريخ .

وقررت الأم أن تنتقل الى القاهرة للعلاج الذي قد يطول .. وطلب مختار أن يلحق بها ، لكنه لقي معارضة أقاربه .. حتى عزم أمره على السفر هاربا بمفرده .. وفي الطريق قابله خاله الشيخ « محمد أبو غازي » (والد المرحوم بدر الدين أبو غازي) ، فيرأف بحاله ويصحبه الى أمه التي كانت تقيم في حي « الحنفي » بجوار حي عابدين .. كان ذلك عام ١٩٠٢ ولم يبلغ مختار عامه الحادي عشر ، فيلتحق باحدى المدارس الابتدائية ليكمل تعليمه .

انتقل مختار الى القاهرة ليعيش في بيئة تسودها تقاليد الحارة المصرية ، حيث يختلط السكان ويتعاونون مهما تفاوتت مستوياتهم ، التلاميذ وأصحاب المتاجر والصناع والموظفون ، هذه البيئة الشعبية تحوطها عمارة القاهرة الاسلامية بفنونها العريقة ، فتبهره مآذن مساجدها ، ويتعلم من أبناء الحي أكثر مما يتعلمه في المدرسة .

كانت طفولته في الريف تطل على الحقول الواسعة المنبسطة والحياة بايقاعها البطيء ، وفي القاهرة كان الضوء الساطع بالنهار يعكس ظلالا حادة على زخارف عمارة المساجد والبيوت القديمة ، فتوقظ لدى الصبي الحسّاس الرغبة في التشكيل المجسم ، وتثير حاسة اللمس لديه ، وتوقظ الرغبة في تحسس هذه الزخارف المجسمة .. فالاضاءة القوية والحياة معظم الوقت خارج الأماكن المغلقة تحققان الميل الى التجسيم واقامة الأشكال ذات الأبعاد الثلاثة القادرة على إعطاء مماثل صادق لهذه البيئة .

مدرسة الفنون الجميلة

وتتمنى الأم أن يلتحق ابنها بالأزهر ، لكنه يحس ميلا فطريا نحو الفن ، ولا يعرف الى أين يتجه .. وتفتح مدرسة الفنون الجميلة المصرية أبوابها عام ١٩٠٨ بحي درب الجماميز القريب من منزله ، فيسرع الى الالتحاق بها ، ويكون أول طالب يتقدم اليها .. وتبدأ مسيرة مختار مع الفن .

الأمير « يوسف كمال » من أمراء الأسرة المالكة هو الذي انفق على افتتاح هذه المدرسة ، وهذا جانب ايجابي يذكر له ، وقد اتجه الى وقف أمواله وثروته على تدريس الفن وارسال المبعوثين لدراسته بأوروبا .. بالطبع كان هدفه من ذلك خلق جيل من الفنانين المصريين يحلون مكان الفنانين الأجانب في تزيين القصور والمباني .. لكن التطورات السياسية لم تسمح بتحقيق هذا الهدف ، فسرعان ما اشتعلت الحركة الوطنية ضد الاستعمار الانجليزي (قوات الاحتلال) وانعكس ذلك على فن مختار في التماثيل التي أقامها للزعماء السياسيين « مصطفى كامل » و « محمد فريد » وكانت هذه التماثيل تحمل في المظاهرات والجنازات وتتصدر مواكب الشباب .

ومن ناحية أخرى ألهبت البطولات العربية خيال الفنان الشاب فأقام تماثيل تصور « طارق بن زياد » و « عمرو بن العاص » ثم « خولة بنت الأزور » وهي البطلة العربية التي حررت نساء قبيلتي « تبع » و « حمير » من أسر الروم ، وكانت على هيئة امرأة تمتطي جوادا وتطعن بالرمح وتشبه من بعض الأوجه « جان دارك » الفرنسية .

هذا الى جانب استعادته لمشاهد الريف يسجلها صورا وتماثيل ، خاصة التماثيل الفكاهية لابن البلد ووجوه زملائه ، وكانت هذه الروح المرحة وخفة الظل من العناصر التي لفتت الى موهبته الأنظار باعتباره متمكنا وقادرا على تشكيل أي تمثال وأية فكرة تخطر له .

انهمك مختار في فنه حتى أطلق لحيته ولبس « البيريه » كغطاء للرأس وارتدى ملابس البوهيميين الفرنسيين ، وكان فخورا بتشجيع أستاذه النحات الفرنسي « المسيو لابلانى » ناظر المدرسة وصاحب فكرة اقامتها : فهو لم يكن فنانا مغمورا في بلده فرنسا وانما كان مديرا لأحد متاحفها ، دعاه الأمير يوسف كمال فلبى دعوته ، وعندما اقترح على الأمير فكرة انشاء هذه المدرسة وحصل على الموافقة كان يريد أن يثبت صواب فكرته ، ووجد في مختار أفضل برهان ودعامة لما يهدف اليه .. ومن هنا التقت الموهبة بالرعاية الحقة والحماس مع الكفاءة .

ورغم هذا لم يمتنع مختار عن المشاركة في الحياة السياسية ، فخرج في المظاهرات المطالبة بالاستقلال عام ١٩١٠ واشتبك مع عساكر الانجليز ، وعندما تدخل « قومندان » البوليس « مانسفيلد » الذي كان يتولى منصب « حكمدار » القاهرة ، اندفع محمود مختار الى حصانه يجذبه من ذيله بكل قوته ، فيهوى براكبه على الأرض .. ويقبضون على مختار مع عدد من المتظاهرين يودعونهم السجن لمدة خمسة عشر يوما .

وما ان تنتهي موجة المظاهرات حتى توضع لوائح جديدة لنظام الدراسة بالمدرسة ، ويظهر اتجاه لوضعها تحت اشراف الجامعة المصرية من يوليو الى أكتوبر عام ١٩١٠ .. فقام الطلبة بحركة احتجاج عنيفة أدت الى فصلهم ، فافتتح مختار وزملاؤه المفصولون مرسما بجوار المدرسة يمارسون فيه فنهم ، حتى تغيرت الأوضاع ودخلت المدرسة تحت اشراف وزارة المعارف ، وألغى قرار الفصل ليعودوا الى الانتظام في الدراسة ، وقد ضمت هذه الحركة ١٥ طالبا يمثلون خلاصة النبوغ في المدرسة ، كان من بينهم محمد حسن ويوسف كامل ويتزعمهم محمود مختار .

وهناك قصة حب غامضة بين فناننا واحدى قريبات أستاذ فن التصوير في المدرسة « باولو فورشيلا » .. لكن هذه القصة انقطعت عندما تقرر سفر مختار الى باريس عام ١٩١١ .

لقد كتب « مسيو جيوم لابلانى » تقريرا عن نبوغ مختار الذى ظهر بوضوح فى المعرض الأول الذى أقيم لأعمال الطلبة ، وكان من بين المعروضات تمثال كاريكاتيرى لابن البلد أقبل المشاهدون على اقتنائه وباع منه ثمانى نسخ من الجبس بسعر جنيهين ذهبيين للنسخة الواحدة .. ووافق الأمير على تقرير « لابلانى » وقرر أن يبعث مختار الى باريس لاتمام دراسته ويتولى الانفاق عليه .

سافر مختار الى باريس وهو يعرف ان هذه هى فرصته لتحقيق أحلامه .. ويضع بيتين من الشعر كشعار لجهاده يقول فيهما :

أعلل نفســي بـــالمعالي تخيلا
فــيــالــيت آمــال الخيــال تكــون
ســأرفــع يــومــا للفنــون لــواءهــا
ويــبقــى لــذكــراهــا بمصر رنــين

فى باريس

يتقدم مختار للالتحاق بمدرسة الفنون الجميلة الفرنسية « البوزار » مع أكثر من مائة متقدم جاءوا من فرنسا ومن سائر أنحاء الأرض ، ويفوز مختار عليهم جميعا ، فيجيء ترتيبه الأول ، وينال اعجاب أستاذه الجديد « كوتان » ويشجعه راعيا لموهبته .

والفنان « كوتان » هو صاحب التماثيل البرونزية التى تزين كوبرى الاسكندر بباريس ، فهو ليس مجرد معلم فن وانما فنان مرموق أيضا . وقد تتلمذ مختار أيضا على يدى الاساتذة « مرسسييه » و « انجلبرت » وبدأ يتطلع الى الفنانين الكبار ، ويتقدم عام ١٩١٣ الى المعرض السنوى للفنانين الفرنسيين (صالون باريس) بتمثال يصور شخصية « عايدة » بطلة أوبرا « فردى » التى تحمل نفس الاسم .. فيقبل التمثال فى المعرض وتتحدث عنه بعض صحف باريس .

يتنبه الفنان على الشاطىء الآخر من المتوسط الى القيمة الفنية للتراث النحتى فى الآثار المصرية القديمة .. كانت دراسته حتى سفره تتطلع الى النموذج الاغريقى والرومانى فى فن النحت ، لكنه فى باريس لمس الاحترام والتقدير الشديدين للتراث النحتى المصرى القديم .. فيعود الى القاهرة وهو فى الثانية والعشرين خصيصا ليشاهد الآثار المعروضة فى متحف « الانتكخانه » كجزء من دراسته التى وجهه اليها أساتذته فى باريس . ويعرضون عليه خلال هذه الزيارة أن يعمل ناظرا لمدرسة الفنون الجميلة المصرية مكان أستاذه « لابلانى » الذى قرر العودة الى وطنه ..

فيرفض رغم اغراء المنصب لأنه لا يزال فى بداية الطريق ولأنه اختط لنفسه طريقا قد تعوقه قيود المناصب ، ويعود الى باريس بينما نذر الحرب العالمية الأولى تتجمع .. وهناك بدأت المتاعب عندما توقف عنه راتبه الذى يبعثه الامير بسبب انقطاع طرق المواصلات وتعثرها بسبب الحرب .

ويضطر مختار الى الاشتغال بعض الوقت شيالا فى مصانع الذخيرة ليعوض راتبه ، لكنه لا يكف عن الدراسة أو الانتاج الفنى ، حتى يلقاه مصادفة أستاذه الأول « المسيو لابلانى » فيدعوه ليحل مكانه فى ادارة « متحف جريفين » « للتماثيل الشمعية والمقام فى حي « مونمارتر » ، لأن المسيو لابلانى بلغ سن التقاعد . ويقبل مختار هذه الوظيفة التى تعوضه عن العمل فى مصانع الذخيرة . وتضعه فى موقع مرموق على رأس أهم متاحف الشمع فى العالم الى جانب متحف « مدام توسو » فى لندن . واستمر فى هذا العمل طوال عامى ١٩١٨ ، ١٩١٩ .

فى هذه الفترة اهتم المتحف بعمل تماثيل لأبطال الحرب وقادة أوربا وأمريكا وقتئذ أمثال « كليمنصو » و « ولسن » و « جوفر » الى جانب اقامة تماثيل للمجموعات مثل « حلم هليوبو » و « عودة الجنود الى باريس عند النصر » لقد أتاح له عمله بالمتحف أن يشهد جلسات مؤتمر السلام ويتابعها مسجلا ملامح وجوه أقطاب المؤتمر .. هذا الى جانب تماثيل مشاهير الفنانين والفنانات فقد أقام تمثالا لأعظم راقصة باليه فى مطلع القرن العشرين هي : « أنا بافلوفا » .. وفيما بعد أقام تمثالا « لأم كلثوم » باعتبارها أشهر فنانة مصرية .. وكانت قد انبعثت من صميم الريف مثله تماما تشق طريقا قاسيا فى ميدان فن الغناء .. محملة بالروح الريفية الطبيعية .. وقد تحمس لها ، فصورها فى تمثال يفيض بالرقة والشجن والجمال من الشمع ثم أقام لها تمثالا آخر عرضه فى باريس عام ١٩٢٥ بينما كانت أم كلثوم فى مطلع حياتها الفنية

تمثال نهضة مصر

بعد انتهاء الحرب العظمى (١٩١٤ — ١٩١٨) بدأت تتجمع نذر الثورة على الاستعمار الانجليزى فى مصر تحت شعارات ثلاثة : الاستقلال والعدالة والدستور .. وبدأ يتكون حزب الوفد بزعامة سعد زغلول ، وكان للحزب تنظيمه السرى الذى أطلق على نفسه اسم « اليد السوداء » .

وكان أعضاء هذا التنظيم يقودون حركات المقاومة للاحتلال الانجليزى ، فاذا انكشف أمر أفراده هرب الى فرنسا حيث يستكمل دراسته اذا كان طالبا ويواصل نشاطه فى الدعوة الى قضية الاستقلال بين بقية المصريين هناك ، وفى المناسبات الدولية التى كانت تعقد فى باريس .

كان مختار ابن العمدة يلقب بين أصدقائه باسم « العمدة » وكان يسبق هؤلاء المجاهدين فى معرفة باريس وطباع الفرنسيين .. يعرف اللغة والكثير من الشخصيات الهامة الفنية والسياسية .. كان هؤلاء يكونون « الجمعية المصرية » التى تتولى الدعاية ضد الاستعمار الانجليزى فى مصر وتلقى معاونة مختار « العمدة » ومدير متحف « جريفين » .

ووضع الفنان فكرة تمثال « نهضة مصر » . وعرض النموذج المصغر على زملائه من الطلبة المصريين فى باريس فتحمسوا له وجمعوا التبرعات فيما بينهم لينفذ الفنان هذه الفكرة فى الرخام .

وعندما سافر « الوفد المصرى » برياسة سعد زغلول الى باريس للدعوة لقضية استقلال مصر ، يتعرف أعضاء الوفد على مختار وعلى نهضة مصر ، فيعودون الى القاهرة متحدثين عن الفنان « النابغة » وعن تمثاله ، وتبدأ الحملة للتبرع لاقامته فى أحد ميادين القاهرة .

ويتقدم الفنان بتمثاله الى معرض صالون باريس ، فيكون ضمن ٦٠ تمثالا تم قبول عرضهم بالمعرض الكبير من بين ألفى تمثال تم تقديمها .

لقد كان أول معرض صالون يقام فى باريس بعد توقف طوال فترة الحرب ، وقد افتتحه رئيس الجمهورية الفرنسية ، واذا بالطلبة المصريين يصطفون هاتفين للتمثال ولاستقلال مصر خلال موكب رئيس الجمهورية ، ويفوز المثال باحدى جوائز المعرض ، ويتحدث عنه نقاد الفن على صفحات « الفيجارو » و « الالستراسيون » و « الطان » و « المجلة الحديثة للفنون » .. فتهتز مصر فخرا وطربا بالفلاح « محمود مختار » ابن القرية ، الذى قدم تمثالا يعبر فيه عن مطالب بلاده .. كان ذلك عام ١٩٢٠ عندما قرر مختار أن يعود الى الوطن .

وتصاحب عودة مختار حماسة شعبية تنعكس فى حركة الاكتتاب لاقامة التمثال .. فقد نشر « مجد الدين حفنى ناصف » مقالات متتابعة بجريدة « الأخبار » عن محمود مختار والنهضة الفنية فى مصر .. وتوالت المقالات

المثال محمود مختار

رائد فن النحت العربي المعاصر

التى تدعو المواطنين للاكتتاب : الدكتور حافظ عفيفى والاستاذ أمين الرافعى وويصا واصف باشا وواصف بطرس غالى ومحمد حسين هيكل ومصطفى صادق الرافعى ومي وابراهيم عبد القادر المازنى .. ومن الشعراء مطران وشوقى وأحمد زكى أبو شادى ومحمد عبد الغنى حسن ..

وعرض نموذج التمثال بدار جريدة « الأخبار » التى كان يملكها المرحوم « أمين الرافعى » وارتكزت الدعاية لمختار ولاقامة تمثال نهضة مصر فى نقطتين عبر عنهما صاحب جريدة الاخبار أصدق تعبير .. الأولى : اقناع العالم بأن مصر لاتزال تعنى بالفنون الجميلة فهى ساعية الى استعادة مجدها القديم . والثانية : الاعلان عن القضية المصرية بطريقة تلفت الانظار أفضل من غيرها .

ووقف الخطباء يشيدون بعبقرية الفنان ، والناس يصفقون لمختار النابغة ، وظهر بين رجال الازهر دعاة لاقامة التمثال ، وكان منهم من يجمع التبرعات عقب صلاة الجمعة .. وهكذا جمعت لجنة التمثال ٦٥٠٠ جنيه من القرى والمصانع والمدارس ومن دواوين الحكومة ومكاتب الوزراء .. وكانت اللجنة برئاسة رشدى باشا وعضوية ويصا واصف وحافظ عفيفى وواصف غالى وعبد الخالق مدكور وفؤاد سلطان وأمين الرافعى وعبد القوى أحمد ومحمود خليل .. ورأت اللجنة أن ينفذ التمثال من البرونز ، لكن محمود مختار رأى ان يصنع التمثال الكبير من حجر الجرانيت الوردى ، من محاجر أسوان التى اقتطعت منها أحجار تماثيل قدماء المصريين .

وطلبت لجنة التمثال من الحكومة الترخيص باقامته فى ميدان محطة السكة الحديد الرئيسية بمدخل العاصمة (ميدان باب الحديد .. وهو « ميدان رمسيس ») . فقرر مجلس الوزراء فى ٢٥ يونيو ١٩٢١ الموافقة على ذلك ، وان يكون إنشاء القاعدة واقامة التمثال تحت اشراف وزارة الاشغال ، التى تتولى بقية النفقات بعد نفاد التبرعات .

لقد احتل تمثال نهضة مصر فترة فى تاريخ الحياة المصرية امتدت من سنة ١٩٢٠ حتى ١٩٢٨ واقترنت بصراع بين القوى الشعبية الممثلة فى حزب الوفد ، يؤازرها المفكرون والمثقفون الذين تحمسوا لفكرة التمثال وضرورة اقامته من جانب ، وبين الذين حاربوا الفكرة الممثلة في الأحزاب الخارجة على الوفد التى عملت على تعطيل اقامته خلال توليها الوزارة وكانت تعرف باسم « حكومة الاقلية » ، من جانب آخر .

وهذا شأن العمل العظيم ، فهو يعبر أصدق تعبير عن فكرة احياء المجد القديم التى كانت تسيطر على مفكرى ذلك الوقت ، سواء فى رموزه أو فى خامته ، فحجر الجرانيت لم يستخدم منذ قدماء المصريين فى اقامة التماثيل قبل « نهضة مصر » . بينما أبو الهول يهم واقفا وتعتمد عليه الفلاحة التى ترمز الى « مصر الزراعية » .. بعد أن كانت تماثيل الميادين وقفا على الحكام والقادة .

فالفنان فى أرفع صوره هو قلب أمته ، يستجيب لافراحها ويترجم آمالها ، وكان هذا التمثال مطلبا شعبيا ، فتخطى كل العقبات وأزيح عنه الستار يوم ٢٠ مايو عام ١٩٢٨ . وقد حضر الملك حفل ازاحة الستار وهنأ مختار على عمله العظيم .

وتنازل الفنان عن مستحقاته المالية التى حكم له بها القضاء ، فان تمثاله عمل قومى مواز للنهضة وليس مجرد تعبير عنها ، لذلك كان يردد دائما : « لست صاحب التمثال بل الشعب هو صاحبه » .

من أجل الفن

واصل الفنان ابداعه باحساس غامر بالتفوق والتقدير بعد أن لمس حب مواطنيه وتقديرهم له . لكن مختارا كان صاحب دعوة ورائد طريق ، لايقف عند حد انتاج أعماله الفنية وانما يمد جهوده الى ميادين أخرى ، هى ميادين الدعوة الى تذوق واحترام الفن وانشاء المؤسسات التى تتطلبها النهضة الجديدة من أجل اقرار مكانة الفن فى المجتمع .

لقد كان من أقطاب حزب الوفد ، فهو شخصية عامة لها قوتها وسطوتها وان لم يشترك فى الحياة السياسية اشتراكا مباشرا ، لكنه كان ينشر فى الصحف من حين لآخر آراءه النقدية ويعلم القراء كيف يفرقون بين أنواع الفنون ومدارسها بشكل مبسط يتلاءم مع المستوى الثقافى العام فى العشرينات من القرن الحالى .. ولعل الحوار الذى دار بينه وبين العقاد والمازنى على صفحات مجلة « السياسة » حول تمثال نهضة مصر الذى كانا ينتقدانه بشدة هو أول نقد فنى ظهر فى صحافتنا العربية .

كما نادى مختار بضرورة اقامة المدارس الفنية وانشاء المتاحف وجمعيات الفنون مع العناية بالبعثات الفنية .. كما حرص على توفير جو الحرية الذى يتيح للفنان أن يعبر بشجاعة عن رأيه وأن يبرز موهبته دون أن يخضع لقيد أو سلطان غير ضميره الفنى .

والى هذا الفنان الرائد يرجع الفضل فى ايجاد جهاز مختص بالفنون الجميلة فى مصر ، وبدء البعثات الرسمية لدراسة الفن ، وتخصيص اعتمادات فى ميزانية الدولة للفنون . وقد ساهم فى تنظيم « مدرسة الفنون الجميلة العليا » عام ١٩٢٨ ، وانشاء الجمعيات الفنية واقامة المعارض الدورية ، فهو الذى بث معالم الفن فى حياتنا الثقافية ، ورغم الحاح الكثيرين فى أن يتولى مختار مناصب الفن الرسمية فى بلاده ، ورغم العروض المغرية لتولى مناصب مماثلة فى فرنسا ، فانه كان يؤمن بأن السلطة الزمنية قبر الموهبة ، وان الوظيفة قيد على حرية الفنان ، فرفضها جميعا رغم مامر بحياته من ظروف عصيبة ، وآثر أن تكون له سلطة الرأى عن أن تكون له سلطة المركز .

لقد تميز الجيل الذى ينتمى اليه مختار



حارس الحقول

بزهد وتضحية وبعد عن الماديات واخلاص للفن وسعي لنشره فكان محيط أصدقائه واسعا شاملا ، من بينهم أسماء مشهورة مرموقة عرفت بنشاطها العام مثل : عزيز المصرى والدكتور على ابراهيم وطراف على وويصا واصف وحافظ عفيفى وعثمان محرم وبهى الدين بركات وعبد الحميد بدوى وعلى الشمسى وشوقى وحافظ ومحمود عزمى وحسين هيكل وطه حسين وصبرى السوربونى وسيد كامل ... وغيرهم ممن لم ينالوا شهرتهم لكن كان لهم اهتمامهم وحماسهم للفن والثقافة .

وقد شارك فى « الجمعية المصرية للفنون » التى كونها عام ١٩٢٣ الفنانون راغب عياد ويوسف كامل وعددٌ من شباب الفنانين مع تشجيع سيدات المجتمع وعلى رأسهن السيدة هدى هانم شعراوى .. وبعد فترة قصيرة تكونت جمعية محبى الفنون الجميلة على يدى فؤاد عبد الملك .. وفى ١٩٢٧ كون محمود مختار « جماعة الخيال » وكان من بين أعضاء هذه اللجنة : العقاد والمازنى ومحمود عزمى ومي زيادة .. وبأقلامهم كتبت مقالات النقد الفنى فى الصحافة وتأصّل الايمان بفكرة الدور الايجابى للفن فى المجتمع .

وفى نفس الوقت عمل على تخصيص عدد من البيوت المواجهة لدار الآثار المصرية لمراسم الفنانين فى محاولة لايجاد حي مشابه للأحياء التى يشغلها فنانو باريس وتحقيق جو فنى مماثل يوحى بالابداع ويشجع على مواصلة الانتاج الفنى .

فى هذه المرحلة من ١٩٢٣ حتى ١٩٣٠ أقام الفنان معظم تماثيله الصغيرة وابتدع نماذج مصغرة للتماثيل الصرحية التى كان يحلم باقامتها .. سبع سنوات فقط تخللها توقف وانقطاع بسبب المشاكل التى واجهها اثناء إقامة تمثال نهضة مصر هى سنوات الابداع والتألق التى انتج خلالها مجموعة تماثيله التى بقيت بعد رحيله .

معرض باريس

حقق مختار مكانته وأصبحت كلمته مسموعة ، ونظر رجال الدولة نظرة احترام وتقدير لكل كلمة يقولها . لقد أصبح زعيما لالتفاف الجماهير حوله والاعجاب العام به . وعندما أقامت جماعة الخيال معرضها الثانى فى مرسم الفنان المستشرق « روجيه بريفال » اشترى رئيس الوزراء أحد تماثيل مختار ، كما اقتنت سيدة امريكية تمثالا آخر أهدته الى متحف « المتروبوليتان » « بنيويورك فيما بعد .

وفى أواخر عام ١٩٢٩ سافر الفنان الى باريس حيث شارك فى معرض « صالون باريس » بتمثاله « عروس النيل » المنحوت فى الرخام ، فنال عنه الميدالية الذهبية ، وأعلنت الحكومة الفرنسية قرارها بشرائه ليوضع فى « متحف لوكسومبرج » وهو متحف للنحت المعروض فى حدائق واسعة حيث تشاهد التماثيل بين الخضرة ومياه النوافير والبحيرات الصناعية .

وفى ١٠ مارس عام ١٩٣٠ ومع بداية فصل الربيع أفتتح معرض كبير لتماثيل محمود مختار ضمّ أربعين عملا ، واستمر حتى ٢١ مارس فى قاعة برنهيم بباريس . فأفاضت الصحافة الفرنسية والامريكية والبلجيكية والانجليزية وكذلك صحافة بلاد الشمال فى الحديث عن المعرض باعتباره ممثلا لوجه الفن المصرى المعاصر ومؤكدا لشخصية مختار الفنية القديرة . ووضع على نفس المستوى الابداعى للفنانين المشهورين : رودان ، ومايول وبورديل .. وكتب أحد كبار النقاد قائلا : « فى زمن الخداع واهتزاز عناصر التقدير الفنى ، مازلت القيم الجادة تحيا ، وهانحن نلمسها فى أعمال مختار المصرى » .

ونقلت الصحافة المصرية كل ما أثاره انتصار الفنان وتقدير معرضه الى الرأى العام .. ودُعي رسميا الى اقامة تمثال « سعد زغلول » ، فأستقبل الفكرة بحماس وعاد الى مصر ليعمل ليلا ونهارا فى اعداد النماذج المصغرة ، حتى وضع تصميما لصرح يسجل مرحلة من تاريخ الشعب العربى فى مصر وكفاحه وطموحه ، يجمع رموزا تصور كفاح الشعب وطوائفه المختلفة والقيم والمثل التى جاهد من أجلها ممثلة فى : « الحرية والعدالة والدستور » . وبدأ تشييد تمثال فى القاهرة وآخر فى الاسكندرية لكن بعد عام ١٩٣٠ واجه المفكرون نكسة عنيفة مع بوادر الأزمة الاقتصادية العالمية ، صاحبها تقييد حرية الرأى والغاء الدستور.. فدخل عباس محمود العقاد السجن متهما بالعيب فى الذات الملكية ، وطرد الدكتور طه حسين من كلية الآداب ، واستقال



القراء الثلاثة



لطفى السيد من الجامعة ، وفصل حافظ ابراهيم من دار الكتب . وحاولت الحكومة وقف العمل فى اقامة تمثالى « سعد زغلول » بالقاهرة والاسكندرية رغم أن التعاقد مع محمود مختار على اقامتها يرجع الى عام ١٩٢٧ .

توقف نقل أحجار الجرانيت ، وانصرف مختار الى نحت تماثيله الصغيرة للفلاحة حاملة الجرة وحاملة السلال والفلاح يحمل عصاه أو فأسه . وكان الفنان يقرأ سيرة الفنانين العظماء « ميكل انجلو » و« فيدياس » ويتأمل ما لاقوه من معاصريهم ، ويسجل ذلك فى خطاباته الى أصدقائه .. لكن التمثالين يقفان الآن أحدهما مطلا على كوبرى « قصر النيل » بالقاهرة والآخر ينظر الى البحر الابيض المتوسط « بميدان محطة الرمل » بالاسكندرية ليعبران عن مرحلة من مراحل جهاد الشعب العربى فى مصر من أجل الحصول على حريته واستقلاله ، فقد تجاوز بهما الفنان فكرة تخليد قائد ثورة ١٩١٩ الى تخليد ذكريات مرحلة كاملة من مراحل هذا الشعب . وهذا هو الدور الحقيقى للنحت الميدانى .. أن يكون ذاكرة الأمة .

ورحل عدد من أصدقاء الفنان ، مات ويصا واصف باشا وكان صديقا ، ومات الشاعر أحمد شوقى وحافظ ابراهيم الذى كان يألف صحبته ، وأصيب الفنان فى يده ، فعاش موزعا بين الاطباء ، وكان يحلم باقامة تمثال للاسكندر الأكبر فى الاسكندرية وآخر لاحمد عرابى وثالث للملكة كيلوباترا .. لكن المرض لم يمهله ، ومات يوم ٢٧ مارس عام ١٩٣٤ .

بدأت أعماله الفنية تعيش بعده حياة جهاد تشبه حياة صاحبها .. وتكونت جماعة أطلقت على نفسها اسم « أصدقاء فن مختار » لترعى فنه وتحيى ذكراه .. وكانت ترأسها السيدة هدى هانم شعراوى التى كانت راعية للفن عطوفة على الفنانين .

أصدقاء فن مختار

اتجهت جماعة أصدقاء فن مختار الى اقامة متحف لحفظ تراثه ومقبرة لرفاته ، ولاقت الفكرة ترحيبا وتعاونا من عائلة الفنان وورثته الذين تنازلوا بغير تردد عن الأعمال الفنية التى تركها فى باريس وفى القاهرة من أجل تنفيذ الهدف .

وأرسلت الجمعية مندوبين عنها الى باريس لنقل تماثيله الى القاهرة ، وشاركت وزارة المعارف من جانبها فى تكريم ذكرى الفنان بتخصيص جزء من حديقة متحف الفن الحديث بالاضافة الى مبنى صغير ملحق به ليكون مقرا مؤقتا لمتحف مختار .. وقد افتتح رسميا يوم ٢٧ مارس عام ١٩٥٢ فى ذكرى رحيله .

ولم تكتف السيدة هدى شعراوى وجماعة اصدقاء فن مختار باقامة هذا المتحف المؤقت وانما أعلنت عن مسابقة سنوية لفن النحت بين المثالين للكشف عن مواهبهم وتشجيعهم لمواصلة طريق الفن الذى بدأه مختار ، وعرفت هذه المسابقة باسم جائزة مختار للنحت التى خصصت لها جوائز ماليه سخيه تشجيعا لشباب الفنانين ..

بدأ الاعلان عن هذه المسابقة من العام التالى لوفاة مختار ١٩٣٥ واستمر الى أن رحلت السيدة هدى شعراوى عام ١٩٥٣ ، وقد كشفت هذه المسابقة عن العديد من المواهب فى هذا الفن التى تألقت بعد الفوز بهذه الجائزة .

ولم تلبث وزارة الثقافة أن أقامت مبنى خاصا لمتحف محمود مختار فى حديقة الحرية بأرض الجزيرة افتتحه الدكتور ثروت عكاشه نيابة عن رئيس الجمهورية يوم ١٤ يوليو عام ١٩٦٢ حيث يعرض كل ماتبقى من تماثيله ، بالاضافة الى أدواته وأوراقه ..

وقد أعادت وزارة الثقافة منذ عام ١٩٨٣ الاعلان عن مسابقة مختار السنوية فى النحت ، لكنها لم تقدم حتى اليوم موهبة واضحة فى هذا الميدان على مدى السنوات الأربع الماضية .

بلاغة الصمت

لابد أن نتوقف قليلا أمام مميزات أعمال هذا الفنان الرائد ، فقد اضاف الى تراثنا القديم فى هذا الفن تراثا حديثا ، وقد تحول النحت على يديه الى فن رفيع بعد أن كان مجرد حرفه كالنجارة والحدادة ، لهذا يعتبر فنه نقطة البداية للنحت العربى المعاصر ، وهى بداية محملة بعراقة الاستمرار واصالته التى تقدم خلاصة تقاليد هذا الفن فى الحضارات المتعاقبة المنصهرة فى نفسه بعد أن تلاقت مع تجارب الفن الحديث وما استخلصه الفنان من مميزات كانت مصدر ثراء لأسلوبه الخاص .

لقد ظهر النحات الفرنسى « اوجست رودان » (١٨٤٠ ــ ١٩١٧) الذى يعتبر فنه بداية النحت الحديث فى اوربا ، وقد عاش مختار فى فرنسا فى ظل التأثير الطاغى لهذا النحات الكبير الذى اشتهر على المستوى الأوربى بواقعيته الرومانسية ..

كذلك النحات الفرنسى « ارستيد مايول » (١٨٦١ ــ ١٩٤٤) لقد عاصره مختار ايضا فى باريس وكانت تماثيله تبلغ القمة صنعة وابداعا وشاع تأثيره كما كان له اتباع وحواريون ..

لقد وصل مختار الى باريس فى فترة من أخطر الفترات التى مر بها الفن المعاصر .. فبين عامى ١٩١١ و ١٩٢٠ ، وهى مرحلة تكوينه الفنى على الشاطىء الآخر ، كانت باريس ممتلئة باتجاهات جديدة تعلن الحرب على القديم . بينما احتمى مختار بأسوار « البوزار » يتعلم من أساتذتها ويتابع فى نفس الوقت الاتجاهات الحديثة ويرقب تطورها ، ولم تؤثر الصيحات الحديثة عليه لقوة شخصيته وثقته فى كفاءته ، فقد وقف من الحركة الثقافية فى باريس موقف الند الذى يساهم معطيا ، ولم يتخذ موقف التابع الذى يأخذ دون ان يضيف . وهكذا تفهم جميع الاتجاهات والأساليب المستحدثة وألم بفلسفتها ، ونقل وجهة نظره فيها الى الجمهور فى مصر عندما وصف الاتجاهات المغرقة فى الاغراب بأنها اتجاه الى الخيال وقال : « ان تصوير الخيال قد يكون غالبا المقصود منه ستر قلة المهارة وقلة الكفاءة تحت اسم شهى جذاب ، اذ أن غايته فى السهولة تطبيق قواعد موضوعة بدلا من تصوير اشكال شيقة » .

كان ينادى بتطعيم الواقع بدرجة محدودة من الخيال ليكون الفن حقيقيا ونابعا من ذات الفنان .

اتجه الى إستلهام جوهر التراث وروح العصر وصور البيئة المصرية ، وكانت له عين مدربه على ترجمة الشكل الواقعى فى هيئة منظمة ومنسقة تدل على ان الفنان لايقف عند حد التعبير عن الجمال وانما يهتم ببث الاحساس بالحيوية وقوة التعبير فى تماثيله .

لقد أعتنى عناية خاصة بصياغة الكتلة متبعا الأسلوب البنائى والصفات المعمارية ، وهذا يحفظ لتماثيله ــ مهما صغرت ــ كل خصائص النحت الكبير دون اغراب أو افتعال .

وحين نحت تماثيله الصغيرة الشهيرة للفلاحات ، نحتها مفعمة بالقوة والحيوية والخصوبة والأنوثة .. ليست انوثة الجوارى ، لكنها أنوثة شجاعة معتزة بنفسها ، وفى تمثاله

وجه فلاحة المسبوك بالبرونز يعبر عن الطلعة التى لوحتها شمس الحقول مع تقطيبة تقى العينيين الضوء الساطع ولاتخفى الجمال الجاد المشع من تحت عصابة الرأس .

الخطوط المنحنية والأقواس تعبر عن الدلال والليونه فى فلاحاته اللائى يرددن ايقاعا موسيقيا .. ومن خلال تبسيط الكتلة وانسياب الخطوط يتحقق مايمكن ان نسميه « بلاغة الصمت » الذى يعطى احساسا بالسكينة الرائعة والشعور بالأمان والاستمرار.. فيكشف عن الجمال الداخلى حيث الترديد المنظم للخطوط والمسطحات ، وهكذا اكتملت فى أعماله سمات التكتيل والبساطه من ناحية والصلابة والصفاء من ناحية اخرى بخطوط تحمل فى طياتها صراحة القرية المصرية وانبساط الحقول وانسياب المياه .

انه يبدأ من الواقع المحيط به يدرسه بعمق وتمعن ، ولا تحتفظ ملاحظته ورؤيته الا بجوهر الاشكال وبما هو جدير بالتعبير عنه .

وفى تماثيله للوجوه صدق لايقف عند حد الملامح الخارجية وانما ينفذ الى الأعماق ، وتعبيرات تماثيله لاتتركز فى وجوهها فقط ، وانما يتردد التعبير الذى يقصده فى التمثال جميعه .. فينبض بالرشاقة والحركة بفضل عنايته بالدقائق والتفاصيل .. وهو يضفى على اعماله تعبيرة الشخصى المميز الذى يتسم بالذكاء والحساسية والذوق الرفيع .

ان الصفاء الذى نلمسه فى اشكاله جعلها أثرا فريدا وقمة من قمم فن النحت ، عندما حقق معجزة التوافق بين المقتضيات النحتية والاحساس العميق بالحياة ، حيث نلمس التوازن والتناسق والنبل مع البساطة فى مسطحاته مع الشاعرية والحماس والرومانسية التى تنبض بها تماثيله .

أما العصر فقد عبر عنه فى تماثيله السياسية ، وسجل مرحلة المقاومة والانطلاق والنهضة .. حتى نرى هذه المعانى فى العديد من تماثيله الريفية وعلى رأسها تمثال الخماسين الذى لايقف عند حد التعبير عن مقاومة الريح وانما يمتد الى كل أشكال الجهاد ومحاولة الانطلاق .

انه الفنان الذى أوجد الصيغة الملائمة فى عصرنا الحديث لاجتماع مميزات أعرق تراثين فى فن النحت وهما التراث الاغريقى ممثلا فى سلالته الحديثة وهى النحت الفرنسى من جانب ، والتراث المصرى القديم من جانب آخر.. وهو يقول فى هذا الصدد :

عندما يمر قرن كامل على ميلاده عام ١٩٩١ .

النحت هما مصر أولا وبعدها فرنسا . لقد أوجد الأغريق نحتا فيه رشاقة عن النحت المصرى القديم ، ولكنى لا أحسّ فيه صفاء نحت مصر القديمة وما يحمله من طاقات القوة والحياة » .

وهو ينحت الجرانيت والبازلت والرخام ، وينفّذ بعض اعماله بخامة البرونز ، وهو ككل فنان راسخ الأسلوب يتنوع تشكيله بتنوع الخامات ويحقق المواءمة معها . حيث تلتقى المعرفة بالحلم ، والملاحظة مع الخيال ، والقوة مع الرقة ، والحركة مع الهدوء ، وتقاليد الفن الموروثة مع صور الحياة المعاصرة .

كلمات النقاد عن فنه

عندما أقام الفنان معرضه الشامل فى قاعة « برنهيم » بباريس كتب عنه النقاد ، ومن بينهم الناقد الشهير « لويس فوكسيل » الذى كان له فضل اطلاق اسم الوحشيين (الفوف) على أحد مذاهب الفن الحديث عام ١٩٠٥ عندما كتب عنوان مقالته النقدية « دوناتللو بين الوحوش » .. كتب هذا الناقد عن مختار يقول : « انه فنان واقعى شغوف بالحقيقة وصدق التعبير عن الحياة المحيطة به وهو صاحب طراز خاص » .

وقال عنه « اندريه سالمون » : « لا أعرف نحاتا معاصرا عنى اكثر من مختار بالعنصر البنائى ، وباحترام الكتلة لذاتها فى فن النحت وفقا لما تمليه تقاليد هذا الفن العريقة ، وليس هناك فن أجدر من فنه باعتباره فن انبعاث .. بالاضافة الى هذا فان مختارا دفعنا لان نلمس اعماق ضمير بلاده حين عبر عن عاطفة كبرى تتمثل فى تمجيد ابناء جنسه » .

اما المسيو « جورج جراب » الناقد ومدير متحف « رودان » فى باريس فقد كتب مقدمة معرض الفنان عام ١٩٣٠ يقول فيها مخاطبا مختاراً :

« قال رودان (ان الفن الخلاق بالحياة لا يعيد اعمال الماضى ولكنه يكملها) وتلك هى الرسالة العظيمة التى خصصت نفسك لها ، فان فلاحاتك ياعزيزى مختار وفلاحيك وبنات الحقول فى ارديتهم البسيطة التى تلف اجسامهن فى خفر وحياء .. كل هؤلاء يجمعن بين المظهر البسيط وتلك المسحة الانسانية الواقعية التى عرف اجدادك كيف يضفونها على تماثيلهم .. وفى تماثيل تلك الشخصيات العظيمة وتماثيل الاصدقاء التى تقدمها نجد شيئا من التماثيل المصرية القديمة المملوءة بالحياة فوصلت الى عصرنا الحاضر منتصرة على اليأس والزمن » .

وعقب وفاته قام استاذ الفنون الجميلة بجامعة « أرجون » بالولايات المتحدة ، بزيارة لمصر حيث عكف على دراسة فن مختار ، فكتب فى مقدمة دليل متحفه عام ١٩٥٢ يقول :

« لقد حبا الله مصر بهبة كبرى ، اذ خصها بالمقومات الثلاث اللازمة لابداع نحت عظيم : الروح والأحجار والضوء ، ومن بين جميع الحضارات كانت مصر صاحبة أكبر نصيب فى ارساء قواعد فن النحت . وامتداد هذه التقاليد فى العصر الحديث يظهر بوضوح فى أعمال محمود مختار.. انه يتكلم لغة عالية من خلال لهجته الخاصة . ومنحوتاته الصغيرة تشع ببساطة الشعر وصفائه وايجازه ... » اما بدر الدين ابو غازى ابن اخت الفنان فقد كتب عنه يقول : « ان خصائص الفن العظيم هو أن يزدهر دون كلام ، وان يعطى دون صخب ، وفى فن مختار تتمثل هذه الخصائص ، وهو يجمع فى فنه نوعين من بلاغة اللغة التشكيلية ، بلاغة الجمال الهندسى ، وبلاغة الأشكال الطبيعية العضوية ، ومن مزجهما معا تخرج نماذجه .

لقد جاءت أصالة فن مختار من منابع ثلاثة : التراث والبيئة والعصر.. أخذ من التراث التوازن والهدوء والوقار والجلال ومثالية التعبير » .

بينما كتب عنه الناقد مختار العطار فى ذكراه يقول عنه :

« كان فيلسوفا قبل ان يكون رساما ونحاتا وشاعرا وأديباً وباحثا فى علم الجمال . والتربية الفنية و « الفلسفة » انما هى العبقرية والموهبة بعض مقوماتها . فالعبقرى هو المنشىء.. المبادر.. الذى يتبين العلاقات مهما بعدت المسافة بين عناصرها . اما الموهوب فتغلب عليه المهارة وله مواصفات يمكن قياسها باختبارات الذكاء » .

وقد صدر عن الفنان كتابان بقلم بدرالدين ابو غازى الأول عام ١٩٤٨ والثانى عام ١٩٦٤ وعدة كتيبات صغيرة وكتالوجات عن متحفه ، بالاضافة الى فيلم تسجيلى عن أعماله ، كما تناولت فنه وحياته عدة رسائل جامعية منذ ١٩٧٥ أشهرها الرسالة التى وضعتها الممثلة لبنى عبد العزيز حول حياته وفنه وتقدمت بها الى الجامعة الامريكية بالقاهرة.. ولازال فنه موضع دراسات كثيرة مطولة نتوقع ان ينشر العديد منها خلال السنوات الخمس القادمة عندما يمرّقرن كامل على ميلاده عام ١٩٩١ .

صبحي الشاروني

• تذكار من فلسطين



غزة هاشم

بقلم: يوسف الخطيب

غزة هاشم هي بوابة آسيا العربية، على إفريقيا العربية.

وهي في تاريخ الحموي: «امرأة صور»..

وفي تاريخ الدمشقي: «مدينة كثيرة الشجر، كسماط ممدود لجيش الاسلام على أبواب الرمل»..

وفي رحلة ابن بطوطة: «هي أول بلاد الشام مما يلي مصر، متسعة الأقطار، كثيرة العمارة»..

وفي الأنس الجليل في تاريخ القدس والخليل، يرى مجير الدين الحنبلي أنها: «من أحسن المدن المجاورة لبيت المقدس، وبها كثير من الأشجار والنخيل. وحولها كثير من المغارس والمزارع»..

وهي تشتهر «بغزة هاشم»، لأن ترابها الطيب الطهور يحنو على رفات جد رسولنا الأعظم، هاشم بن عبدمناف.. كما أنها في الوقت ذاته مسقط رأس الإمام الشافعي، وقد فاض به الحنين يوماً اليها، وهو في أرض الحجاز، فأنشدها من أرق شعر اللهفة والتذكار والحنين:

وإني لمشتاق إلى أرض غزة
وإن خانني بعد التفرق كتماني
سقى الله أرضاً لو ظفرت بتربها
كحلت به، من شدة الشوق، أجفاني

ثم إن غزة، في أحقاد التوراة السوداء، هي بيت الفلسطينيين المكين الذي تحطمت خلف أبوابه الغزوة اليهودية الأولى قبل ثلاثة آلاف سنة.. ولهذا فإن مؤلفي كتاب التوراة قد خصوها ـ أكثر من أية مدينة فلسطينية أخرى ـ بأعنف ما في صدورهم من الحقد اليهودي المرذول، باعتبارها ـ على حد اعتقادهم ـ مسرح الخرافة التوراتية الشهيرة التي أوقعت فيها «دليلة» الغزية بـ«شمشون الجبار» اليهودي، هذا الأخير الذي تحكي الأسطورة أيضاً أنه قوّض أعمدة المعبد الفلسطيني بذراعيه الهائلتين(!!)، مشيراً إلى أهل غزة، دون غيرهم، بعبارته الانتقامية الحاقدة التي ذهبت مثلاً على مر الأجيال في صدد التعبير عن روح التخريب الشامل.. «عليّ وعلى أعدائي يا رب»!!..

وكذلك الأمر في نطاق الغزوة اليهودية المعاصرة أيضاً، فلقد ظلت غزة آخر مزقة من التراب الفلسطيني تحمل اسم «فلسطين» في أعقاب نكبة عام ١٩٤٨، من بعد أن سُمّيت الهضبة الفلسطينية الوسطى باسم «الضفة الغربية»، وسائر أرجاء التراب الفلسطيني الأخرى باسم «إسرائيل»..

وإلى ذلك كله، فإن غزة هي المدينة الفلسطينية الوحيدة التي ذاقت مرارة الاحتلال الصهيوني مرتين في نطاق عقد واحد من الزمان: مرة في حرب العدوان الثلاثي على



مصر عام ١٩٥٦ .. ومرة أخرى في حرب حزيران الأسود عام ١٩٦٧ .. وفي المرتين معاً دفعت ثمن احتلالها كما لم تدفعه مدينة قط، حيث بقيت أربع سنوات، من بعد كارثة حزيران، بمثابة نأمة الحياة والمقاومة الوحيدة في جسد الوطن العربي المترنح الفضفاض، وذلك باسلوب تصديها البطولي الفريد للاحتلال الصهيوني حتى بالنواجذ والأسنان..

يبرز المشهد المقابل، (من أرشيف «دار فلسطين» الفني لمعالم البلدانية الفلسطينية)، إطلالة، من الشرق إلى الغرب، باتجاه ساحة الجندي الفلسطيني المجهول، بينما يظهر المجلس التشريعي الفلسطيني في عمق المنظر..

وأما عن تمثال الجندي المجهول هذا فقد أقيم أول مرة في عهد الادارة العربية المصرية للقطاع، أثناء ولاية رئيس البلدية الأسبق المناضل الراحل منير الريس.. ولقد انصب الحقد الصهيوني المقيت مرتين على هذا النصب التذكاري الفلسطيني، فحطموه أول مرة عندما دخلوا المدينة أثناء العدوان الثلاثي عام ١٩٥٦، ثم أعيد تشييده مجدداً إثر انسحابهم منها، ثم عادوا ليحطموه مرة ثانية بعد احتلال عام ١٩٦٧، وما زال محطماً حتى الآن.. لكن الفنان المقتدر عزيز إسماعيل تمكن من أن يعيد التمثال إلى هيئته ومقاييسه الأصلية في هذه اللوحة، بالاستناد إلى فوتوغراف

وثائقي قديم من أرشيف «دار فلسطين».. عسى أن نتمكن ذات يوم قريب من أن نجدد بنيانه على الطبيعة.. لا في مجرد لوحة تذكارية!!..

تقديم :
لبنى الريدي

جيل جديد من الغواصات

ان غزو قاع البحار لايقل أهمية للإنسان عن غزو الفضاء وإن لم يحظ بالاهتمام نفسه.

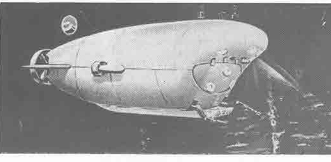
فالتنقيب عن الثروات المعدنية ودراسة الحياة البحرية على عمق عشرين ألف قدم تحت سطح البحر ، فضلا عن الاستكشافات الجيولوجية عند هذه الأعماق أمر حيوى يتطلب بناء غواصات متطورة يمكنها تحمل ضغوط تصل الى اربعة أطنان لكل بوصة مربعة.

ويتنافس فى هذا المجال الفرنسيون واليابانيون والأمريكيون من أجل تصميم غواصات يمكنها الوصول الى أعماق جديدة ، وتسجيل كميات أكبر من المعلومات.

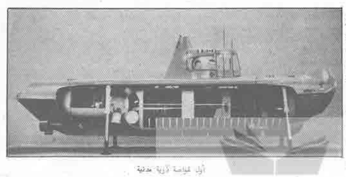
فالغواصة شينكاى ـ ٦٠٠٠ ، وهي يابانية الصنع ، تعتبر اكثر الغواصات تطورا حتى الآن ، فهى تستطيع الغوص حتى عمق ٦٥٠٠ متر وهو رقم قياسي لم يسبق الوصول اليه كما تضم كابينة قيادة مقاومة للضغط ومصنوعة من سبائك التيتانيوم تتسع لاثنين من البحارة. وتزيد هذه الغواصة التى يتم تشغيلها بمحرك كهربى يستمد طاقته من بطاريات ٢٥ طنا ، وهى تستطيع العمل فى قاع البحر لمدة ٩ ساعات متواصلة حيث تقوم بالتقاط الصور الملونة بكاميرات ستريو وبجمع العينات بواسطة ذراعيها الآليين.

إلا ان الطاقة الكهربية واحتمال نفاذها يحد من وقت الغوص ومن المساحة التى يتم استكشافها . ولذلك فكر الباحثون فى استخدام الغواصات الذرية للأغراض العلمية والتجارية.

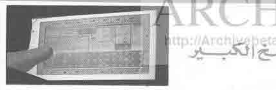
وبدأ الفرنسيون والكنديون فى التخطيط لتدشين أول غواصة من هذا النوع فى عام ١٩٨٨ . ستزود هذه الغواصة واسمها « ساجا ــ ان » بمفاعل نووى صغير يولد ١,٥ ميجاوات من الطاقة الكهربية يعمل عند الضغط الجوى . ويستخدم الماء كمبرد ومهدىء للتفاعل النووى . ولقد صمم هذا المفاعل بحيث يعمل طوال سبع سنوات متواصلة دون حاجة الى التزود بوقود نووى جديد . وتستطيع هذه الغواصة ان تحمل طاقما من ستة أفراد وهو رقم قياسى لأن أقصى عدد لطاقم الغواصات المدنية لايتعدى اثنين كما تقدر فترة بقاء هذه الغواصة فى قاع البحر بثلاثين يوما . وهى اقصى فترة يستطيع البحارة تحملها.



الغواصة اليابانية شنكاي ٦٠٠٠



أول غواصة ذرية مدنية



المخ الكبير

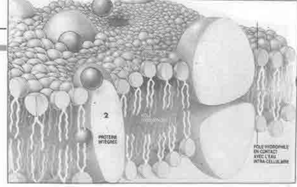
هذا الكمبيوتر وإن كان اسمه « المخ الكبير » فهو أصغر ميكروكمبيوتر ١٦ « بيت » في العالم ، (البيت هي وحدة المعلومات في لغة الكمبيوتر) . وهو ليس ياباني الصنع كما هو متوقع بل فرنسي الجنسية . ويزن « المخ الكبير » أقل من نصف كيلوجرام ويضم ذاكرة حية سعتها ٣٢ ألف حرف يستطيع مستخدم الميكروكمبيوتر تسجيل المعلومات فيها وتعديلها أو إلغائها ، فضلاً عن ذاكرة « ميته » كما تسمى سعتها ١٢٨ ألف حرف مسجل عليها برامج التشغيل . ويمكن زيادة هذه السعة المحدودة بدرجة ملحوظة بإضافة بطاقات ذاكرة لايتعدى حجمها نصف حجم بطاقة الائتمان ، سعة كل منها ١٢٨ ألف حرف ويمكن اضافة أربع من هذه البطاقات.

ويتطلب هذا التصميم المبتكر استخدام نظام خاص يعتمد على استعمال الرموز والنوافذ . فشاشة هذا الميكروكمبيوتر المصنوعة من البللورات السائلة تتسع ل ١٦ سطرا يضم كل منها ٦٣ حرفا وهى شاشة حساسة للمس . فبالضغط على رمز معين تظهر على جزء من الشاشة يشغل ثلاثة سطور لوحة مفاتيح تمثل الحروف الابجدية.

ويتميز « المخ الكبير » بأنه يستطيع تشغيل عدة برامج فى آن واحد وهو لايحتاج إلا لأربع بطاريات قوتها الدافعة الاجمالية ٦ فولت لتضمن له ١٠ ساعات من التشغيل المستمر.

وهذا الجهاز الذى لايزيد طوله عن ٢٠ سم وارتفاعه ١١ سم وسمكه ٢,٥ سم موجود حاليا في شكل نموذج انتظارا للتصنيع.

دواء جديد من مح البيض



الغشاء الخلوى كما يبدو تحت المجهر

استخرج الأطباء دواء جديدا من مح البيض ، يزيد من مناعة الجسم ضد الأمراض ، ويعيد لخلايا المخ شبابها ، كما يساعد على التغلب على إدمان الخمر والمخدرات . وأطلق على هذا الدواء السحرى اسم « ايه ــ ال ــ ٧٢١ » .

يرتبط قصور عمل بعض الخلايا ــ خاصة خلايا المخ وجهاز المناعة ــ ارتباطا وثيقا بالتغيرات التى تطرأ على الغشاء الخلوى لهذه الخلايا . فهذا الغشاء يلعب دورا فعالا فى معظم الوظائف الحيوية للخلية ، وهو ليس صلبا أو ساكنا ، ولذلك فإن فقدان الغشاء الخلوى لمرونته وقدرته على التحرك يعد من النتائج الأولى لتسمم الخلايا بالمخدرات أو الكحول كما يعتبر من مظاهر الشيخوخة الخلوية .

ويفسر جزئيا فقدان الغشاء الخلوى لمرونته بترسب الكولسترول بين جزيئاته مما يزيد من لزوجته ومع استمرار ظاهرة الترسب تختل وظائفه الخلوية .

ولقد ركزت الأبحاث جهدها من أجل التوصل الى مادة قادرة على اعادة المرونة للأغشية التى فقدتها نتيجة للشيخوخة أو للإدمان . ووجدت فى هذه المادة المستخرجة من مح البيض ضالتها المنشودة . فأثبتت التجارب المعملية قدرة هذه المادة على زيادة السيولة والمرونة الغشائية بنسبة ٣٥٪ فى أقل من ساعة . فهى تعمل على استخلاص الكولسترول المترسب على الأغشية معيدة لها لزوجتها الطبيعية .

ويتميز هذا الدواء بأنه غير ضار ، فلقد تمت تجربته على تسعة من المتطوعين فى الخمسين من عمرهم لمدة ستة أسابيع . وفى نهاية المدة سجلت الاختبارات زيادة فى نشاطهم الذهنى والجسمانى .

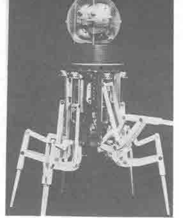
ومن ناحية اخرى فلقد تمت تجربته على ١٦ متطوعا تزيد سنهم عن ٧٥ عاما ويعانون من ضعف فى جهاز المناعة يرتبط هذا الضعف بسنهم وبعد علاج يومى بهذا الدواء لمدة أسبوع أصبحت الخلايا الليمفاوية التى تتولى الدفاع عن الجسم ضد الأمراض أكثر نشاطا ومع استمرار العلاج للثلاثة أسابيع الأخرى أصبح نشاط هذه الخلايا مماثلا لنشاط الخلايا الليمفاوية الشابة فأصبحت قادرة على التكاثر إلا أن هذا النشاط يختفى بمجرد وقف العلاج .

أما بالنسبة للتغلب على إدمان الخمور والمخدرات فمن المعروف أن الكحول والمخدرات من العوامل التى تساعد على زيادة سيولة الأغشية الخلوية ولذا فإن الإدمان عليها يفقد هذه الأغشية مرونتها نتيجة لترسب الكولسترول عليها نظرا لقدرتها على تبديل تركيبها الكيمائى للحفاظ على توازنها . وينتج عن قدرة الأغشية الخلوية على التكيف تعودها على العامل الجديد الا وهو الكحول أو المخدرات .

ومن ثم فعند التوقف عن تعاطى هذه المكيفات يصبح معدل لزوجة الأغشية الخلوية عاليا بسبب جزيئات الكولسترول التى تراكمت عليها وتحتاج لاستعادة مرونتها الى عدة أيام يكون المدمن خلالها فى حالة يرثى لها . فى حين يعيد هذا الدواء المستخرج من مح البيض للأغشية الخلوية مرونتها وسيولتها فى ساعات معدودات مما يجعله يمثل عونا حيويا لعلاج الادمان .

ويستعد الأطباء حاليا لتجربته على عينة من المدمنين بعد نجاح تجربته على الفئران .

الربوت النووي

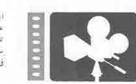


هذا الربوت ذو الستة اقدام يحمل اسم « أودكس ــ ١ » وهو امريكي الصنع والمهمة الموكولة إليه هي تشغيل المحطات النووية وصيانة أي خلل في أنظمة المفاعلات حتى وإن كان هذا الخلل في قلب المفاعل ذاته .

ويتميز « أودكس ــ ١ » بالجمع بين القوة والمرونة . فبينما لا تستطيع أجهزة الربوت رفع أثقال تزيد بنسبة ٥،٤٪ عن وزنها فان « اودكس » يمكنه حمل ٩٥٥ كيلوجراما وهو في وضع ثابت أي مايوازي ٥،٦ أضعاف وزنه . كما يستطيع حمل ثقل قدره ٤٥٤ كيلوجراماً وهو يسير سرعة عادية .

ويتمتع هذا الربوت النووي بحرية حركة لأنه يضم داخله مصدر الطاقة اللازمة لتشغيله ، كما أنه مزود بنظام اتصالات لاسلكي .

أما بالنسبة لمرونته وقدرته العالية على المناورة فهما ترجعان إلى أن كل طرف من أطرافه الستة مزود بميكروكمبيوتر يتحكم في حركة كل قدم على حدة بينما يتولى ميكروكمبيوتر سابع تنسيق الحركة الشاملة للربوت . كما أن سيقانه المفصلية تسمح له بالقيام بأوضاع متنوعة . وسيزود هذا الربوت بذراع آلي وكاميرا فيديو ونظام تحكم الكتروني حتى يتمكن من القيام بأعمال المراقبة والصيانة في المحطات النووية .



سينما

بقلم: رءوف توفيق

«الدوحة» في مهرجان «كان»

مرة أخرى تتحقق نبوءة «الدوحة»



المخرج روبرت ألتمان ـ على اليمين ـ يستعد لترتيب المشهد والممثل سام شيبرد يستعد لدوره في فيلم «غبي في الحب»

العقلية اليهودية تستولي على السينما العالمية

لا أعتقد أن هناك عربياً واحداً شعر بالرضا. مما حدث في مهرجان «كان» السينمائي الأخير. وإذا كان لي أن أتحدث عن نفسي، فقد لازمني ذلك الاحساس الكئيب بالعجز والحسرة، وفي بعض الأحيان، ومع بعض الأفلام، كنت أشعر أن هناك من يصفع عروبتي، ويسخر من تاريخنا وحضارتنا وأحلامنا. بل من وجودنا على خريطة البشرية !!

لم يكن الأمر متعلقاً بإدارة المهرجان.. ولا باستقبالنا نحن الصحفيين والنقاد العرب، المتابعين للمهرجان، ولا بحقنا في تقديم أفلامنا والمنافسة مع الآخرين، ولا مصادرة لرغبتنا في المناقشة والاشتراك في المؤتمرات الصحفية.

لم يكن هناك شيء من هذا القبيل.

وإنما كل ما حدث.. أنه تأكد لنا أن الشبكة الصهيونية أحكمت قبضتها على صناعة السينما العالمية.. وأن التنظيمات اليهودية عادت بكل قوتها وشراستها، للإعلان عن نفسها من خلال الأفلام.. وبمختلف الأشكال واللغات.. فهناك دائماً هذا «البطل» اليهودي.. إما مظلوماً ومضطهداً. وإما ثائراً يبحث عن حقه، وإما انساناً ضاحكاً يأسر القلوب.. وإما مقاتلاً مغواراً لابد أن ينتصر!!

ولم يحدث في السنوات الأخيرة لمهرجان «كان» السينمائي ـ وأنا أتابعه بانتظام منذ عشر سنوات ـ أن عرض مثل هذا العدد الرهيب من أفلام اليهود!

والمصيبة الأكبر، أن بعض السينمائيين العرب تبرعوا من تلقاء أنفسهم لتحية اليهود في أفلامهم التي عرضت في مهرجان «كان» الأخير!!

وكأن تحية اليهود هي جواز السفر الوحيد والمضمون لشاشات السينما العالمية!!

وفي هذا الجو النفسي الكئيب، والذي يحاصرك من كل جانب، وبالاضافة الى ذلك الرصيد القديم والمتجدد الآن بقوة لكراهية العرب. وإدانتهم جميعاً كإرهابيين وقتلة. ونظرات التوجس ـ والقرف أحياناً ـ والتي تطاردك عندما تعبر بوابة المطار، أو عندما تدخل أبواب متجر أو مطعم، مع كل هذه الظواهر ـ المرئية والمسموعة والمحسوسة ـ لايمكن أن تكون لامبالياً..

لقطة من أوبرا عطيل للمخرج زيفاريللي





هكذا يُنشئون القواعد الاستراتيجية للسيطرة على الرأي العام

«كيم باسنجر» بطلة فيلم «غبي في الحب»

لقطة من أفلام المهرجان

فما يحدث هو خطة محكمة ومدروسة، ومحسوبة المراحل للسيطرة على الرأي العام العالمي.. وإصدار الحكم علينا، بإلقائنا ـ نحن العرب ـ في بحور الظلمات والتخلف والهمجية.

كيف كانت البداية؟

وتشهد هذه الصفحات من «الدوحة» أنني كتبت كثيراً عن اليهود، وكيف يلجأون إلى سلاح الفن عموماً، والسينما بالذات، لكي يذكروا العالم بوجودهم وقضيتهم..

وقد عاهدت نفسي على رصد التحرك اليهودي في السينما العالمية، وكتبت على هذه الصفحات من «الدوحة»، تسع مقالات خلال السنوات العشر الأخيرة، أتابع فيها الأفلام التي ينتجونها بأموالهم، داخل اسرائيل أو خارجها.. بمساعدة حلفائهم في الشبكة الصهيونية..

وكتبت كثيراً.. ألفت الانتباه لهذا المغامر الاسرائيلي، المنتج والمخرج «مناحم جولان» وابن عمه «جلوباس».. وكلاهما من أبرز عناصر المخابرات الاسرائيلية.. وقد اشترك «جولان» بنفسه في المعارك العسكرية ضد مصر.. وهو لا يخفي هذا بل يفتخر به (!!).. وكيف اشتركا معاً في تأسيس شركة سينمائية داخل اسرائيل، تحت اسم «نوح فيلم» أنتجا من خلالها العديد من الأفلام الروائية والقصيرة.. ربما كان أهمها، فيلم «عملية رجال الصاعقة» والذي عرض في سوق مهرجان كان عام ١٩٧٧.. وأثير حول الفيلم اهتمام بالغ.. حيث أنه كان أضخم فيلم ـ من ناحية التكاليف ـ تقدمه السينما الاسرائيلية ـ (تكلف وقتها ٢,٥ مليون دولار).. وكان هذا الفيلم أيضاً هو أول بيان تقدمه السينما الاسرائيلية، للعالم.. عن يقظة المخابرات الاسرائيلية، وقوة الجيش الاسرائيلي من خلال المهمة التي أوكلت لرجال الصاعقة الاسرائيلية لانقاذ ركاب الطائرة الفرنسية والتي أقلعت من تل أبيب، وتعرضت لعملية اختطاف في الجو، وهبطت في مطار «عنتيبي» بأوغندا..

كتب هذا الفيلم وأنتجه وأخرجه «مناحم جولان»، والذي قالت عنه نشرة الفيلم الاسرائيلي عام ٧٧، والتي تصدر عن مركز الفيلم الاسرائيلي التابع لوزارة التجارة والصناعة.

«أن مناحم جولان هو الشخص الذي تقع على عاتقه مسئولية تطوير صناعة السينما الاسرائيلية، منذ بداية تفتحها حتى قمة ازدهارها»!!

(مقال الدوحة لشهر ديسمبر عام ٧٧).

الانتقال إلى أمريكا

وتطوى الصفحات، والسنين.. ونحن نرقب تحركات الاسرائيلي «جولان» وابن عمه «جلوباس»، وكيف نقلا نشاطهما إلى الولايات الأمريكية، وأعادا تكوين شركتهما السينمائية تحت اسم «كانون» بدلاً من «نوح فيلم».

بدأت تلك الشركة الجديدة عملها عام ٨٠.. كانت خطتها احتواء أكبر عدد من النجوم في أفلام قليلة التكاليف، سريعة الانتشار بحكم موضوعاتها التجارية التي تستجيب لأذواق الشباب والمراهقين، وتحقق أكبر عائد مادي في أقل وقت ممكن.

وكتبت في عدد أكتوبر عام ١٩٨٠ من «الدوحة».. أقول: انهم يتجنبون الخوض في دعاية مباشرة أو غير مباشرة لاسرائيل.. انهم يحاولون ابعاد أية شبهة عن «هوية» هذه الشركة السينمائية.. ولهذا فهم يتحركون في كل الاتجاهات التجارية المضمونة.. ولكن هل سيواصلون هذا الطريق؟

وأجبت في نفس المقال: أستطيع أن أؤكد بناء على فهم العقلية اليهودية.. انهم بعد أن يضمنوا الانتشار والرواج لاسم الشركة.. سيبدأون في الاعلان عن «هويتهم» الحقيقية.. ويسربون فيلماً وراء الآخر يتضمن بعض أفكارهم ووجهة نظرهم في القضايا العالمية، وبالذات قضية وجودهم، وحق اسرائيل، وأمن اسرائيل، وحلم اسرائيل، و.. و..

«والمخطط معروف.. فالمال اليهودي لا ينفق هباء»!!

وتحققت نبوءة «الدوحة» في عام ٨٤.. حينما قدمت شركة «كانون» فيلماً بعنوان «السفير» يلعب بطولته ثلاثة من نجوم السينما الأمريكية: «روبرت ميتشوم» ـ «روك هدسون» ـ «ايلين بريستين»

والفيلم يطرح سؤالاً لماذا لا يجلس الشباب الاسرائيلي مع الشباب الفلسطيني ويتبادلون الحوار، كخطوة أولى لاقرار السلام؟

وينتهي الفيلم بالطبع ـ وبعد أحداث تشير إلى قوة المخابرات الاسرائيلية وفساد المنظمات الفلسطينية ـ إلى أن الشباب الاسرائيلي هم المستعدون للسلام، يمسكون بالشموع، ويغنون، وينتظرون الشباب الفلسطيني الذي يأتي متخفياً في الظلام ليقتلهم بكل غدر ووحشية.. ورغم هذا يواصل الشباب الاسرائيلي «المتحضر» رغبته في السلام!!

وكان هذا الفيلم الحقير.. هو أول مؤشر واضح لسياسة شركة «كانون» الأمريكية المظهر الاسرائيلية المعدن!

وعلقت على هذا الفيلم، من خلال متابعة للنشاط الاخطبوطي لشركة «كانون» في مقال نشرته «الدوحة» بعدد سبتمبر عام ١٩٨٤..



الثنائي الاسرائيلي جلوباس على اليمين ثم جولان



اريك روبرتز السجين الذي تورط في الهروب

وكتبت في ختام ذلك المقال محذراً :

(إن « جولان » و « جلوباس » يتحركان بسرعة .. وبخطة مرسومة بذكاء .. وليس بعيداً أن يأتي اليوم الذي يصبحان فيه أباطرة صناعة السينما في العالم .. وعلينا أن ننتبه) !

القفزة الجهنمية

وللمرة الثانية ، تتحقق نبوءة « الدوحة » ، وفي هذا العام ــ ١٩٨٦ ــ تأكد بشكل واضح من خلال مهرجان « كان » السينمائي ، أن الثنائي « جولان ــ جلوباس » تحولا بشركتهما « كانون » إلى أباطرة في السينما العالمية .. فقد امتد نشاطهما إلى كل أمريكا وكندا وأوربا ..

يشتريان دور العرض السينمائي ليضمنا « المكان » الذي يعرضان فيه أفلامهما ، وأيضاً ليتحكما في السوق .

يشتريان الشركات السينمائية التي تعاني من الخسائر ..

وقعا اتفاقيات لاحتكار سوق « الفيديو كاست » في أمريكا الشمالية .

ويتفاوضان الآن لشراء شركة « مترو جولدين ماير » ذات الصيت التاريخي ..

وقد تعمدا في مهرجان كان السينمائي أن يفجرا كل مشاريعهما القادمة .. ويعلنا عنها بحملة دعاية غطت كل المدينة ومجلاتها اليومية (لا يقل عن ثلاثين صفحة اعلان كل يوم) .

فإذا كانت مدينة « كان » تشهد في مهرجانها السينمائي السنوي ما لا يقل عن ثلاثة آلاف صحفي وناقد .. وأكثر من خمسة آلاف مشتغل بصناعة السينما .. وأكبر تجمع للنجوم والمخرجين .. فإن زغللة العيون ، وإدارة الرؤوس .. هو هدف من الممكن تحقيقه .. بإنفاق عدة ملايين من الدولارات على الدعاية ..

وهكذا أصبح اسم « كانون » يدق ليل نهار على أسماع المشاركين في المهرجان .. مؤتمرات صحفية .. وأحاديث .. وصور .. وأخبار .. ومفاجآت موقوتة بذكاء شديد .

كل هذه القفزة السريعة الجهنمية .. حدثت في خلال خمسة أعوام فقط .. كيف حدث هذا ؟



جون فويت .. السجين الذى قاد عملية الهروب

مصادر التمويل

في العام الأول لشركة كانون ــ عام ١٩٨٠ ــ بلغت الأرباح ثمانية آلاف دولار .. في العام الماضي ــ ٨٥ ــ وصلت الأرباح إلى خمسة عشر مليوناً من الدولارات !

وهذا الرقم الأخير .. يعطي صورة عن حجم رأس المال الذي تتحرك من خلاله هذه الشركة ..

وفي دراسة عن اقتصاديات شركة « كانون » .. جاءت هذه المعلومة .. أنه في العام الماضي ــ ٨٥ ــ حصلت الشركة على قرض بمبلغ خمسة وستين مليون دولار من بعض البنوك الأمريكية وفي مقدمتها بنك (فيرست ناشيونال) في بوسطن .. بالاضافة إلى تسهيلات نقدية مقدمة فعلاً .. من بنك (كريديه ليونيز) في « نيزلاند » بمقدار خمسة وأربعين مليون دولار .

حدث هذا في عام واحد .. مما أعطى شركة كانون أرضية صلبة لتتحرك عليها .

وفي معلومات أخرى مؤكدة .. أن عدداً كبيراً من الشخصيات الأمريكية الثرية تساهم بجزء من ثروتها في تدعيم هذه الشركة ، عن طريق الأسهم والسندات .(بالطبع دور الصهيونية العالمية في قيام وتأكيد هذه الشركة مفهوم) .. ومن المعروف أيضاً أن عدداً من الحكومات الأجنبية ، وفي مقدمتها اسرائيل ، تقدم مساهمتها السنوية لتقوية شركة « كانون » .

والسؤال البديهي هنا .. لماذا هذا الحرص على التأكيد والتقوية ؟

والاجابة البديهية أيضاً .. أن السيطرة على صناعة السينما العالمية ، هي أحد مخططات الصهيونية للاستحواذ على الرأي العالمي .. وتجنيده لخدمة أهدافها .

وكما هو معروف دور الصهيونية في شراء المؤسسات الصحفية ، وشبكات التليفزيون ، تأتي السينما لتكمل حلقة الضغط على الرأي العام .

ولكن ما هو حجم الانتاج السينمائي لشركة « كانون » .. حتى نستطيع أن نقدر حجم التأثير ؟

عدد الأفلام يتزايد سنوياً

لم يزد متوسط الانتاج السينمائي (من عام ١٩٨٠ ــ وحتى عام ١٩٨٣) عن ١٢ فيلماً .. وقد يصل إلى ١٥ فيلماً في العام ..

أما خطة عام ٨٦ .. فالمتوقع أن يكون حجم الانتاج من ٢٢ ــ ٢٥ فيلماً .. متوسط ميزانية كل فيلم خمسة ملايين دولار .. ترتفع أحياناً إلى أرقام أكبر ، في بعض الأفلام التي تعتبرها الشركة ، واجهتها الاعلامية .. كفيلم « سوبرمان ــ الجزء الرابع » بطولة « كريستوفر ريف » والمتوقع أن تصل تكاليفه إلى ٢٥ مليون دولار .. وكفيلم « كابتن أمريكا » اخراج « رومان بولانسكي » وميزانيته عشرة ملايين دولار .. وكفيلم « زوربا » المأخوذ عن المسرحية الموسيقية التي مثلها انتوني كوين على المسرح الأمريكي .. وسيشاركه البطولة « جون ترافولتا » .. ويخرجها « روبرت وايز » الذي أخرج من قبل « صوت الموسيقى » ، وكفيلم « الملك لير » الذي سيخرجه المخرج الفرنسي « جان لوك جودار » في أول عمل له بأمريكا .

وهذه الأفلام ــ كنموذج ــ هي التي تطنطن بها شركة كانون في حملة دعاية مكثفة لاثبات قدرتها على تشغيل كبار النجوم والمخرجين .. وضمهم إلى صفوفها .

ولكن مهما كان بريق الاسماء ، وضجيج الدعاية ، فهل من الممكن أن نعتبر انتاج ٢٥ فيلماً في العام ، مسألة تشغلنا إلى هذا الحد .. وتجعلنا ندق أجراس التحذير من السيطرة على صناعة السينما ؟

الاجابة بالتأكيد .. لا تحسب بعدد الأفلام المنتجة سنوياً .. ولكن تحسب بمعدلات الزيادة المضطردة في المستقبل ..

فإذا كان انتاج شركة كانون لم يتعد ١٨ فيلماً في عام ٨٥ ، فإن عام ٨٦ سيشهد ٢٥ فيلماً .. والعام التالي سيشهد زيادة أخرى .. وهكذا .. وبعد خمس سنوات مثلاً سيصل الانتاج إلى مائة فيلم ــ كما يتوقعون ــ !

ولكن مع افتراض صحة هذه التوقعات فهل مائة فيلم في العام .. تجعلنا نخاف على مستقبل صناعة السينما العالمية من الوقوع في يد الصهيونية ؟

السيطرة .. بأماكن العرض

مرة أخرى ، الاجابة لا تتعلق فقط بحجم الانتاج ، وإنما لابد أن ننتبه إلى خطة شركة

العقلية اليهودية

تستولي على السينما العالمية

«كانون» لشراء دور العرض السينمائي، فمن يملك دار العرض.. بالتأكيد سيتحكم في نوعية ما يعرض..

ويمعنى أدق.. من كان معي فليدخل.. أما من يخالفني فليبحث عن مكان آخر؟.

ومعي أوضدي.. المقصود بها الخط الفكري والسياسي..

وهنا يتضح خبث العقلية اليهودية في اللهفة على شراء «المكان» الذي يضمن لها وجود المنبر الذي تعلن من خلاله، آراءها وقضاياها!

وفي أحدث خبر أعلن في مهرجان كان السينمائي.. أن شركة «كانون» اشترت سلسلة من دور العرض في ١٢ ولاية أمريكية مقابل خمسين مليون دولار..

وهذه السلسلة التي تم شراؤها أخيراً.. تضم ٤٢٥ قاعة سينما (مختلفة الاحجام).

وبلغ عدد شاشات العرض التي اشترتها شركة كانون في انجلترا - ٤٩٠ شاشة - بالاضافة إلى ١٨ شاشة سيتم بناؤها داخل قلب لندن خلال هذا العام.

وفي هولندا ٤٩ شاشة..

وفي ايطاليا ٥٣ شاشة.

وفي ألمانيا الغربية ٢٢ شاشة.. بالإضافة إلى مشروع بناء أضخم مجمعين للسينما في برلين وفرانكفورت.

وهكذا تضم شركة «كانون» وجود قواعد استراتيجية داخل أمريكا وأوربا..

السيطرة.. بتشغيل السينمائيين

الهدف الثاني.. الذي تسعى إليه العقلية اليهودية في شركة «كانون».. هو تشغيل البطالة السينمائية في أوربا كوسيلة لخلق رأي عام من السينمائيين.. إن هذه الشركة هي التي فتحت بيوتهم وعمرتها.. وأعادت البسمة على الشفاه..

حدث هذا في انجلترا.. وتقول الاحصائيات إنه في خلال الثلاثين شهراً الماضية، انفقت شركة «كانون» أربعين مليونا من الدولارات في ثمانية أفلام تم تصويرها في انجلترا.. والمتوقع أن يزيد الرقم إلى خمسين مليون دولار في عام ٨٦. والمعترف به في صناعة السينما الانجليزية.. أن شركة كانون استخدمت أعداداً هائلة من السينمائيين والفنيين الذين كانوا يعانون من البطالة.

ونفس الموقف يحدث الآن في ايطاليا..

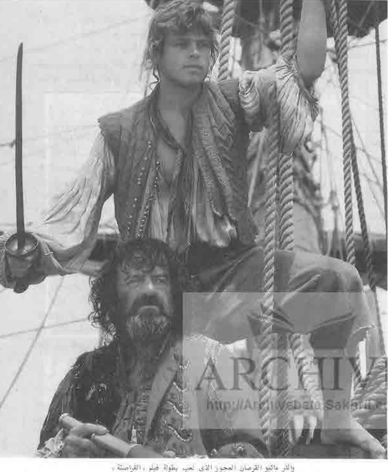
وقد أطلقت شركة كانون على عام ٨٦.. عام التواجد في ايطاليا.. فالشركة تصور أفلامها بمعدلات كبيرة داخل الاستوديوهات الايطالية التي تعاني من الكساد.. ولا تخفي الشركة فرحتها بهذا التواجد داخل ايطاليا.. فقد أعلن مناحم جولان: «أن ايطاليا هي الدجاجة التي تبيض لنا ذهباً.. فقد أثبت السوق الايطالي أنه أعظم سوق لأفلامنا في أوربا!!»

وقد عرض مهرجان كان داخل مسابقته الرسمية.. فيلم «عطيل» عن الأوبرا الشهيرة، أخرجها سينمائيا المخرج الايطالي المعروف «زيفاريللي» والذي أخرج من قبل للسينما «أوبرا» «لاترافياتا».

وفي الاستوديوهات الايطالية.. صورت مشاهد فيلم «سالومي» من انتاج الشركة، والذي عرض في افتتاح قسم «نظرة خاصة».. أحد أهم أقسام مهرجان كان السينمائي.. ولم يكن هذا الفيلم سوى «مسخ» للقصة التاريخية، وحشدها بالنساء والاثارة.. بنفس مفهوم شركة «كانون» لجذب المراهقين!

ولكن ما تفتخر به شركة «كانون» أن ثلاثة من أفلامها قد دخلت المسابقة الرسمية لمهرجان كان..

أحدهم هو «عطيل».. والثاني هو فيلم «القطار الهارب» للمخرج السوفيتي المهاجر



والتر ماتيو القرصان العجوز الذي لعب بطولة فيلم «القراصنة»



جون فويت في لقطة النهاية من فيلم القطار الهارب

محاولة لايقاف القطار المندفع وسط الثلوج



أوبرا عطيل كما جسدها للسينما المخرج الايطالي زيفاريللي

«كونشالوفسكي» والذي يخوض به معالجة هروب اثنين من المساجين إلى داخل قطار يموت سائقه فجأة.. وينطلق القطار بين ثلوج ألاسكا.. ليتحول الفيلم كله إلى مغامرة قطار لا يمكن التحكم في سرعته أو اتجاهه (فيلم تنساه بمجرد مشاهدته)!

أما الفيلم الثالث.. فهو للمخرج الأمريكي «روبرت ألتمان» ورغم أن كاتب السيناريو وممثله هو «سام شبيرد»، أحد أفضل كتاب السيناريو في السينما الأمريكية، إلا أن الفيلم واسمه (غبي في الحب) قد جاء مخيباً لكل التوقعات.

ولكن رغم هذا الفشل الفني، يبقى لشركة كانون ـ وهي ما تؤكده ليل نهار ـ أن انتاجها دخل المسابقة الرسمية لأكبر مهرجان سينمائي في العالم.

السيطرة بتوزيع الأفلام

الهدف الثالث الذي تسعى إليه هذه الشركة اليهودية.. هو السيطرة على توزيع الأفلام.. أي أنها لا تنتج أفلاماً بأموالها.. ولكن تشتري حق توزيعها في أنحاء العالم.. من خلال دور العرض التي تملكها، وايضاً من خلال اتفاقياتها ومكاتبها المنتشرة في أوربا وأمريكا وكندا..

وقد حدث موقف غير مفهوم مع فيلم «القراصنة» الذي أخرجه «رومان بولانسكي» واختير لافتتاح عروض المهرجان هذا العام..

فهذا الفيلم كما هو مكتوب على الشاشة من إنتاج «طارق بن عمار» الشاب التونسي الذي دخل ميدان الانتاج السينمائي العالمي.. وكان هذا نجاحاً نعتز ونفخر به..

ولكن مع اليوم الأول للمهرجان.. فوجئنا بأن شركة «كانون» ترسل تحياتها للمنتج والمخرج ـ في صورة اعلانات بكل جرائد المهرجان ـ وتذيل اعلاناتها بأن الشركة حصلت على حق توزيع الفيلم في أمريكا وكندا..

وأثار هذا الموقف تساؤلات كثيرة.. كيف سمح المنتج العربي الشاب لنفسه: أن يتعاون مع هذه الشركة اليهودية المعروفة باتجاهاتها وتمويلها؟

ومضت أيام كثيرة.. ولم يحاول المنتج العربي الرد على التساؤلات.. ولكن من الواضح أن هناك ضغوطاً دفعته ليصدر بياناً وزع على بعض الصحفيين يقول فيه أن الاتفاق مع شركة «كانون» لم يحدث.. وأن هذه الإفتراءات محاولة لتشويه صورته.. وهو الذي يعتبر نفسه رائداً اقتصادياً مثل «طلعت حرب» في مصر!

وطلب المنتج العربي في لهجة تأنيب من الصحفيين أن يتوخوا الحقيقة فيما ينشرونه..

وانتهى الموقف عند هذا البيان «السري»، بينما أن اعلانات شركة «كانون» واصلت تأكيدها بأنها اشترت حق توزيع الفيلم.. والسؤال المنطقي الذي يفرض نفسه..

إذا كان المنتج العربي «طارق بن عمار» يريد تبرئة موقفه.. فلماذا لم يعلن هذا في المؤتمر الصحفي وقد جلس بجواره مناحم جولان..

وإذا كانت تلك الفرصة غير مناسبة.. فلماذا لم ينشر إعلانا في مجلات المهرجان بنفي البيان الذي وزعه سرا؟

أم ان الحقيقة شيء.. والاستهلاك العربي شيء آخر؟

* *

وليس هذا الموقف وحده، هو ما يثير الدهشة.. ولكن هناك مواقف أخرى لبعض السينمائيين العرب الذين ركبوا موجة تمجيد اليهود.. كوسيلة للظهور على الشاشات العالمية....

وهناك أيضاً ما قدمته الأفلام الأخرى عن اليهود.. وهو ما يحتاج إلى وقفه تأمل لنعرف مايدور حولنا.. وكيف يمكننا أن نتحرك ـ إذا رغبنا في ذلك ـ.

وإلى العدد القادم.

رءوف توفيق

أخبار ثقافية

يقدمها: يوسف الحرمي

من قضايا الأسرة في التشريع الاسلامي

صدر مؤخراً للدكتور محمد الدسوقي استاذ الشريعة بجامعة قطر كتاب جديد يحمل عنوان : من قضايا الأسرة في التشريع الاسلامي ، يتناول فيه دراسة أهم قضايا الأسرة ، كالعلاقة بين الزوجين ، وتعدد الزوجات والعلاقة بين الآباء والأبناء ، وكذلك قضية الفرقة بين الزوجين سواء بالطلاق او التفريق عن طريق القاضي ..

يتكون هذا الكتاب من بابين يتناول الباب الأول موضوع الزواج ومقدماته والعلاقة بين الزوجين وبينهما وبين الأبناء ، والباب الثاني يتناول أهم مشكلات الأسرة مثل تعدد الزوجات والفرقة بين الزوجين وآثارها .

كلمات للزمن المقبل



أصدرت الكاتبة القطرية الدكتورة زهرة المالكي كتابها الأول الذي اختارت له عنوان « كلمات للزمن المقبل » ، وهو يضم مجموعة من خواطرها وتأملاتها في الحياة وفي أعماق النفس البشرية . وتتميز الكاتبة برشاقة أسلوبها وشاعريته الأخاذة ، ومن هنا فإن قراءة خواطرها وتأملاتها تشكل متعة روحية عميقة .

صدر كتاب « كلمات للزمن المقبل » عن دار الشروق في مصر ، وقد تصدرته مقدمة موجزة كتبها الشاعر الكبير فاروق شوشه .

معبد الأشواق

صدر مؤخراً ديوان جديد للشاعرة القطرية زكية مال الله يحمل اسم « في معبد الأشواق » ويتضمن الديوان العديد من القصائد الوجدانية ذات الوقع العاطفي والاحساس المرهف ، مثل أغنيات من المساء وهي أطول مجموعة شعرية .. ويتكون الديوان من ١١٤ صفحة والشاعرة زكية مال الله حاصلة على درجة الماجستير في الصيدلة من جمهورية مصر العربية .

مصر تقرر تخصيص جائزة ثقافية لعميد الأدب العربي

قررت مصر تخصيص جائزة ثقافية كبرى تحمل اسم عميد الأدب العربي د. طه حسين تمنح للنابغين والرواد في مجالات الفكر والثقافة والأدب من أبناء الوطن العربي اعتباراً من العام القادم ١٩٨٧ .

وقد أختير د. طه حسين لتحمل الجائزة الكبرى اسمه تقديراً لدوره الريادي والبارز في خدمة التراث العربي الخالد .

لعبة الحب .. الفريد فرج

صدر في سلسلة روايات الهلال في القاهرة كتاب يحمل عنوان « لعبة الحب » من تأليف الكاتب الفريد فرج ويتضمن الكتاب مسرحية بعنوان « أغنياء وفقراء » ومسرحية ثانية تحمل اسم الكتاب « لعبة الحب » .

الرحيل

صدرت مؤخراً مجموعة قصصية عن دار ابن سينا للنشر والتوزيع بالرياض للكاتب السعودي حسين علي حسين بعنوان « الرحيل » ، إحدى قصص المجموعة ، ولعل من أبرز مايميز لغة الكاتب في هذه المجموعة هو بساطتها ورقة الوصف التي تساعده في تحديد أطر القصة ضمن واقعية واضحة وبحيث لايسمح للغته أن تشتتها التهويمات الشعرية بعيداً ولا للاطناب الوصفي أن يقلل من شدة الاحساس بواقع القصة .

السياسة المالية في الدولة الاسلامية



صدر مؤخراً للكاتب والمذيع التلفزيوني القطري عبدالله جمعان السعدي كتاب جديد باللغة الانجليزية يحمل عنوان « السياسة المالية في الدولة الاسلامية » يتكون من مقدمة وتمهيد وثلاثة أبواب وخاتمة ومصادر ومراجع البحث القديمة والحديثة ، الباب الأول عن ايرادات الدولة الاسلامية ، والباب الثاني يتناول نفقات الدولة الاسلامية في عصر الخليفة الثاني عمر بن الخطاب رضي الله عنه والباب الثالث منه يتناول مقارنة ميزانية الدولة الاسلامية بالموازنات الحديثة سواء للدول الرأسمالية أو الاشتراكية .

طبع من هذا الكتاب مائة ألف نسخة بالانجليزية ، وعدد صفحاته ٢٧٢ صفحة من القطع المتوسط ، وقد تم طرحه في الأسواق العالمية .. قبل طرحه في الأسواق المحلية .

« واجهيني » ديوان جديد لجاسم صفر



صدر مؤخرا للشاعر الغنائي القطري جاسم صفر باكورة انتاجه الشعري في ديوان جديد يحمل اسم « واجهيني » تضمن الديوان ٢٥ قصيدة عاطفية كتبها باللهجة المحلية « العامية ».

ويعتبر الشاعر جاسم صفر ديوانه الأول انطلاقة جديدة بالنسبة له في مجال كتابة الأغنية .. ويأمل من خلال هذا الديوان ان يجد القبول والرضا من قبل عشاق الكلمة الجيدة ذات المضمون والهدف الذي يسعى اليه .. جاء الديوان في ١٣٣ صفحة من القطع المتوسط والورق الفاخر.

وجدير بالذكر أن الشاعر جاسم صفر كتب العديد من الأغنيات العاطفية للإذاعة والتلفزيون ، كما كتب العديد من المسلسلات والتمثيليات والسباعيات الاذاعية والتلفزيونية .. وعالج من خلالها العديد من قضايا المجتمع .

« الحب ايمان » ديوان جديد لنديم الليل





اهداني الشاعر السعودي الشاب « نديم الليل » باكورة انتاجه وهو ديوان شعر أصدره مؤخراً ، واختار له عنوان « الحب ايمان » وتضمن الديوان « ٣٨ » قصيدة عاطفية ووجدانية كتبها بالفصحى ، ويتكون الديوان من ٢٠٥ صفحة وهو من القطع المتوسط.

« الجمهرة » كتاب جديد من مختارات الشعر العربي

صدر للشاعر العراقي الكبير محمد مهدي الجواهري ، الجزء الأول من كتابه « الجمهرة » وهو مختارات من الشعر العربي تقع في عشرة أجزاء وسوف تصدر تباعاً عن وزارة الثقافة السورية ، والجزء الأول من « الجمهرة » يقع في (٨٠٠) صفحه ويشمل مختارات من العصر الجاهلي وتراجم لشعراء القصائد المختارة : وقد جاء الجزء الأول بفهارس لأسماء الشعراء ، والثاني لعناوين القصائد والثالث لأسماء الأعلام غير الشعراء والرابع للأماكن والخامس للأقوام والجماعات .

قراءة في أوراق الجسد العائد من الموت

صدرت للشاعر اليمني الدكتور عبد العزيز المقالح المجموعة الشعرية الثامنة وتحمل عنوان « قراءة في أوراق الجسد العائد من الموت » صدرت في بيروت عن « دار الآداب » والمجموعة تضم عدداً من القصائد الجديدة التي كتبها الشاعر في الثمانينات من مناخ المجموعة وبكي جسد الأرض ، أيتها النخلة اليمنية ، يا امرأة البن ، كيف يباغتك الأصفر ، الموت الأسود ، الحزن ، كيف تصيرين لحداً ، وينكسر الظل في الحنجر المأربي ، ايها المقبض المتبقي في السيف لاتكشف السر ، ومازال في الجسد امرأة ونخيل .

الشهيد الحي عبد القادر الحسيني « طبعة ثانية »

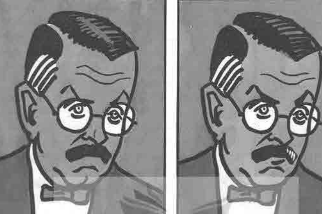
صدرت عن « دار الأسوار » في مدينة عكا بفلسطين المحتلة الطبعة الثانية من كتاب : قضية فلسطين في سيرة بطل : الشهيد الحي عبد القادر الحسيني للأستاذ نبيل خالد الاغا المحرر بمجلة الدوحة .

جدير بالذكر ان الطبعة الأولى من الكتاب صدرت منذ أربعة أعوام عن المؤسسة العربية للدراسات والنشر ببيروت .

وقد لاقى الكتاب رواجا ملحوظا لدى الأوساط الثقافية والتعليمية باعتباره أول كتاب وثائقي عن الشهيد الحسيني الذى استشهد على ربوة القسطل بالقرب من القدس عام ١٩٤٨ ، وقد اعتمدته الموسوعة الفلسطينية كأول مرجع لعلوماتها عن عبد القادر الحسيني ، ومن ناحية اخرى يعكف الزميل « ابو خلدون » على وضع اللمسات الأخيرة لكتابه الجديد الذي سيصدر قريبا ويحمل عنوان : زيارة الى فلسطين المحتلة : دراسات ومشاهدات ، وقد تم نشر جزء من مادة هذا الكتاب في مجلة الدوحة تحت عنوان « وجه مدينة من فلسطين » ، ويتحدث الكتاب عن كافة مدن فلسطين من حيث تاريخها وجغرافيتها وعاداتها ونضالها ضد المحتلين الصهاينة ، اضافة الى أشهر عائلاتها وأبرز الشخصيات التي تنسب اليها . كذلك الانطباعات التي عكستها زيارة المدن الفلسطينية المحتلة في نفسية الكاتب ومشاعره .

استراحة الدوحة

أصل وصورة





• بين أصل وصورة الكاتب المسرحي الفرنسي الذى عرف بتحويله القصص الكلاسيكية إلى مسرحيات حديثة ، هناك سبعة اختلافات ، إذا تعرفت عليها فلك جائزة .

لأقوياء الملاحظة فقط!



• أمامك رسوم لستة أشياء متداخلة ، هل تستطيع التعرف عليها ؟ إذا عرفت الحل أرسله إلينا لتحصل على جائزة .

لوحة لم تتم



• هذه اللوحة التى لم تتم لممثلة عربية أمتعتنا بأدوارها الكوميدية فى الأفلام والمسرحيات المتعددة . وقد عملت على المسرح مع أهم الممثلين أمثال نجيب الريحانى ويوسف وهبى وحسين رياض وجورج أبيض .. ترى من هى ؟ .. فى انتظارك جائزة .

لعبة الظلال





• حاول أن تساعد هذا اللاعب فى العثور على ظله الحقيقى لتحصل على جائزة.

هات أجمل تعليق

• حاول أن تجد تعليقاً خفيف الظل على هذا الرسم الكاريكاتيرى لتحصل على جائزة.

المثل يقول



• هذا الرسم الكاريكاتيرى يعبر عن مثل شعبى .. إذا تعرفت عليه أرسله إلينا لتحصل على جائزة.

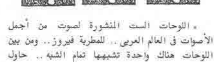
يخلق من الشبه أربعين











• اللوحات الست المنشورة لصوت من أجمل الأصوات فى العالم العربى .. للمطربة فيروز .. ومن بين اللوحات هناك واحدة تشبهها تمام الشبه .. حاول التعرف عليها لتحصل على جائزة.



بقلم : مريم آل سعد

الشاشة في المصيدة

هناك مشكلة اسمها الفيديو في العالم العربي .. ومشكلة أكبر هي التلفزيون !

إذا لم يكن بالإمكان السيطرة على استخدامات الفيديو مادامت العقلية التجارية هي التي تغرق الأسواق بمختلف الأعمال التي تتسلق الموجة ، وتداعب كل رغبة ، وهذه العقلية ليست تعبيراً عن تحولات المجتمع السياسية والاقتصادية والاجتماعية بقدر ماهي اصطياد لما يجذب الناس ويضمن التسويق العريض ، فإن المسألة تختلف بالنسبة للتلفزيون لأنه الجهة الرسمية التي عليها حماية أذواق الناس ، والحفاظ على تراث المجتمع ، وعدم السماح للأنماط التخريبية بخدش تركيبته والإخلال بقيمه ، وغزو ثقافته .. لذلك فإنه من المخجل أن ينساق التلفزيون الى عرضه هذه الأفلام المنحرفة المسيئة لعقول الناشئة ، والمدمرة لمثله ومبادئه بدلاً من التصدي لها ومواجهتها بحزم وصلابة .

فرويداً رويداً تتحول أجهزة التلفزيونات العربية الى أداة تمكن الاتجاه التجارى من ترويج أفلامه ومسلسلاته وانتاجه بوعي وبدون وعي ، بقصد وبدون قصد لما تطرحه هذه المواد المسجلة من تأثيرات وانعكاسات تمس جذور المجتمع ، وتؤثر على معتقدات الناس .

هل ظهور الطبقة الجديدة التي تنادي بالانفتاح الاقتصادي على العالم الغربي ، وترويج بضائعه ، والتعلق بمخلفاته والتي تعتنق انتهازية المصالح ، هو السبب في هذا التغريب الذى تمارسه معظم هذه الأفلام والمسلسلات بتشويهها لأصالة المجتمع ، وطعنها لممارسات الشرفاء بتركيزها على ابراز النماذج المنحرفة وتبرير سقوطها .. ؟

مادامت أدوات الانتاج تحت تصرف من يملكها فلا غرابة في ظهور تلك الأفلام التي تعكس اهتمامات وسطحية أصحابها ، وتغريرها لعقول الناس بما تطرحه من أفكار ساذجة ، وما تروجه من مصطلحات وألفاظ مبتذلة ، سرعان ماتلتصق بقاع المجتمع وتصبح جزءاً من كيانه ، حيث تمتزج به ، مادام كل من يملك رأسمال معيناً يمكنه انتاج الأفلام وتسويقها .. وليس مهما إذا كانت تؤرخ لحياة الراقصات أو ملوك الجريمة أو تجار الشنطة ، أو تستغل صعود نجم ما لتفصل على مقاسه مجموعة من الأفلام تنقصها الموضوعية واللمسات الواقعية .. !

أليس خطر المرآة المتحركة حاداً ومؤكداً .. ؟ هكذا تأثير دور السينما والمسرح والتلفزيون والفيديو .

لقد أصبحت هذه المؤسسات في خطر بعد أن تحولت الى مجرد أداة توصيل تروج بضاعة متخلفة تسعى لتوظيف قدرتها المالية في انتاج أعمال مربحة ، وتساعدها في هذه المهمة تلك الأجهزة الرسمية عندما تقوم بشراء هذه الأفلام وتعمد الى تبنيها وعرضها .. ! فليست كل مادة مسجلة تستحق العرض والبث ، وإهدار ساعات الارسال عليها ، وإفساح المجال لنشر أفكارها الهابطة على الناس .

إن مشكلة الارسال التلفزيوني الطويل تجعل محطات التلفزيون العربية تضطر أحياناً الى شراء المسلسلات والأفلام التي سبق وأن اعترضت على صلاحيتها لسطحية مضمونها وضعف معالجتها ، كما أن غياب الخطط الاعلامية الجيدة ، وعدم التواصل الكافي بين الأجهزة الاعلامية الرسمية وبين العناصر الموهوبة من الكتاب والمؤلفين وذوي الاسهامات الملتزمة أفسح المجال لانتعاش فئة الانتهازيين ، وأنصاف المواهب وأصحاب الصعود السريع على حساب الرؤية الهادفة المستبصرة ، كما أن تفشي الشللية واستغلال المناصب ، وتولي شخصيات غير واعية لمناصب مسئولة أدى الى اختلال المنظور الذي تقيّم من خلاله هذه الأعمال ، بحيث أصبح الحكم يجري بتمريرها دون الانتباه الى مدى ما تتصف به من ضحالة وتفاهة ، تبقى ردود فعلها طويلاً في ذاكرة المتفرجين ، وتساهم في تخلفهم واعتناقهم لأفكار مسمومة تزيد من حيرة وضياع الشباب وتُذكي تخديره .

وعلى تلفزيونات الوطن العربي الإحتفاظ بدورها التثقيفي الهام وعدم السقوط في بؤرة ما تتسابق عليه شركات الفيديو ومراكز توزيعها ، وعليها تمييز هذه البضاعة المغشوشة والامتناع عنها حتى ولو كانت متاحة لتداول بعض الناس من خلال أشرطة الفيديو في منازلهم .

إنهم في هذه الحالة سيشاهدونها ولكن باحساس مختلف يسميها باسمها ويعترف بسطحيتها ومحدوديتها ، وإذا بادرت الدولة بمصادرة هذه الأفلام المريضة ومنع عرضها وتداولها فإن الحلقة تكون قد أحكمت اغلاقها على عنق الشره المادي الذي ينقب عن المال ، ويتغاضى عن أبسط القواعد الأخلاقية الواجبة .

إن جزءاً كبيراً من حماية التيار الفني الصادق بيد الأجهزة الرسمية التي كلما فرضت وجودها على معادلة الانتشار ، وأوضحت شروطها ، وأظهرت قوتها ، وأبعاد تحركاتها ، كلما استطاعت أن تعيد التوازن ، وتقضي على التطلعات الطفيلية ، وتفتح آفاقاً لبزوغ الفن الطليعي الملتزم ، وتعيد بناء ذوق الانسان العربي ووعيه المفقود .. أما إذا كان المجال سيترك مفتوحاً للمصادفة ، ولقانون السوق ليحدد ازدهار نوعية الأفلام التي تفرضها نمطية الظروف الموجودة ، فإن قيم الناس ستصبح في تقهقر وتذبذب تحت رحمة شباك العرض !